مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

منتديات قلعة طرابلس

من القصص الإسلامى

الجـزء الأول

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

٨٩

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

المؤلف
د. محمد رجب البيومى

هـذا الكتاب

يضم هذا الكتاب قصصًا شائقة ومجالس مختارة، تصوّر حيوات رجال السياسة والأدب والحرب، وتظهر التيارات الخفيّة التى كانت تسبّب أخطر النتائج، فى تاريخنا الفسيح، وقد جاء الحوار القصصى منسجمًا مع ما كان دون شطط، يجمح به الخيال إلى غير الواقع، بل يحرص على تجليته على حقيقته، ليغنى غناء المراجع الأصلية. وقارى القصص التاريخى إذا سلم من التزيّد، يجمع بين الفن والتاريخ فى مستوى واحد، فهو حين يلمّ بأحداث العصور السابقة يستمتع بعطر الفن فى الحوار المعبر، والمشهد الناطق والتصوير الموحى، وهو لابد متطلع إلى المزيد، وقد يدفعه هذا التطلع إلى مراجعة المصادر الأولى، فيلمّ بما كان خافيا عنه، موازنا بين ماقرأ فى هذا القصص، وما جاء فى الأصل التاريخى، وهى موازنة تُثريه وترفع مستواه.

ونحن نعرف أن التاريخ يُقدّم القدوة ويعطى التجربة، والقدوة مثال يحتذى، وفى التجربة وقاية من الخطإ، وعون على الصواب، وإذا نجحت هذه المشاهد فى أن تفتح منافذ الضوء، وتدفع إلى مزيد من الاهتمام، فقد أدت رسالتها التى دُوّنت من أجلها، وسنتبعها بأخوات لها ترتسم خطتها أسلوبًا وتوجيهًا، والله هو الموفق.

٢٢٤

منشورات قلعة طرابلس

مراجعة هيئة علماء
الجمعية الشرعية الرئيسية
لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية

سلسلة
مكتبة المسلم العصرية
إسلاميات
•
سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه
○ عقيدة ⊙ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر
بأسلوب ميسر يفهمه العامة
ويسعد به الخاصة
•
مراجعة هيئة كبار علماء
الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة
•
حقوق الطبع محفوظة للناشر

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

فى التاريخ الإسلامى مواقف رائعة تحتاج إلى عرض سلس يشوق القارئ ويجذبه إلى متابعة الأحداث دون ملل ، والأسلوب القصصى أهدى السبل إلى جذب الشبيبة المتطلعة ، كى تعلم من صحائف الأمس ، ماينير لها طريقها الحافل بالمعضلات ، حيث تصبح العظة التاريخية أستاذاً يوجه ، ومصباحاً يهدى ؟

وأنا حين أكتب هذه القصص التاريخية أسلك سبيلا مطروقاً سار فيه رواد الأدب المعاصر ، ولكنى رأيت أن بعضهم يتسع اتساعاً شاسعاً فى ابتكار الأحداث الخيالية ، جوار الوقائع الحقيقية ، ولا ننكر أن الخيال يخدم الواقع ، حين يفسر مراميه ، ويوضح غوامضه ، ولكن المبالغة فى اصطناعه قد تخلط الوهم بالحقيقة لدى من لم يقرأ التاريخ فى كتبه الأصلية ، وأكثرها بعيد عن متناول الشباب ، فيضيع المغزى المراد من تسجيل الماضى ، وإعادته بوجهه الصادق ، وإيقاعه الدقيق .

لذلك حرصت على أن يكون الحوار القصصى فى أكثر هذه الفصول منسجماً مع ما كان دون أن أجنح إلى شطط يلبس الأمر على من يقرأ الوقائع لأول مرة ، وإذا كان العصر النبوى مشتهر الأحداث بحيث لاتغيب حقائقه عن أحد ، فإن ماوليه من العصور تغيب أحداثه عن جمهرة القراء ، وهم فى حاجة إلى الوقوف عليها فى نطاقها الواقعى ، وأقول فى أكثر هذه الفصول لأنى تركت أسلوب الحوار فى قليل مما كتبت ، ملتزماً بالحقائق الصادقة دون جموح ، رغبة فى التنويع .

والتاريخ يقدم القدوة ، ويعطى التجربة ، والقدوة مثال يحتذى ، والتجربة وقاية من الخطأ ، وعون على الصواب ، وإذا نجحت هذه المشاهد فى أن تفتح منافذ الضوء ، وتدفع إلى مزيد من الرغبة فى الاطلاع ، فقد أدت رسالتها كما أحب ، ومن الله العون والسداد .

د . محمد رجب البيومى

ثلاث بشـــارات

قحطت الأرض ، وضنت السماء فى عام الرمادة على عهد عمر بن الخطاب ، فلاقى المسلمون بالمدينة وما حولها عناء شديداً ، وأدرك عمر بن الخطاب ما يتهددهم من الخطر ، فأخذ يحصر مالدى الأغنياء من القوت ، فيضمه إلى مخزن كبير جعل عليه أربعة من فضلاء الصحابة ليقوموا بالتوزيع العادل على الفقراء ، ثم أخذ يقيم المآكل العامة للناس ، على أن يتناول الطعام معهم ليكون كأحدهم ، وقد أكل ذات مساء خبزاً بسمن مع بعض الأعراب ، فوجد الأعرابى يتبع السمن بشغف فقال له : ولم لاتخلطه بالثريد ، فقال : ما أكلت بالسمن منذ عام يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر يده عن الطعام ، وقال : والله لن آكله بعد الآن حتى يأكله كل مسلم بالجزيرة .

وكان الفاروق لاينتظر حتى يأتى من يحمل الزاد إلى منازل الفقراء ، إذ جعل يحمله بنفسه ، قال أبو هريرة : لقيت عمر بن الخطاب ذات ليلة وقد حمل ما أثقله على كتفه ، فصاح بى : كن معى يارجل ، فحملت معه ، وجعلنا نطوف على عشرين بيتاً من محارب ، والفاروق يقدم بيده العشاء لكل بيت ، ثم بعث رسله إلى مصر والقادسية والشام ليسعف ولاته الجزيرة بما توفر عندهم من الزاد ، ولم يلبث أن قدم عليه ماجاء من عمرو بن العاص والى مصر ، ومن سعد بن أبى وقاص والى القادسية ، ومن معاوية والى الشام ، فأخذ يفرق الزاد والحيوان على الناس مستبشراً ، ويقول : لولا أن فتح الله هذه البلاد لهلكت الجزيرة ، لله حكمة فيما نأخذ ونترك ، يعلم عاقبة الأمور .

وفى كل ليلة يجتمع مع أمناء الطعام من الصحابة ليسألهم عما أنفقوا وعما بقى ، فقال لهم ذات ليلة : أحصوا من تعشى عندنا الليلة ، فأحصوهم فوجدوهم سبعة آلاف رجل ، فقال : أحصوا من أرسل لهم الطعام فى منازلهم بالمدينة وما حولها ، إذ نزل من البادية عندها أعراب كثيرون ملئت بهم الخيام ينتظرون زاد أمير

المؤمنين كل يوم ، وقد وفدوا من الأماكن النازحة يطلبون الغوث ، فأحصى هؤلاء فوجدوهم أربعين ألفاً ، فقال عمر : الحمد لله ، أتناول العشاء وأنا مستريح ، وكان عشاؤه الخبز والزيت ، مع أنه أرسل لحم الجزور إلى الآكلين .

ثم بدا لعمر أن يصلى صلاة الاستسقاء آملا فى نزول الغيث ، ورأى أن تكون الصلاة عامة تشمل عرب الجزيرة كلهم ، فكتب إلى عماله أن يقوموا بالصلاة فى وقت حدده ، فلما حان الموعد ، تقدم أهل المدينة إلى المصلى ، وخطب الناس متضرعاً ، وتلا ما كان يقوله رسول الله عند دعاء الاستسقاء خاشعاً راجياً ، ثم جاء بالعباس بن عبد المطلب عم رسول الله فقال له : ياأبا الفضل ، كنا عند الكرب نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حى ماثل بيننا ، وأنت أقرب الناس إليه ، فادع ونحن نؤمن من ورائك ، فجعل العباس يدعو ، وعمر من خلفه يؤمن مع المسلمين ، ثم كشف الله الغمة ، فأرسلت السماء مطرها مدراراً بعد الصلاة بثمانية أيام ، فاهتزت الأرض ، ونما النبات ، ورعت الماشية ، وبدت تباشير الرخاء .

صلى العباس عم رسول الله ، ودعا خاشعاً منيباً ، ولكن نفراً من الناس جعلوا يهمسون : ولماذا العباس ، وهو لم يسلم إلا قبيل الفتح ! أما كان على بن أبى طالب أولى وأجدر ، وطار الهمس إلى العباس ، فقال : إن علياً ابن أخى ، وما كنت أشعر بشىء نحوه لو أن عمر قد اصطفاه ! فما دخولكم ياقوم بينى وبين ابن أخى !

ثم عاد إلى منزله فلقى ولديه عبيد الله ، وعبد الله ، فأنبأهما بما اتصل إليه من همس الناس ، وسكت مطرقاً ، ثم نظر إلى ولديه قائلا :

لقد تأخر إسلامى المعلن إلى قبيل الفتح ، ولكنى كنت مسلماً منذ جهر ابن أخى صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، وقد أسررت الإسلام لأحاول أن أمنع من أذى قريش للمسلمين ما أستطيع ! على أنى كنت متيقناً أنه رسول الله حقاً وصدقاً منذ أعلن خطبته الأولى على الملإ من قريش ، إذ كانت لدى ثلاث بشارات صادقات ، عرفتها حق المعرفة ، فاستبان لى الطريق !

قال عبد الله لأبيه : أعرف بعض هذه البشارات وأجهل بعضها ، ولكنى أريد أن أستوثق فأسمعها جميعها منك ، فإذا رويتها بعد فعن يقين .

قال عبيد الله ، وأنا كذلك يا أبى ، فتفضل بما لديك !

قال العباس : أعرف أنكما معاً تعرفان بشارة بحيرى الراهب ، وأنا أذكر ما قاله أخى أبو طالب ، وما عهدته مبالغاً أو متزيداً ، بل كان الإيجاز ديدنه ، وربما اكتفى بالإشارة عن الكلام فى بعض مواقفه ، وقد تحدث عن أمره مع بحيرى الراهب فقال :

خرجت فى ركب الشام تاجراً ، ومحمد ابن أخى فى الثانية عشرة من عمره ، فتعلق بى يرجو أن يصاحبنى فى الرحلة ، وكنت أخشى عليه وعثاء الطريق ، ولكنه أصر ألا يفارقنى ، فطاوعته ، واصطحبته معى ، فلما نزل ركبنا بصرى ، رأينا راهباً يتقدم إلينا ، ويسأل أن نتناول طعامه ، وكنا من قبل نمر بصومعته فلا يهتم بنا ، ولكنه طلب استضافتنا جميعاً على ألا يتخلف أحد ، فعجبنا لما أبدى ، وقال له أحدنا ، كنا نمر بك من قبل فلا تلقى إلينا بالا ! فما شأنك اليوم ؟ فقال : صدقت ، ولكنى أعتزم تحقيق أمر لا أبلغه إلا إذا دعوتكم جميعاً !

قال أخى : فاجتمعنا إليه ، وتخلف محمد فى رحال القوم تحت شجرة أمام الصومعة ، فجعل بحيرى ينظر إلينا متعجباً ، ويقول : لقد طلبت ألا يتخلف أحد منكم عن طعامى ، فهل تخلف أحد ؟ فقال أحدنا : ما تخلف غير غلام هو أحدثنا سناً ، فتركناه تحت الشجرة ، فقال رجل من قريش : إنه والله للؤم أى لؤم أن نحضر جميعاً ، ويتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام أعد لنا ، ثم خف سريعاً فأحضره إلى مجلسنا .

قال أخى أبو طالب : فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء فى جسمه يجد عنده صفتها ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، تقدم بحيرى إلى محمد وقال له : أسألك باللات والعزى أن تجيبنى عما أسألك عنه ، فظهر الغضب فى وجه ابن أخى وقال : أسألك أنت ألا تذكر اللات والعزى فى حلف ، فأنا ما أبغض شيئاً قدر ما أبغضهما ! قال بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسأل ، وجعل يستفسر عن أشياء يجيبه عنها محمد ، ثم نظر إلى ظهره فوجد خاتماً ، قال : إنه خاتم النبوة بين كتفيه ، فسكت وأطرق .

ثم اتجه إلىّ — أبو طالب يتحدث — وسألنى : ماهذا الغلام منك ؟ قلت : إنه ابنى ، فقال بحيرى : ما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ! فقل ، قلت : إنه ابن أخى ، وقد مات فرعيته بعده ، قال : صدقت الآن ، فارجع به إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا عنه ما أعرف ليلقين أذى كثيراً ، فإن لابن أخيك هذا شأناً عظيماً ، فتأثرت لما سمعت ، وجعلت أرعى ابن أخى طيلة الرحلة ، حتى رجعت به سالماً !

قال عبد الله : هذا ما نعرفه ، وما اشتهر بين الناس جميعاً من حديث بحيرى الراهب ، فما موقفك منه ؟

لقد وقع حديث أخى منى موقعاً جعلنى فى حيرة ، فكنت أتردد بين الشك واليقين ، ثم جهر ابن أخى بالدعوة ، فنهض أبو طالب لحمايته بأكبر ما يستطيع ، وكان يرانى صامتاً أو كالصامت فى موقفى ، فلا يجبرنى على شىء ، ولكنه كان يثنى على حمزة أخيه ، ويلعن أخاه عبد العزى الذى يعرف بأبى لهب ، فأقول : إنه الدم يجرى فى عروقه متصلا بدم ابن أخيه ، إذ اكتفى بالدفاع دون أن يعلن الإسلام كما أعلنه حمزة ! وفى ليلة جلست إليه ، وقد أهمه ماتؤذى به قريش جماعة المسلمين ، فصاح بى : أريت ما يفعله أخوك ؟ طواعية لامرأته حمالة الحطب ، وكأنه يدعونى لأن أسلم جهاراً كحمزة ، فقلت له وأنا أهابه وأعتبره فى مكان والدى عبد المطلب ، لأنه شيخ الأباطح من بعده ، يا أخى ، أنا على يقين من صدق محمد ، وقد تأكدت ذلك فى اليمن ، إذ ورد على هناك مثل ما ورد عليك فى بصرى من قبل ! وإذا كان الذى حدثك حبر من أحبار النصارى فإن الذى حدثنى هو من أحبار اليهود هناك ، فاهتم أبو طالب بما سمع ، وصاح بى : لماذا تخفى عنى بشارة الحبر اليهودى مع أنى أذعت بشارة الحبر النصرانى منذ علمتها ، قل يا عباس لأزداد اطمئناناً ، حدثنى عن بشارة ثانية !

قال العباس : فأخذت أجمع شارد ذهنى ، لأروى ما كان كما كان ، حتى إذا اتصل الخاطر بالخاطر ، قلت لأبى طالب ، وكأنى أتمثله أمامى الآن :

خرجت فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيه أبو سفيان بن حرب ، فكنا نطعم من معنا ، أنا فى يوم وأبو سفيان فى يوم ، ولا يقصر أحدنا عن الآخر ، وفى ذات

يوم قدم علينا عبد الله بن حذافة السهمى بخبر قال فيه : إن محمد بن عبد الله صعد إلى الصفا وأعلن أنه نبى ، إذ خطب الناس بالأبطح ، فحمد الله وحده لاشريك له ثم قال : (إن الرائد لايكذب أهله ، ولو كذبت الناس جميعاً ماكذبتكم ، والله الذى لا إلـه إلا هو ، إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبداً ، أو لنار أبداً) .

قلت لابن حذافة : لعله صادق : فقال أبو سفيان : مهلا يا أبا الفضل فما أحب لك أن تقول مثل هذا ، إنكم يابنى عبد المطلب ذوو يمن وشؤم ، وأخشى أن تكون هذه من شؤمكم ، قلت : فلعلها من يمننا .

ثم لم يلبث الخبر أن انتشر بين جيراننا من أهل اليمن ، فإذا حبر من أحبار اليهود بها يقدم علينا فيسأل عن عم الرسول الذى أعلن رسالته ، وكنت غائباً ، فقال أبو سفيان : أنا عمه ، فقال اليهودى : حدثنى عنه ، فقال أبو سفيان : ما كنت أحب له أن يدعى هذا الأمر أبداً وغيره عندنا أفضل منه .

واستمر العباس يقول : وجاءنى الخبر ، فغضبت لما قال أبو سفيان وخرجت حتى أتيت حبر اليهود فى مجلسه ، ومعه أبو سفيان إذ قدم حين رآنى قدمت ، فقلت للحبر : بلغنى أنك سألت ابن عمى هذا عن رجل منا قال إنه رسول الله ، فأخبرك أنه عمه ، وليس به ، ولكنى أنا العباس بن عبد المطلب عم بن عبد الله بن عبدالمطلب فقال الحبر : أنت أخو أبيه ؟ قلت : نعم أخو عبد الله ، ووالدى عبد المطلب .

فأقبل الحبر على أبى سفيان وقال : أو صدق هذا ؟ قال : نعم ، فجعل يسألنى فيقول : هل فشت لابن أخيك صبوة أو سفاهة قبلهما ، قلت : لا ،وإله عبدالمطلب ما كذب ولاخان ! وكان يسمى بالأمين عند قريش ، قال : فهل كتب بيده ؟ فظننت أن الخير أن أقول إنه كتب بيده ، ولكن خفت أن يأخذها على أبو سفيان فصدقت حين قلت : ما كتب ، فقام الحبر فزعاً ، وقال : قتلت يهود ، قتلت يهود ؟

ثم رجعنا إلى منزلنا ، وأبو سفيان واجم لاينطق ، فقلت له : مالك ؟ فقال : يا أبا الفضل إن اليهودى لفزع من ابن أخيك ، قلت : قد رأيت ما رأيت ، فهل

لك يا أبا سفيان أن تؤمن به ، فإن كان حقاً فقد سبقت ، وإن كان باطلا فمعك غيرك ، فقال : والله ما أومن به حتى أرى الخيل تطلع من كداء (جبل بمكة) فقلت : ما تقول ؟ قال : كلمة جاءت على فمى وما أدرى كيف لفظت بها ، وما عهدت الخيل تطلع من كداء .

قال العباس : وإلى هنا تم حديثى مع أبى طالب . ثم مرت الأيام ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ونظرنا إلى خيل المسلمين تطلع من كداء ، قلت : يا أبا سفيان أتذكر الكلمة يوم اليمن ، فقال : إنى لذاكرها ، وقد أسلمت .

قال عبيد الله بن عباس : مضت بشارتان ، فأين الثالثة ، فالتفت العباس إلى عبد الله وقال : أعلمتها يا عبد الله فترويها لأخيك ؟ قال عبد الله : ما أعرف غير بشارة بحيرى ، وقد سمعت البشارة اليمنية منك الآن ، فهل لك أن تتحدث عن البشارة الثالثة ! ؟

فقال العباس : إن البشارة الثالثة أقدم من بشارة بحيرى النصرانى ، والحبر اليمنى ، إذ كانت مع والدى عبد المطلب !

فقال عبد الله : وكيف حدثك بها ، وقد مات وأنت لم تبلغ الحلم ؟

فبتسم العباس ، وقال : مهلا يابنى ، إننى ما كدت أذكر بشارة الحبر اليمنى لأخى أبى طالب فى مجلسنا الذى أتحدث عنه ، حتى أشرق وجهه ، وقال : عهدى بالبشارة قديم ، قبل أن أرى بحيرى بزمن ، فقد حدثنى والدى عبد المطلب حديثاً لا أزال أجد رجعه فى سمعى ، وصداه فى نفسى ، وحين فاجأنى بحيرى بقوله دهشت لا لأنى أسمع الجديد ، بل لأنى قرنت بما قال ما سبق أن سمعته من أبى !

قال عبد الله : تشوقنا إلى حديث جدنا عبد المطلب ، فليتك تعجل به .

فرد العباس ، وهل أتكلم إلا عنه ، كما رواه أخى أبو طالب ، حيث قال : كنت أعهد أبى عطوفاً على محمد وهو طفل صغير ، يصحبه معه إلى البيت الحرام ، ويجلسه على ركبته فى مجلسه مع قريش ، وما كان حمزة والعباس وغيرهما من أبنائه ، وكل من كان فى سن محمد ليبلغ من نفس والدى مبلغ محمد ، وكنت أعزو ذلك إلى أن أباه قد فارق الحياة ، وأن والدى يرى حفيده فى حاجة إلى رعاية خاصة

كيلا يحس مرارة اليتم ، فأكبر فى أبى عطفه وحنانه ، وازداد لمحمد حباً ، وكنت أرى سحابة من الهم تعلو وجه أبى بين الفينة والفنية ومحمد معه ، فأقول فى نفسى : لعل الشيخ يحس دنو أجله ، ويشفق أن يترك الطفل الأثير قبل أن يبلغ مبلغ الفتيان ولكل أجل كتاب ، حتى استبد بى هذا الخاطر ، فقلت له وأنا أجمع الكلمات بجهد حتى لا تتعثر خوفاً من أن أثير شيئاً فى نفس أبى ، قلت له : كلنا فداؤك يا أبى ، وكلنا آباء لمحمد .

فابتسم الشيخ ابتسامة هادئة ، وقال فى صوت يشبه الهمس : أتظننى يا أباطالب أجهل أنك شيخ بنى هاشم بعدى ، وأن حبك للطفل اليتيم يتضاعف يوماً بعد يوم ، لا أجهل ذلك ، ولكنى كنت أود أن يتنفس بى العمر ، حتى أدرك نبوءة سيف بن ذى يزن .

قلت متعجباً : وما نبوءة سيف بن ذى يزن يا أبى ؟

فقال بصوت يشيع فيه الأمل والحب ، وشىء غامض لا أدريه ، أهو الحزن على فائت من أمر عبد الله أخى ، أم على قادم من أمر محمد ولده ، قال أبى :

لما حضرت جيوش كسرى مع سيف بن ذى يزن ، وظفرت بطغاة الحبشة فى اليمن ، عمت الفرحة فى الجزيرة العربية ، وتقدمت الوفود إلى صنعاء مهنئة ، وكان من بينها وفد قريش ، وفيهم معى أمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جدعان ، وأسد بن خويلد بن عبد العزى ، فقدمنا عليه فى رأس قصر يقال له غمدان ، فإذا هو على سرير الملك مضمخاً بالعبير ، عليه بردان يأتزر بأحدهما ، ويرتدى بالآخر وسيفه فى يده ، وعن يمينه وعن يساره أبناء الأذواء والأقيال .

فدنوت واستأذنت لأتحدث ، فأذن مسروراً ، وأفضت فى بيان مآثر سيف وبطولته ، وتحدثت عن أسرته وبلده ، ثم قلت : أيها الملك ، نحن أهل حرم الله ، وسدنة بيته أشخصنا إليك ما أبهجنا من انتصارك ، فنحن وفد التهنئة .

فقال : من أنت أيها المتكلم ؟ قلت : أنا عبد المطلب بن هاشم ، فقال : مرحباً بك وبمن معك ، أنتم أهل الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا رحلتم ، هلموا إلى دار الضيافة مع الوفود لأستضيفكم بضعة أيام .

وبعد يومين دعانى الملك وحدى فقال لى : إنى أجد فيما حدثته من أنباء من قرءوا الكتب ، وعلموا بشائر ما يرجى فى المستقبل ، أن ولداً سينشأ بتهامة ، فى كنفه شامة ، ستكون له الإمامة !

قال عبد المطلب : لقد أتيت أيها الملك بخبر ما سمعته من أحد ، فهل لك أن تزيدنى .

فقال ابن ذى يزن : نبى هذا حينه قد ولد أو سيولد قريباً ، اسمه أحمد ، يموت أبوه ثم تموت أمه فيكفله جده ثم عمه .

فهجست فى نفسى بواعث الفرح ولم أتمالك أن قلت : أيها الملك، كان لى ابن ، وكنت عليه شفيقاً ، فزوجته بكريمة من كرائم قومى ، فأتت بغلام سميته محمداً ، مات أبوه ثم ماتت أمه ، وكفلته أنا جده ، وبين كتفيه الشامة التى ذكرت .

قال سيف : إذا كان الذى قلت كما قلت : فاحتفظ بابنك الصغير واطو ذكره عمن معك من الناس ، فقد يحسدونك ويحسدونه ، ويبغون له الغوائل ، ثم قال لى : انصرف فقد بشرتك !

وأمر سيف لكل من رفاق بعشرة أعبد وعشر إماء وحلتين ، وأمر لى بمثلى ما أمر لهم جميعاً ، وحال الحول فمات الملك .

قال أبو طالب : وقد مات الجد ، وبقى الحفيد فى رعاية العم .

قال العباس : ولا أزال أذكر حديث أخى عن أبى ، فأتأكد أن الله ناصر ابن أخى ، ويشتد أذى قريش به فأعلم أن ذلك إلى حين ، وكان رسول الله يعرف ما بنفسى نحوه فجعل يستشيرنى بعد رحيل أبى طالب ، وكنت معه فى بيعة العقبة كما تعلمون !

قال عبد الله : يا أبى ، لا يعلق بنفسك شىء من قول من قال عن يوم الاستسقاء، فعمر الفاروق ملهم ، ولولا أنه يعرف قدرك ما آثرك واجتباك .

قال العباس : هو ذاك ، لقد شرفنا برسول الله ، كما شرف به المسلمون ، وما علينا إذا تكلم لسان بغير ما نحب غير أن نصفح ونعفو كما كان يصفح الصادق الأمين !!

زينب الأولى

— ١ —

دخلت زينب منزلها ، وعلى وجهها شحوب يستر وراءه كمداً ملازماً ، وأرادت أن تشغل نفسها بعض الوقت ، فأيقظت ابنتها أمامة الصغيرة ، لتقدم إليها بعض الطعام ، ونظرت الفتاة الصغيرة إلى وجه أمها الشاحب ، فقرأت ماأثار فى نفسها الشجن ، فصاحت بها متسائلة : مالك يا أماه ؟

قالت زينب : لا شىء يا أمامة !

فأسرعت أمامة تقول : كأنى بأبى قد رحل مع المقاتلين إلى المدينة !

فقالت زينب باكية : نعم رحل زوجى ليقاتل أبى !!

فأجابت الفتاة فى براءة : ومع من أنت يا أماه !

فتطلعت زينب إلى السماء ، ودعت ربها هاتفة : اللهم انصر أبى محمداً ، واردد زوجى أبا العاص سالماً !!

* * *

تذكرت أمامة مادار بين أبيها وأمها بالأمس ، فقد صممت قريش على محاربة الرسول فى المدينة ، لتظهر للعرب قوتها الباسلة ، حين تهزم من حاولوا أن يعترضوا قافلتهم التجارية ، واجتمع الملأ فى دار الندوة ليناقشوا الأمر فى حفيظة ، وكان فيهم من أكله الحقد ، فصمم على القتال ، ومن آثر الدعة ، فدعا إلى المسالمة بعد أن نجت القافلة، ولكن صوت الباطل قد ارتفع ، وهدد أبو جهل وأوعد ، ورمى المسالمين بالجبن والخور ، وانضم إليه فريق كبير ممن شايعوه على غيه ، وطال الجدال المحتدم ، حتى قرّ الرأى على القتال ، ونهضت قريش لتحمى حوزتها ، وأصرت على أن يكون أقرباء رسول الله فى جيش الشرك ، ومنهم العباس بن عبد المطلب عم محمد وعقيل بن أبى طالب ابن عمه وأبو العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ، وإذن فلا مناص من أن يسير أبو العاص ، ولا مناص

من أن تكابد زوجته أعنف ضروب الانفعالات ، حين يرحل الصهر ليقاتل أعز الناس على زوجه ، ومكره أخاك لابطل ...

قالت أمامة : ولكن أبى — كما أعلم — كان لايرد لك طلباً ، فلم لم تمنعيه ؟

فنظرت زينب نظرة حانية ، ثم قالت فى أسى :

أذكر أنى اعتنقت الإسلام حين نزل الوحى بالرسالة على أبى ، ولم يهد الله قلب أبيك ، ولكنه قال لى : سأتركك وما تشائين يا بنت الخالة ، ولك على أن أكون طوعك فى كل ما تريدين ، سوى أن أجبر على اعتناق دين لم أزل فى حيرة من أمره ، وقد طلقت أختاى رقية وأم كلثوم من زوجيهما المشركين ، لأنهما ظنا فى هذا الطلاق إحراجاً لأبى ، وسعى الساعون إلى أبى العاص كى يطلقنى ، فحمل سيفه وهدد من سعى ! لقد كان كريماً معى ، وإن نسيت فما أنسى موقفه من أبى جهل من أكثر من عامين : فقد اجتمعت قريش فى دار الندوة يتحدثون فى أمر أبى ، وكان أبو العاص مع المنتدين ، فلمح فى وجه أبى جهل تجهماً فلم يعبأ به ! ثم وجده ينظر إليه نظرات غاضبة دون أن يتكلم ، فصاح به أبوك : ما بالك اليوم يا أبا الحكم ؟

فصاح أبو جهل فى حدة : لم أعد أصبر على أمرك : أنت تجلس معنا ، ثم تذهب إلى زوجتك بنت محمد عدو اللات والعزى ، فتحدثها عما نقول ، وتذهب هى إلى أبيها فتخبره بكل شىء فكأننا بذلك لانستطيع أن ندبر أمراً دون أن يكون مآله الافتضاح !

قال أبو العاص : وماذا ترى أنت يا أبا الحكم ؟ فما راعه إلا أن يثب أبو جهل من مكانه مزمجراً وهو يصيح : لابد أن تطلق زوجك كما فعل ابنا أبى لهب مع رقية وأم كلثوم ! وإلا فسترى .

وهنا نهض أبو العاص ، وقد رفع سيفه فى وجه عدو الله صائحاً : دونك أيها الرجل : أتريد أن تدخل بينى وبين زوجتى ، فلئن سمعتك تقول هذه الكلمة مرة أخرى فبينى وبينك السيف ! وتخوف الحاضرون أن يلتهب الموقف ، فقاموا بتهدئة أبى العاص ، وخرج أبو جهل خزيان !

واستطردت زينب تقول :

أى حديث أذكر لك يا أمامة عن أبيك ! أنا ابنة خالته (خديجة بنت خويلد) ، وهو ابن خالتى (هالة بنت خويلد) ، وكانت الأختان لاتكادان تفترقان : وقد تقدم أبو العاص لخطبتى فسرت والدتى ، ووافق والدى ، والتأم الشمل ، فشعرت معه بسعادة لا أحسبنى أنسى حلاوتها مهما امتد بى الزمن ، ثم ماتت والدتى خديجة ، فحزن أبو العاص على فراقها ، حزناً أحسسته جيداً ، وأخذ يحثنى على أن أذهب دائماً إلى منزل أبى لأكون مع أسرتى الأولى بعد رحيل سيدة البيت ، وما استعجلنى مرة واحدة حين أطيل الزيارة ، إذ كان يعتقد أن بيت أبى هو بيته ما دمت أنزل به ، وهأنذا مسلمة أؤدى الصلاة ، وأعلن شهادة التوحيد ، بمرأى منه ومسمع ، وهو لايتضايق ولا يشيح ، ثم اجتمعت قريش اجتماعها الأخير ، وادعت أنها بذهابها إلى المدينة محاربة أبى ، ستحمى طريق التجارة ، ولابد لذوى الثراء من قريش أن يخفوا إلى محاربة المسلمين ، ووالدك تاجر ينتقل بين اليمن والشام بقافلة كبيرة ! وقد رأى من واجبه أن يذهب كما ذهبوا ، وليتنى قد قدرت على منعه ! ولكن هل أستطيع ..

وجرت دمعة من عين زينب ، فنظرت أمامة فى إشفاق ، وسألت فى أسف : أو تبكين يا أماه !

فقالت زينب : بنيتى ، أتستكثرين أن أبكى ، وقد خرجت الجموع الزاحفة لنقتل أبى ، أنا بين نارين لا نار واحدة ، إذ أخشى أن ينتصر المشركون فأفقد والدى أعز الناس على ، كما أنى أخاف أن يقتل أبو العاص فى حومة القتال ، فتكونى يتيمة مع أخيك على ، أنت صغيرة يا أمامة ، فلماذا أحملك همى ، دعيه لى وحدى ، وهيهات أن أطيق .

— ٢ —

ظلت زينب تعانى ألم الهواجس السوداء ، منتظرة أن تفاجأ بنبأ يرجها لامحالة ، لأن انتصار أحد الفريقين كانكساره لابد أن يعقب لديها ما يروع ، ثم هى تشعر بوحشة قاسية فى محيطها القرشى ، فقد اعتزلها الجيران لأنها ابنة محمد ، وفى النسوة من صارحنها بأنها دخيلة عليهن شعوراً وإحساساً ، أليس أبوها هو الذى

حطم كبرياء قريش مقيماً بمكة ، ثم أنذرها بالشر الكارث مهاجراً للمدينة ، وما تجمعت الجموع وأعدت الذخائر ، وشحذت الأسلحة إلا لاستئصاله ، بل فى هؤلاء النسوة من عمدت إلى زيارتها كالمتشفية المتهكمة ، تتنبأ بسوء عاقبة والدها ، ومن شايعه من مهاجرى قريش ، وتتساءل : هل كان ذوو الأحلام من رءوس قريش فى تاريخها الممتد أقل إدراكاً وأضيق تفكيراً من أبيها الذى انفرد بالدعوة إلى دين جديد سفه الأحلام ، وأذرى بالعقول .

ظلت زينب تعانى شجونها السوداء ، لاتهنأ بمطعم أو مشرب ، ولا تقر بمهجع حتى سمعت ذات صباح صراخاً يملأ الآفاق ، ويتردد فى الجهات الست ، فقامت فزعة تتساءل عن هذا الدوى المتردد ، غير أن طمأنينة راضية ولجت إلى شغاف قلبها حين أيقنت أن الصراخ دليل الهزيمة الكاسحة ، لقد كانت تعتقد أن والدها نبى الله ورسوله ، وأنه لامحالة لن يخذله أمام جيوش الشرك ، ولكن هذا الاعتقاد لايلبث أن تغيم عليه شكوك توحى بها جواذب الضعف الإنسانى حين تكثر الاحتمالات المتعارضة متدافعة متقاتلة حتى ما تستقرّ فى نفس صاحبتها على رأى ، أما وقد دوى الصراخ فى كل مكان ، فلابد أن يكون نصر الله قد تم على يد رسوله ، وقد جاء من أخبرها بهزيمة قريش ، ومصرع السادة الكبار من أمثال أبى جهل ، وعتبة وشيبة ، ووقوع فريق فى الأسر ينتظر حكم محمد ، ومن هؤلاء الأسرى زوجها أبو العاص بن الربيع ، والعباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، وإذن فلم يمت زوجها ، ولم يهزم والدها ، فهل لها أن تسجد شاكرة لله ، وأن تقول بلسان الشاكرة المطمئنة : الحمد لله .

لم تجعل من همها أن تتتبع مآسى المرزوئين فى مكة ، ولكنها وجهت كل اهتمامها لأبى العاص وما عسى أن يكون من أمره ، إنها لتستشعر فى أعماقها أن والدها يحبها أكبر الحب ، وأنه عانى كثيراً كما عانت لبعدها عنه منذ هاجر ، وأنه سيرعى جانبها كل الرعاية ، فلا يفجعها فى زوج مخلص أمين ، وإذا كان لكل أسير من فدية ، فلا بد أن تبعث بالفداء ، كما يبعث ذوو الأسرى فى مكة ، ولكن بماذا تفتديه ؟

إن أبا العاص تاجر قريش الموسر ، وإن المال ليغمر منزلها ، وينعشها ثراء

ورفاهية ، أفتبعث من هذا المال ما يبلغ قيمة الفداء ! إن ذلك هين مستطاع ، ولكن ، لماذا لا تثير فى نفس أبيها إحساساً خاصاً يذكره بها ، وبوالدتها العزيزة كثيراً عليه ، لقد أهدت لها أمها خديجة قلادتها يوم زفت إلى أبى العاص ، وإن والدها ليعرف مكان هذه القلادة العزيزة من نفسه ، حين حملتها خديجة رضى الله عنها حيناً من الدهر ، ثم آثرت بها ابنتها زينب ليلة الزفاف ، فلابد أن ترسل القلادة الغالية لتكون فى عين أبيها أغلى فداء وأوفاه !

لها الله زينب ، لقد حركت من مشاعر رسول الله ما كمن ، وهيجت ماسكن ، إذ أخذ يعرض ألوان الفداء ، حتى وقعت عينه فجأة على قلادة خديجة ، فأخذها بين يديه فى طوفان من الذكريات لا حدّ لمنتهاه ، ثم نظر إلى المسلمين من حوله قائلا : إن رأيتم أن تردوا القلادة إلى صاحبتها فافعلوا .. وصمت الرسول ، وصمت من حوله حيناً من الزمن ، ثم قال صلى الله عليه وسلم فى نبرة هادئة : وأطلقوا الأسير ، على أن أقابله قبل رحيله ، فلى معه حديث .

جاء أبو العاص إلى صهره العظيم ، فقال له : عاهدنى أبا العاص على أن ترسل إلى ابنتى زينب حين تذهب إلى مكة ، فهى مسلمة ، والمدينة أولى بها ، فسكت الزوج لحظة ، وقدر حنان الأب الشفيق ، فأجاب بالقبول .

ليت الطريق سلمت بزينب ، فقد تربص بها الشر الآثم ، وكادت تلفظ أنفاسها : لولا أن تداركتها رحمة الله ، فإن أبا العاص قد وفى عهده ونقل إلى الزوجة الوفية رغبة والدها ، وما كان لها أن تتأخر ، وكم عانى الزوج القريب من فراق أعز الناس لديه ، ولكن ماذا يصنع وقد ارتبط بكلمته ، ومع من ؟ مع محمد الوفى الأمين ، ولم يطق أن يسير معها راحلا إلى المدينة ، فإن أشواقه ستعصف به ، وهو يقود الراحلة ، وهو بعد إنسان ذو إحساس ، فأولى أن يعهد إلى أخيه كنانة بن الربيع ، وهو أيضاً ابن خالتها هالة ، ليصحبها سائقاً بعيرها ، حتى يصل بها إلى مكان ما قرب المدينة حدده رسول الله ، ليجد زيد بن حارثة فى انتظارها ، فيصحبها سالمة إلى أبيها !

هكذا قدر أبو العاص ، ولم يدر أن مشركاً أسلم فيما بعد ، هو هبار بن الأسود قد تعقب الركب لينتقم من زينب بما جرته غزوة بدر عليه من نكبات ، فقد

فقد ثلاثة من إخوته الشباب ! فتعرض بالرمح طاعناً الهودج ، وسقطت المسكينة على صخرة عاتية من صخور الصحراء ، فأسقطت حملها ، وسال دمها ، وهال كنانة أن يرى هباراً ومن خلفه شرذمة من معاونيه ، وكان نبالا حاذقاً ، فحمل عدته ، وأطلق النبل فى عيون القوم وفى صدورهم ، فانطلقوا ، وكان بينهم أبو سفيان بن حرب ، فصاح بكنانة : لم تصب يابن الربيع حين خرجت بابنة محمد على رءوس الأشهاد ، وكلهم جريح مصاب من يوم بدر ، ولسنا نريد أن نمنع زينب عن أبيها ، وأخشى أن يعترضك آخرون لا نعلمهم ، فارجع بها ، حتى تبرأ من وجيعتها ، فإنها لا تتحمل الرحلة بعد أن سال دمها .

ونظر كنانة إلى المريضة الشاحبة ، فخاف عليها ، وآثر الرجوع حتى تنقه ، وكان المنتظر أن يشمت المشركون بزينب فى محنتها ، ولكن هند بنت عتبة ، صاحت بهم متهكمة : معركة مع عزلاء حامل ؟ أبهذه الخسة تمسحون معرة بدر ! وما هى إلا أيام حتى استطاعت المريضة أن تجد قوة تسعفها بالمسير ، فتهيأت مع ابن خالتها كنانة حتى وصلت مأمنها بالمدينة ، وقد اختلط الفرح لرؤيتها بالحزن على ما كابدته ، وبلغ الأسى بأبيها مبلغه ، فأهدر دم الجناة ...

ولكن هل سيجتمع الشتيتان !؟

لقد فارقت زينب زوجها ، فاستشعر وحشة قاسية بمكة ، ولم يشأ أن يتزوج بعدها ، وذلك ما يوحى بمنزلتها لديه ، فانتظر أن يلتئم الشمل ، إذ كانت تحدثه نفسه أنه قريب منها ، مهما تناءت الديار ، فهو يعرف أنه فارقها كارهاً ، كما هى تعلم عنه ما يخامره ، علماً لا يخالطه ريب ، فهل كانت هى الأخرى تأمل فى اللقاء ؟ مهما يكن من شىء فقد مهدت الأحداث سبيل الالتئام ، إذ خرج أبو العاص فى تجارة لقريش تحمل من السلع والعروض ما تعود أن يرحل به بين العام والعام ، وكانت قريش فى حرب مع الإسلام ، تترصده كما يترصدها ، فخرجت إحدى السرايا من المدينة ، فوجدت أبا العاص راجعاً من الشام موفور الكسب بعد رحلة سعيدة ، فأعجزه أن يقف أمامهم مدافعاً ، ففر هارباً تاركاً ما ربح وجمع لنفسه ولذويه من قريش ؟ وعز عليه أن يرجع إلى مكة خاوى الوفاض ، فإلى أى حصن يلتجئ ، إن طيف زينب لا يفارقه ، وهى الآن بالمدينة

سعيدة بجوار والدها ، أتراها حين تجده أمامها لائذاً مستجيراً تضن عليه بالحماية؟ إنه يعرف حقيقة شعورها ، وهو ابن الخالة والزوج معاً !

لقد ركب الليل إلى المدينة حتى دخلها فى غبش الظلام ، كيلا يعرفه مهاجر صحابى فيأسره ، وسأل عن منزل زينب ، ففوجئت به إذ رأته ، وقضت الليل تفكر فى أمرها وأمره ، حتى إذا أذن الفجر ، وقامت الصلاة ، وتأهب المسلمون لمبارحة المسجد ، سمعوا صوت زينب تصيح :

أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فهو فى حمايتى ، وفوجئ الرسول بما لم يتوقع ، فأقبل على الناس قائلا : (هل سمعتم ؟ أما والذى نفسى بيده ، ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم) .

وذهب النبى إلى ابنته ، فسره أن يجدها وفية أمينة ، وتذكر غابر أبى العاص فرأى أنه لم يسلف فى ماضيه ما يؤاخذ به ، فلما أشرق الصبح بعث إلى السرية التى أصابت مال أبى العاص ليقول لذويها : (إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن رددتم عليه ما أخذتم فإنى أحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم ، وأنتم أحق به) .

فصاحوا جميعاً : بل نرده عليه يا رسول الله !

لقد أصبح المال بين يديه ، وكان فى استطاعته أن يمكث بالمدينة غنياً به ، دون أن يعود إلى قريش ، حيث حبب إليه الإسلام ، ولكن خلقه الكريم دفع به إلى أن يرحل إلى مكة ، ليعطى كل ذى حق حقه ، ثم يعلن للقوم إسلامه كيلا يظنوا أنه أسلم طامعاً فى مال سواه !

ودهشت قريش لما أبدى أبو العاص من وفاء ، وانطلق الأقربون إليه من ذويه يناقشونه فيما اعتزم ، فقال فى اعتزاز : والله ما منعنى من الجهر بالإسلام عند محمد إلا تخوف أن تظنوا بى طمعاً فى أموالكم ، وها أنذا أديت ما لدى ، وسأهاجر غداً دون انتظار .

وعاد الشمل ليلتئم ، فسعد الزوجان باللقاء ، ولكن إلى حين ، حيث شاء القدر أن تفارق زينب دنياها الفانية ، لتتقدم من فارقتهم إلى رضوان الله ، وما عند الله خير وأبقى .

خطيب الأنصار

— ١ —

ويل الخطيب من الشاعر ! إن الشاعر ينشئ القصيدة فتسير بها الركبان فى كل موضع ، ويقف جواره الخطيب يرتجل الخطبة الرنانة فينتشى بها السامعون، ثم يمضى الموقف فلا يذكر أحد مما قال إلا بعض المعانى ، وقد تروى بلفظ غير ما قال ! ذلك ما كان فى عهد الأمية قبل أن تنتشر الصحف وتتعاقب الأقلام .

لقد كان حسان بن ثابت شاعر الرسول ، حفظت آثاره ، ورويت أشعاره، وكان ثابت بن قيس خطيب الرسول ، ورجل الموقف المحتشد ، حين تكون الخطابة أبلغ وسائل الدعوة ! فهل حفظ التاريخ شيئاً مما قال ثابت بن قيس ، إن كتب السيرة المطهرة لم تذكر غير خطبته أو بعضاً من خطبته أمام وفد تميم، وليس فى هذا الإغفال بواحد ! فليت شعرى ماذا بقى لقس بن ساعدة ، ولسحبان وائل وللمأمون الحارثى ، وكلهم خطباء مقاول ! كما كان ثابت خطيب الأنصار ، ولسانهم المبين .

لقد حضر وفد بنى تميم إلى المدينة المنورة ، بعد أن انتشر ضياء الإسلام ، وفرغ الرسول من أمر تميم ، وتميم أهل مفاخرة ومباهاة ، وقد تقدم وفدها الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعطارد بن حاجب ، ولم يظهروا هدوء الضيف الوافد ، بل أكثروا الجلبة والضجيج حول بيوت النبى وحجراته ، حتى آذوه ، فخرج إليهم ليقولوا له : جئنا نفاخرك يا محمد ، فأذن لخطيبنا وشاعرنا، قال : فأذنت لهما ، فخطب عطارد ، وأنشد الزبرقان ، حتى إذا انتهيا قال الرسول : أين حسان ، وأين ثابت بن قيس ، فتقدم حسان وأنشد قصيدته التى مطلعها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

ثم نهض ثابت بن قيس فقال :

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه ، ولم يكن شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله فى العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فآمن به المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس أحساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق استجابة إذ دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن الأنصار أنصار الله ، ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله ، فمن آمن منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم) .

وأجمع الحاضرون على أن السبق لخطيب الأنصار وشاعر الأنصار إذا قرنا بزميليهما من تميم :

— ٢ —

انتهت معركة اليمامة باستشهاد نفر من كبار صحابة رسول الله ، وفيهم ثابت ابن قيس رضى الله عنه ، وقد جلس أولاده الثلاثة : محمد ويحيى وعبد الله ، فى دارهم بالمدينة ، يتلقون عزاء المواسين فى رضى وتسليم ، ووفد عليهم خزرجى من قرابة ثابت بن قيس ، فجعل يسرد ما عرف من مواقفه ، واستطرد متحدثاً عن خطبته فى وفد تميم ، واستبشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ضمت من المعانى الإسلامية الكريمة ، على حين أطرق يحيى بن ثابت إلى الأرض ، وكأنه يسبح فى تفكير عميق ، حتى إذا انتهى الخزرجى من حديثه رفع يحيى بن ثابت رأسه متفرساً فى وجوه القوم ، وبدأ يتحدث قائلا :

لقد رجع أبى مستبشراً برضا رسول الله عنه ، ولكن وفد تميم قد أتى من الأفعال ما آخذه الله عليه فى سورة الحجرات ، إذ نزل قول الله عز وجل: « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم ، وأنتم لا تشعرون » إن الذين يغضون أصواتهم

عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم. إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ، أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم »(١) .

وما نزلت هذه الآيات الكريمة ، وسمعها أبى رحمه الله حتى علت وجهه كآبة واعتزلنا ، فما كاد يلم بنا ، حتى أخذتنا الحيرة فى أمره ، وجعلنا نقول : لقد رجع مستبشراً سعيداً بعد أن ألقى كلمته ، فما باله الآن فى ضيق لا نعرف أسبابه ، ورأى أخى عبد الله أن يقتحم سره ، فقرع الباب عليه ، وبدأ يسأله قائلا : أبتاه ، فيم اعتزالك ذويك . وما نجد داعياً لديك يوجب هذا الاعتزال ؟ لقد كنت بالأمس مبتهجاً سعيداً ، فما بالك اليوم ؟

فنظر أبى إلى عبد الله وقال : لقد سمعت قول الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » وأنا رجل ثقيل السمع ، أرفع صوتى بقوة فى مجلس نبى الله ، وقد خفت أن يحبط عملى دون أن أشعر ، وقد قال الله عز وجل : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ، وأنا لم أغض صوتى ذات يوم ، فلن أكون من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ؛ فماذا أصنع يا عبد الله ؟

قال يحيى : فدعانى أخى عبد الله ، وأخبرنى بما شغل والدى من هاجس ، فتقدمت إليه فى معتزله ، وقلت له فى تؤدة : أبتاه ، إن منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنكر ، وأنت تعرف ترحيبه بك حين يلقاك ، وقد سألته العسير ذات يوم فأجابك إلى ما لم يستطع أحد أن يسأله سواك !

فرفع ثابت رأسه دهشاً ، وسأل : متى كان ذلك يا بنى ؟

قال يحيى : ألا تذكر يوم بنى قريظة ، حين أمر رسول الله بقتل رجالهم ، فتقدمت إليه شافعاً فى الزبير بن باطا وامرأته ، فسارع بإجابة مطلبك ثم رد عليه بستانه ليعيش من ثمره كما رجوت ؟ أفكان الرسول يستجيب لرجائك وهو يأخذ عليك شيئاً ؟

(١) سورة الحجرات ، الآيات ٢ — ٥

قال ثابت : ولكنى الآن ، بعد نزول هذه الآيات ، لا أطمئن على نفسى .

فرد يحيى : إذن فاذهب إلى رسول الله ، وأفصح له عن خلجات نفسك ، وسترى منه ما يريحك ، فأنت منه بمنزل كريم .

انطلق ثابت مسرعاً إلى مجلس رسول الله ، وقد غاب عنه أكثر من عادته ، فسأله الرسول هاشاً : فيم احتجابك يا ثابت ؟

فقال فى شبه اعتذار : أنا يا رسول الله امرؤ جهير الصوت ، وقد نزل قول الله": « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » ، وإذن فقد حبط عملى ، وأنا من أهل النار ! فويلى .

فعجل الرسول يقول : لست من هؤلاء ، بل تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، ويدخلك الله الجنة !

فابتسم ثابت فرحاً ، ثم قال : وثانية أسأل عنها : إن الله عز وجل يقول : « إن الله لا يحب كل مختال فخور »(١) ، وأنا ألبس الثوب الجميل ، وأشترى النعل الجيد ، وقد خشيت أن أكون بهذا من المختالين .

فأجابه النبى ضاحكاً : إنك لست منهم ، بل تعيش بخير ، وتموت بخير ، وتدخل الجنة .

رجع ثابت إلى أهله سعيداً راضياً ، وكان من أكبر سعادته أن الرسول صلى الله عليه وسلم أنبأه أنه سيموت شهيداً ، وسيدخل الجنة ، فأخذ يعد ملابس الحرب ، ومنها اللأمة والمغفر والرمح والدرع والسيف ، ويتساءل بينه وبين نفسه : متى تأتى الشهادة ؟ إنها آتية لا محالة ، فقد بشر بها النبى الكريم ؟

— ٣ —

انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، فأحزن ثابتاً أنه لم يلق الشهادة المنتظرة بمشهد من عين النبى الكريم ، ولكنه علم أن معارك إسلامية لابد أن تنشب ، وليس له أن يتأخر بعد أن تأكد أنه سيفوز بخاتمة الشهداء ، وقد تمهل به أبو بكر الصديق ، إذ لم يشأ أن يبعث به فى حروب اليمن حين أعلنت الارتداد

(١) سورة لقمان ، الآية ١٨

بقيادة قيس بن عبد يغوث ، بل تمهل حتى قامت حروب طليحة الأسدى حين التفت حوله أسد وعطفان وطيئ ، فاشترك بها ثم اتجه إلى اليمامة لدحر مسيلمة الكذاب ، مع كتائب عكرمة بن أبى جهل ، وكان من المقدر أن تعصف بالمتنبئ الكاذب ، لولا أنه لجأ إلى الاحتيال ، فادعى أن جبريل ينزل عليه بالوحى ، وأنه شريك محمد فى الرسالة ، ولكن نبى قريش قد ظلمه حين لم يعترف به ! واصطنع من مرتدة المسلمين من تواطأ معه على الكذب ، فافترى على رسول الله أنه اعترف بمسيلمة قبل أن يموت .

ذلك هو نهار الرجال الذى غره الباطل ، حين رأى أربعين ألف مقاتل من بنى حنيفة يلتفون حول مسيلمة ، ويؤمنون بنبوته ، ومعهم من الذخيرة ما يمنعهم فى ديارهم التى يعرفون من دروبها ومنعرجاتها ووهادها وجبالها ما لا يعرفه جيش المسلمين ! كل ذلك قد قوى شوكة مسيلمة ، فلم يكن له غير خالد ابن الوليد ، فنزل بالمسلمين على كثيب يطل على اليمامة ، وجعل راية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس !

ودارت الرحى ، فانكشف المسلمون متخاذلين ، وهنا صاح ثابت بن قيس : أيها الناس ، بئسما عودتم أنفسكم الفرار ، اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء ، وأشار إلى أهل اليمامة ، وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ، وأشار إلى من فروا من المسلمين ، ثم صاح بالناس : يا قوم ، لقد هيأت كفنى وحنوطى ، ومعى سيفى ودرعى ، ولن أبرح حتى أقر عينى بالشهادة أو الانتصار ، ثم صرخ : يا أصحاب سورة البقرة ، يا أهل القرآن ، زينوا الأقوال بالأفعال ، لا مجال للفرار ، هأنذا أهجم ولا أتراجع ! ولم يزل اللواء فى يده يتقدم به الناس ، حتى استشهد .

ورأى المسلمون مصرع ثابت ، فجالدوا مجالدة غاضبة ، وأحكم خالد ابن الوليد الخطة ، ففر مسيلمة ووراءه جماعة من صحابته هم أعوانه المقربون ، فلم تحمهم غير حديقة ذات سور عال ، فاندفعوا إليها حتى إذا امتلأت أوصدوا الباب ! وهجم المسلمون فردهم السور ، وكان لابد من المحاصرة ، وقد تطول فيتخاذل الناس ! هنا برز البراء بن مالك من أشجع رجال خالد ، وأشار أن يرفعوه إلى سطح السور المحيط بالحديقة ، وسيرمى بنفسه ليفتح الباب ، مغامراً

مندفعاً لا يتخوف عاقبة ، وهى فدائية جارفة لا تعرف الاعتدال ، فنصحه رفقاءه ألا يرمى نفسه فى النار فتأكله دون فائدة ، لأن سيوف الأعداء ستتلقفه حين يهبط ولكنه صمم على ما أراد ، فرفعه قومه حيث أراد ، وهوى إلى الأرض فى غفلة من أكثر المحاصرين ، ثم اقتحم الباب ، وعالج المصراع فانفرج ، وتدفق المسلمون !

وتلك بطولة خارقة ، بل معجزة شاء الله لها أن تتم ، ليفرح المؤمنون بنصر الله وقد حان . وكان وحشى قاتل حمزة قد أسلم ، وسار مع جيش خالد محارباً ، فرأى أن يعمد إلى مسيلمة فيصرعه بحربته المؤمنة مسلماً بعد أن صرع حمزة فى أحد كافراً ، وتم له ما أراد ، فشفى نفسه ، حين طهرها بمصرع هذا المتنبئ الدعى ، وكان لمصرع مسيلمة أثره فى هروب أتباعه ، بل فى إنابتهم إلى الحق حين اندحر الضلال !

وبعد ، فهل انتهى أمر ثابت بانتهاء حياته ؟ إن الله أكرمه ، حين شاء عز وجل أن يراه بلال بن رباح مؤذن رسول الله فى رؤيا منامية ، فحدثه ثابت عن شىء يبحث عنه إذا صحا من نومه ، وحار بلال فى رؤياه ، غير أنه بحث ونقب ، فتأكد مما رآه فى حلمه ، وتفصيل ذلك : أن ثابت بن قيس كان يلبس فى حربه درعاً ثمينة عرفت بين نظرائه بالمدينة ، إذ ورثها عن أبيه ، فمرّ به وهو صريع بدوى من نجد فسلبها دون حق .

يقول الراوى[1] : رأى بلال بن رباح رحمه الله ثابت بن قيس يقول له فى منامه : إنى أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول : هذا حلم فتضيعها ، إنى حين قتلت بالأمس جاء رجل من ضاحية نجد ، وعلى درعى فأخذها ، فأتى بها منزله ، فأكفأ عليها برمة ، وجعل على البرمة رحلا ، وخباؤه فى أقصى العسكر ، وإلى جانبه فرس يستن فى طوله[2] ، فإذا صحوت فاذهب إلى خالد بن الوليد فخبره ، ليبعث إلى درعى فليأخذها ، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أن على من الدين كذا ، ولى من الدين كذا ، وسعد ومبارك

---

(١) روى هذه القصة الحاكم فى المستدرك ، والطبرى والسيوطى ، كما رويت فى كتب الأدب على اختلاف فى الألفاظ دون المعنى .

(٢) يستن : يمرح . والطول : الحبل .

غلاماى حران ، فإياك أن تقول : هذا حلم فتضيعه ، ثم نام بلال ، فجاءه ثابت مرة ثانية ليقول له : إياك أن تقول : هذا حلم فتضيعه ، ونام فجاءه المرة الثالثة أيضاً . فلما أصبح أتى خالداً رحمه الله فأخبره الخبر ، فبعث ابن الوليد نفراً إلى المكان الذى حدده قيس فوجد الدرع كما قال ، فلما توجه بلال إلى المدينة أتى أبابكر الصديق رضوان الله عليه ، أخبره بوصية ثابت بن قيس فأجازها ، ولا يعلم أحد من المسلمين أجيزت وصيته بعد مماته بسداد دينه ، وعتق عبديه ، إلا ثابت ابن قيس ! أليست هذه مكرمة لشهيد ، بشر بالشهادة فانتظرها مشوقاً ، حتى حان موعدها ، فصار من الذين هم عند ربهم أحياء ، فرحون بما أتاهم الله من فضله ، إذ يستبشرون بنعمة من الله ورضوان .

التائب المنيب

— ١ —

نظر عياش بن أبى ربيعة إلى قيده الذى يغل يديه ، وقد ألقى به فى حجرة مظلمة ، وامتنع رهطه من بنى مخزوم أن يخاطبوه بكلمة واحدة ، إلا أن تحين ساعة الطعام ، فيتقدم به من لا ينطق بحرف ، ومعه قليل من الماء ! نظر عياش إلى قيده ، فثارت فى نفسه أعنف مشاعر الألم ، وزاد من شجنه أنه لا يستطيع أن يتوضأ أو يصلى كما اعتاد من قبل ، وكيف والغل فى يديه ، ولا ماء للطهور .

وكان أعنف ما يثيره أن يذيع حديثه فى مكة ، وأن يدخل عليه بين الفينة والفينة أخوه لأمه (الحكم بن هشام) المشتهر بين المسلمين بأبى جهل ، ومعه نفر من المشركين ليقول لهم : هكذا نفعل بسفهائنا نحن بنى مخزوم ، فلم لا تذهبون إلى سفهائكم بالمدينة ، وتحتالون على حضورهم لتفعلوا بهم كما نفعل !

تباً له ثم تباً ! لقد جاء إلى عياش بالمدينة ، ومعه الحارث بن هشام أخوه لأمه أيضاً ، فصرخا فى وجهه ، وزعما أن أمهم قد نذرت ألا تأكل وألا تشرب ، وألا تمشط شعرها ، ولا تستظل بشمس حتى تراك ، والسيدة عجوز مريضة ، ولن تبقى سوى أيام ! فكيف تعقها بالبعاد ، إنها تطلب رؤية عياش قبل أن يحين يومها !

لقد أحكما العقدة ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يرى بنور الله ، فاكتشف الحيلة ، ونادى عياشاً فقال له : والله ما يريد القوم إلا أن يفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فوالله لو آذى القمل أمك لامتشطت ، ولو اشتد عليها الحر لاستظلت .

يقول عياش لنفسه : نصحنى عمر فأحسن النصيحة ، ولكنى قلت فى نفسى : وما على إذا ذهبت إلى مكة فرأيت أمى ، وجمعت مالى لأستعين به بالمدينة ورجعت

سريعاً ، أفيمنعنى أحد ؟ لقد أعلنت إسلامى فى السابقين الأولين قبل أن ينتقل المسلمون إلى دار الأرقم ، وكنت أسير مع الرسول أنى سار ، فما استطاع أحد أن يمنعنى ، وأنا من سادة مخزوم ، ثم حانت الهجرة إلى الحبشة ، فهاجرت مع زوجى مختاراً ، ورجعت إلى مكة مختاراً ، وبقيت على إسلامى ، وفرضت الصلاة ، فجعلت أقوم بها على عيون القوم دون حذر ! وما استطاع أحد أن يحول بينى وبين ربى ! فلم لا أذهب وأعود .

هكذا قدرت ! وأبى عمر أن أرحل ، وجادلنى صادقاً غيوراً ، حتى إذا استعصيت على مشيئته قال لى فى عطف : إليك ناقتى فاركبها ، فإنها نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، وإن رابك من أخويك ريب فى الطريق ، فانج عليها ، وهلم إلينا فلن يستطيع أحد أن يلحقك ، وقد أسرعت بها ، ثم حان الرحيل وانتظم السير ، فبعد أمد طال أظهر أخى الحكم وجعاً ، وقال فى ألم : لقد استغلظت بعيرى ، أفلا تعاقبنى على ناقتك ، ورأيت ألمه المتصنع فى وجهه ، فأطعته وهبطنا نحن الثلاثة إلى الأرض : أنا والحكم والحارث ، فلما استوينا جميعاً على ظهرها ، أسرع أخواى وأوثقانى برباط ، فلم أستطع فكاكاً ، ودخلا بى بمكة ليطوفا على الناس يشهران بى !

ويح عمر ! لقد صدقنى النصيحة وهو أعز الناس لدى بعد رسول الله ، فقد حرص على أن يهاجر من مكة إلى المدينة معى ، وتواعدنا على أن أنتظره عند (سرف) فى أول الطريق ، إذ آثرت أن أسبقه قليلا متخفياً ، كيلا أزعج أمى ، أما عمر فقد أبى إلا المعالنة الصارخة حين هم بالخروج ، فتقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهماً ، وأمسك عصاه ، ثم مضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين والقوم ينظرون ، فمر على حلقهم واحدة واحدة وهو يقول : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن يثكل أمه ، أو يؤتم ولده ، أو يرمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ، ومضى فلم يتبعه أحد من عتاة المشركين ! لقد هابوه ! ثم توجه حيث كنت أنتظره فى (سرف) فنعمت بصحبته ، وليتها دامت !

ثم زفر السجين زفرة حارة ، حين تذكر سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه

فقال فى نفسه : لقد كان سعد أقوى نفساً ، وأصدق يقيناً منى ! على أنى لم أتزعزع لحظة عن الإيمان ، فإن سعداً أعلن إسلامه ، فغضبت أمه ، وأنذرته هائجة ، فقالت : يا سعد ، ما هذا الذى أحدثته ؟ لتتركن دينك هذا ، أولا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فيعيرك الناس بى ويصيحون بك حيث اتجهت : يا قاتل أمه .

فأجاب سعد : لا تفعلى يا أماه ، فلن أترك دينى من أجلك ، فأضربت عن الطعام والشراب حتى ضعفت ، فجاءها ليقول فى عزم صارم : يا أماه ، والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى ، فإن شئت فكلى أو لا تأكلى ، فلما رأت منه الجد أكلت !

هكذا قوى سعد ، وأمه بمرأى ومسمع منه وقد أنهكها الجوع ، وهكذا ضعفت أمام أكذوبة اصطنعها أخواى فصدقتهما ، وكذبهما عمر ! إن سعداً قوى ولم يضعف ، فشرف بكرامة الله وفضله ، إذ نزل فيه قول الله عز وجل : « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين »(١) . فليتنى كنت مثله ، فأملك من أمرى ما يملك ، أنا نادم نادم ! وأتوب لربى مما جنيت .

— ٢ —

هذا ما كان يدور فى خلد عياش وهو بمحبسه فى مكة ، أما المسلمون بالمدينة فقد انتهى إليهم أن عياشاً وهشام بن العاص محبوسان ، ولا يستطيعان الفكاك ، وقد حاروا فى أمر عياش ، كيف طاوع أخاه وذهب معه ، وهو يعلم أن أبا جهل كاذب لا يصدق ، وعمر بن الخطاب أشد المسلمين أسفاً أن خالف عياش نصيحته وطالما سأل نفسه عن موقفه أمذنب هو ؟ وإذا كان قد أذنب ، أفما من توبة ! وكان لفرط اشتغاله بأمر عياش يسأل كل مهاجر قدم من مكة عنه ، فيقول : إنه حبيس تحت رقابة بنى مخزوم ، وأن المستضعفين من المسلمين بمكة لا يستطيعون أن يصلوا إليه ، فيهدأ باله ، ويقول : لو طاوع عياش بنى مخزوم على الضلال ، وأعلن الكفر ، لفكوا عقاله ، وتركوه حراً ، بل جعلوه مثالا لمن ترك الصابئين

(١) سورة العنكبوت ، الآيات ٨ و ٩ ، نقلا عن تفسير القرطبى .

من أتباع محمد ، ورجع إلى دين الآباء ، والأجداد ! وهل يكون ذلك من عياش وهو من السابقين الأولين !

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفكر فى أمر عياش ، ويعلم ببصيرته الهادية ، أنه أمين على إسلامه ، وأنه يكابد من ويلات الحبس ما يتحمله المحتسب الصابر راضياً مطمئناً ، ثم جلس عليه الصلاة والسلام فى نفر من صحابته ذات صباح ، وقال : من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ؟ وهو بهذا السؤال الذى ألقاه فى جماعة المهاجرين يتحسس من لديه الرغبة فى الذهاب سراً إلى مكة ، فيجوس الدروب ، ويسأل من يطمئن إليه عن مكان الحبيسين حتى يحتال للوصول إليهما ، ومعه عون الله وتأييده ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لها يا رسول الله ، فأنا أعرف مكامن بنى مخزوم ، وأنا منهم فلن أضار ، فتبسم رسول الله فرحاً.

فخرج الوليد لساعته من المدينة ، حتى إذا جاء مكة دخلها مستخفياً ، فلقى امرأة قريشية فى حى بنى مخزوم تحمل طعاماً ، فطمع أن تكون ذات شأن بالأسيرين ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ فقالت فى براءة : أريد هذين المحبوسين ، تعنى هشاماً وعياشاً ، وإذا أراد الله أمراً يسره ، قال الوليد : فتتبعتها دون أن تعلم شيئاً مما أسر ؛ حتى دخلت موضعاً لا سقف فوقه ، فتأكدت أنه محبس الرجلين ، وقد اطمأننت كثيراً إلى نجاح مهمتى ، وانتظرت حتى عسعس الليل ، فتسورت الحائط على الرجلين ، ففرحا أكثر الفرح بلقائى ، ووجدتهما مقيدين لا يستطيعان الفكاك ، فعمدت إلى صخرة أضعها تحت قيديهما ، ثم ضربت الصخرة بسيفى ضربة حاسمة ، فانحل القيد ، ومن هنا سميت سيفى (ذا المروة) ، والمروة هى الصخرة الصلبة ، وهى تسمية أقرها المسلمون بالمدينة ، ثم تسللت بالصاحبين فوق بعيرى فى غسق الليل حتى جئت المدينة .

وقد قال عياش فى الطريق إنه تسلم رسالة مطمئنة من عمر بن الخطاب : يحثه على الفرار ، وأنه لا بأس عليه مما صنع ، فقد أنزل الله فيه وفى أمثاله ، نصاً كريماً هو قول الله عز وجل : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى

ربكم وأسلموا له ، من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون »(١) .

وكان الثلاثة لشدة فرحهم بالخلاص ، يكادون يطيرون طيراناً ، ويودون لو تطوى بهم الأرض طياً إلى المدينة فيقابلون رسول الله فى لمح البصر ، وقد قال الوليد إنه قدم إلى مكة متفائلا مستبشراً ، لأن الرسول هو الذى أشار عليه ، ولن يخيب أمر صنع على عين محمد !

وقد كانت فرحة المهاجرين بلقاء عياش وهشام أكبر من أن توصف ، إذ كانوا يتوجسون خيفة من أن يشدد عدو الله أبو جهل عليهما العذاب أو يحرمهما الطعام والشراب ، فيلقيا وجه الموت فى محنة لا تجد النصير !! أما المشركون بمكة فقد وقع عليهم فرار الأسيرين وقوع الصاعقة ، وأخذ بعضهم يتهكم بأبى جهل فيقول له : ذهبت إلى المدينة ورجعت بأخيك ليعود ، فهلم كرر الرحلة ، فيعض على أسنانه مغيظاً ، إذ تمت هجرة رسول الله إلى المدينة ، وأصبح كيان المسلمين بمقدمه الكريم قوياً مكيناً ، ولئن رأوه لأطبقوا عليه فقتلوه ! ليس شأن اليوم إذن كالأمس ، فالأيام تزيد محمداً تأييداً ، وتزيده ويلا على ويل !!

تحمل عياش قسطه من الجهاد فى السرايا والغزوات ، وله موقف جهير أشارت إليه كتب السيرة حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن لدى رؤسائها من بنى عبد كلال ، فقرأ عليهم سورة البينة ، وفسر آياتها ، حتى إذا فرغ منها تلا عياش قول الله عز وجل : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية»(٢) ، وأعقبه بقوله : آمن محمد وأنا أول المؤمنين . فاطمأن القوم لما آمن به وأعلنوا إسلامهم ، وكانوا يلبسون القصب المزركشة ويتصدرون مجلس الحكم ، فإذا وفد عليهم آت انحنى ساجداً ، فسألهم عياش عن هذه القصب ، وأمر بأن تجمع لتحرق ، حيث لايجوز السجود لأحد دون الله ، وإن اتشح بالقلائد ، وحمل الصولجان ، وأجاب القوم عن طوع ، فأحرقت القصب فى

---

(١) سورة الزمر ، الآيات ٥٣ — ٥٥ (٢) سورة البينة ، الآية ٧

سوق عامة وأكثرها من الأبنوس المطعم ، وكأنى بمن شهدوا هذا العمل الرائع من الرعية قد قروا عيناً ، إذ سادت العزة وعمت المساواة ، فلا سيد غير الله !

واختلفت الروايات فى خاتمة عياش ، فمن المؤرخين من ذكر أنه شهد معركة اليرموك تحت راية خالد بن الوليد حيث أبلى بلاء حسناً ، ثم رجع سالماً إلى المدينة ، ومنهم من يذكر أنه رزق الشهادة هناك ، وكان جريحاً يعانى سكرات الموت مع عكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام ، وكلهم قد أبلى البلاء الحسن ، وإذا كان استشهاد عكرمة والحارث يوم اليرموك يقيناً لا يتطرق إليه الشك حيث تضافرت الروايات على تأييده ، فإن استشهاد عياش موضع اختلاف ، ولن يضيره أن أخر الله أيامه إلى أجل مسمى ، ففارس المعركة خالد بن الوليد ، رجع من اليرموك سالماً ، ومات على فراشه بعد أن كسب النصر المؤزر ، وهو بعد سيف الله المسلول .

هارب من نفسه

كان دير أيوب بحوران غارقاً فى صمته ، والليل من حوله يسدل ستوره السوداء دامساً قاتماً ، وقد سكنت الريح فما يسمع لها صوت فيما نهض حول الدير من شجر السرو ، إذ سكتت الأوراق ونام الطير ، ولكن الباب يدق دقات متتالية فجأة وعلى غير موعد من أحد ، فنهض الراهب (سمعان) يوقظ زميله (دانيال) متسائلا عن طارق الليل ، وتقدم الأخير لينظر من ثقب الباب الحديدى فيجد شبحاً لأعرابى معه ثلاث نياق محملة بالبضائع ، فظنه أحد النصارى الذين اعتادوا أن يحملوا الزاد والميرة إلى الدير قرباناً وإحساناً ، فأسرع بفتح الباب ، ولكنه فوجئ بمن يقول له : أنا أمية ابن أبى الصلت ! ومعى تجارتى التى قدمت بها من الطائف ، لأبيعها فى دمشق . وقد عزمت على أن أقضى الليل هنا كعهدى من قبل !

ودخل أمية إلى حجرة أعدت لنوم الطارقين ، على حين قام خادم الدير بنقل الإبل إلى مناخها بالساحة الواسعة بعد أن أنزل أثقالها ، وذهب دانيال إلى سمعان يحدثه عن الوافد الذى أرهقه التعب ، فآثر أن يستريح إلى الصباح .

قال الراهب سمعان : إننى أعرف أمية منذ أربعين عاماً ، أعرفه وأنا شاب صغير أقيم مع أستاذى الراهب (حزقيال) ، إذ كان هذا العربى يفد إلينا كثيراً ، ليتحدث عن المسيح ، وليذم الأصنام ، فكنا نطمع فى استمالته إلى النصرانية ، وكان يكرر زيارته حين يفد بتجارته إلى الشام ، وقد قرأ الإنجيل ، ولكنه كان يطمع أن يكون نبياً ، وآخر عهدى به منذ عامين ، إذ جاء ناقماً ثائراً ، يعلن أن رسولا عربياً قد ظهر فى مكة يسمى محمداً ، وأنه دعا إلى عبادة الله ونبذ الأصنام ، وكنت أعرف كثيراً عن نبوة محمد وبعثته منذ كنت بالحبشة ، وخالطت المسلمين فى بلاد النجاشى ، فقلت له : وماذا يزعجك من رجل يدعو إلى عبادة الله ،

ونبذ الأصنام ، أليس ذلك ما صممت عليه من قبل ، فعض على أسنانه مغيظاً وقال : ولم لا أكون أنا رسول الله ! حينئذ عرفت أن شقاءه سيطول .

قال دانيال : لقد تذكرت يا أخى بعض أمره ، أليس هو الذى زارنا من أمد لا أعلم تقديره بالتحديد ، فحدثنا آسفاً حزيناً عن انتصار نبى الإسلام فى بدر ، وعن مصرع رؤساء الشرك بمكة ، وأخذ يرثى عبدة الأصنام ، بشعر تعجبنا كثيراً لصدوره منه ، إذ ينحاز إلى عابدى الأوثان ، وهى مما لعنها من قبل وشن عليها السباب !

قال سمعان : أذكر ذلك جيداً ، وما أظنه قدم اليوم إلا ليتحدث بأنباء جديدة عن نبى المسلمين ، صادفت موقعها السيىء من نفسه !

فرد دانيال يقول : لقد كان مرهقاً كاسف البال ، شاحب الوجه ، وقد أعلمته أنك متيقظ الآن ، فآثر أن يستريح حتى الصباح !

وفجأة سمع الراهبان صوت أمية ينادى من حجرته ، فتساءل سمعان عن سبب ندائه ، وتوجها معاً إليه .

قال أمية : لم أستطع النوم مع تعبى الشديد ، وقد علمت أنكما ساهران ، فرأيت أن أسعد بحديثكما ، إذ لا رقاد !

قال سمعان : على الرحب والسعة يا أمية ، فأنا أذكرك دائماً منذ كنا نقرأ معاً صحائف الإنجيل ، ولكنك الآن جئت بأحمال النياق لتتاجر فى أرض الشام ، فهل تركت أشواقك الدينية فى السماء ، ونزلت إلى مساومة الباعة والمشترين فى الأرض ! إن التجارة ذات مكسب رابح ! ولا عليك إذا جعلتها ميدان نشاطك ، وأسأل لك الربح والنماء !

فشهق أمية شهقة أفصحت عن مكنون حزنه ! وقال : أى تجارة أهتم بها ياسمعان ، أنا فى غنى عن التجارة منذ اتصلت بعبد الله بن جدعان وآثرته بمدائحى فأعطانى من الثروة ما جعلنى أنعم بالرخاء مهما امتدت الحياة ، ولكن الطائف وجزيرة العرب كلها قد ضاقت بى منذ أخذ محمد نبى الإسلام يجمع العرب على دعوة التوحيد ، وقد انتصر أخيراً فى معركة الأحزاب ، مع أن قريشاً جمعت له قبائل

العرب من شمال ويمين لتستأصل شأفته بالمدينة ، ولكن الأحزاب قد اندحروا أمامه وفروا هاربين ، وكنت ذا أمل كبير فى انهياره ، فحين جاءتنى أنباء نصره عزمت على الرحلة إلى الشام ، وأظهرت لأسرتى أنى نويت التجارة ، كيلا أجد أبنائى من يناصبنى الخلاف ، ومن مصيبتى معهم أنهم لايشاركوننى آمالى الواسعة فى الرياسة الدينية ، فقلت لهم ، لقد تركت عقيدتى ورائى ، وسأشغل نفسى بالتجارة فاغتبطوا وسروا ، وخرجت مع ما حملت فراراً من نفسى التى لا تستريح !

قال سمعان : أسمع منك ما يدهشنى حقاً ، أفتغضب لأن عبدة الأصنام من المشركين قد اندحروا مع حلفائهم يوم الأحزاب ، أفكنت ترضى أن يستمر الشرك ، حتى تظلم النفوس ، ويعظم الطغيان !

فنظر أمية متعجباً وقال : إذا كنت سمعت منى ما أدهشك ، فلتعلم أننى أكثر دهشة منك حين ترحب بانتصار الإسلام ، وأنت قس مسيحى ، وراهب دير !

فقال سمعان : وماذا فى ذلك ، إن المسيحية دين سماوى ، والإسلام دين سماوى وما ينبغى أن يختلف رجال الدينين ، وربهما الله .

فضرب أمية كفاً بكف ، وقال فى انفعال : وما مبلغ درايتك بالإسلام ؟ حتى تجعله مع المسيحية فى وفاق ؟

قال سمعان : هل لك أن تهدأ .. لتنصت إلى الحق دون انحياز ، بل هل لك أن تحاول الهدوء ، لأن قلقك يمنع عنك كل اطمئنان !

فهز أمية رأسه وقال فى تبرم : أنا هادئ ، فهات مالديك !

قال سمعان : لقد كنت فى الحبشة منذ أعوام طوال ، ورأيت المهاجرين من المسلمين هناك ، كما شاهدت نقاشهم مع النجاشى ، فارتحت إلى ما يقولون ، كما ارتاح النجاشى نفسه ، وشملهم بعنايته ، وهو مسيحى عاقل أريب ! وما زلت أتذكر حديث جعفر بن أبى طالب ابن عم الرسول وقد سأله النجاشى عن الدين الجديد ، فقال :

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء إلى الجار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعا إلى الله لنعبده وحده ، ونخلع ما كنا نعبد من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه واتبعناه ، فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، وآثرناك على من سواك ، فرغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

قال النجاشى : فهل معك شىء مما جاء به عن الله ؟

قال جعفر : نعم ، فقرأ له : كهيعص ، سورة مريم .

فبكى النجاشى وأساقفته ، وكنت مع الباكين .

ثم قال الملك : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، والله لا أسلم المسلمين إلى قريش أبداً .

قال أمية : أوعندك هذا كله من أمر الإسلام ؟

فقال سمعان : ولذلك لا أخاصمه ، وأعارض من يفضل الوثنية عليه ، وما ظننت أمية الذى قرأ معنا الإنجيل فى دير أيوب ، والذى جاس خلال أديرة الشام والعراق وناقش الأحبار والرهبان ، يجزع لاندحار عبدة الأصنام ، ويفر من بلده ضائقاً بنصرة الحق ، واندحار الضلال .

قال دانيال : ارفق بأمية يا سمعان ، فلكل إنسان آماله ، وما أسوأ عاقبة الآمال ، أذكر أن أناساً من الحنفاء قد مروا بنا فى دير أيوب ، كما مر أمية ، ولكنهم كانوا أهدأ منه نفساً ، لأنهم كانوا ينتظرون مبعث نبى ، أما أمية فكان ينتظر أن يكون هو النبى !

قال أمية : ومن الذين مروا بكم فى دير أيوب من الحنفاء .

فقال سمعان : أنا أرد عليك ، مر بنا زيد بن عمرو بن نفيل ، ومر بنا ورقة

ابن نوفل ، ولا أدرى إلا أنهما قد ارتحلا عن الحياة ! ثم مر بنا سلمان الفارسى ، ولا زال مرموقاً بين صحابة محمد !

فرد أمية : ارتحل زيد وورقة عن الحياة فاستراحا ، وإن كنت أشك فى أنهما سيرحبان بأن يكونا تابعين لنبى من بنى هاشم !

فصاح سمعان : حسبك يا أمية ، إن حديث ورقة بن نوفل لشهير ذائع ، وقد عاش حتى نزل الوحى على الرسول فى غار حراء ، وزاد فطمأنه بما نزل عليه !

قال أمية : سمعت مثل هذا ، ولم أصدق !

فصاح دانيال : لم يكن لورقة غرض ما غير الوصول للحق ، فما أسرع ما استجاب.

فدهش أمية ، وقال : أو تعلم أنت أيضاً أمر ورقة ، حدثنى إذن عما تعلم .

فعجل دانيال يقول : كيف لا أعلم أمر ورقة ، وقد تعلم العبرية على يد راهبنا الأكبر حزقيال ، وقرأ الصحف ، وتنصر ، فقلت له : أو تستمر على نصرانيتك ، فقال : حتى يظهر النبى الذى بشر به الإنجيل !

قال أمية : ثم ماذا ؟ فقال دانيال : جاءتنا الأنباء بأن ورقة استمر مهاباً مبجلا فى مكة ، فكان يصلح بين المتخاصمين ، وينهى عن عبادة الأوثان ، وكان ابن عم خديجة زوجة محمد ، فلما نزل عليه الوحى فى غار حراء ، ورجع إليها يرجف فؤاده ، ويحدثها بما نزل عليه من القرآن ، رأت أن تذهب إلى ورقة ، فهو أول من يدرك حقيقة ماجد من أمر محمد ، فقدمت به إلى منزلها ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له : يا ابن العم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ماذا رأيت يا ابن أخى ، فحدثه محمد بكل ما كان من أمره . فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ياليتنى كنت حيا إذ يخرجك قومك ، فقال محمد : أو مخرجى هم ؟ فقال ورقة : لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم حان الأجل فمات ورقة .

فقال سمعان : ماذا تقول يا أمية فيما قال دانيال ؟ ألا تزال غير مصدق !

فزفر أمية ، ثم أنشد :

ليتنى كنت قبـــل ماقد بدا لى ... فى رءوس الجبال أرعى الوعولا !

فضحك سمعان وقال : فى مكنتك أن تنسى أمر محمد ، وتذهب إلى رءوس الجبال فترعى الوعول !

فرد أمية : يخيل إلى أن الثمانين وقد جاوزها ورقة ، عند بعثة محمد ، كانت عاملا فى سهولة انقياده !

فقال دانيال : رجعنا إلى اللجاج من جديد ! ليت الأمر أمر الثمانين ، ولكنه الخلوص إلى الحق دون غرض ذاتى ! أنقول ذلك مرة ثالثة .

فصاح أمية : جئت يا قوم هنا لأستريح لا لأتكدر ، فلنترك أمر ورقة إلى أمر زيد بن عمرو بن نفيل !

قال سمعان : لا أعلم عن مصيره شيئاً ، لقد كان يأتى دير أيوب ، ويناقش راهبنا الأكبر حزقيال ، ولكنه لم يرحب باعتناق النصرانية كما اعتنقها ورقة ! ولم نشأ أن نجبره على اعتناق ما لا يريد !

فقال أمية ، ولماذا يرحب الدير بلقائه إذن ولم يعتنق المسيحية ؟

فرد دانيال : كما نرحب بلقائك الآن ! على أن زيد بن عمرو طالب حقيقة لم يجدها ، فأخذ يتلهف على لقائها ، ولكنك نشدت الحقيقة ، فحين امتد بك العمر إلى لقائها نكصت على عقبيك ! ! لقد مات زيد بن عمرو شهيداً ، وقال نبى الإسلام إنه يبعث أمة وحده !

فهاج أمية قائلا : ويلى ، كأنكما تتكلمان بلسان محمد .

قال دانيال : وماذا فى هذا ؟ لقد جاءنا أن وحياً من الله عز وجل نزل على محمد بهذه الآيات : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ۞ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع بما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين ۞ ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ۞

فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين »(١).

قال أمية ساخراً : وأنت يا سمعان هل تحفظ شيئاً من القرآن كما حفظ دانيال؟

فقال سمعان : أحفظ أيضاً ما نزل فى القرآن عن شهداء النصرانية الذين أحرقهم ذو نواس ، لأنهم آمنوا بالعزيز الحميد ، فقال عنهم كتاب الله :

« قتل أصحاب الأخدود ۞ النار ذات الوقود ۞ إذ هم عليها قعود ۞ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ۞ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ۞ الذى له ملك السموات والأرض ۞ والله على كل شىء شهيد ۞ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق »(٢) .

قال أمية : لو كنت أعلم أنكما ترويان من قرآن محمد ما اتجهت إلى دير أيوب مهما أظلم الليل وتمثل الرعب .

قال سمعان : ندعك تنام ، فقد طال النقاش .

فعجل أمية يقول : لن أنام ، فقد أثرتما فى نفسى من اللواعج ما يمنع الرقاد عدة ليال !

فسكت الراهبان ملياً ، ثم قال دانيال : أعلم أن التغلب على رغبات النفس الطامحة يحتاج إلى كفاح هائل ، لأنه جهاد شاق ، ولكن الرجوع إلى العقل فى حالات الصحو الروحى مما يجعل الانتصار محققاً ، وإذا كان الطموح دافعاً للعذاب الشاق ، فلماذا لايوجه الطموح إلى ميدان يأتى بالثمرة المشتهاة دون تعذيب ؟

قال أمية : بربك أفصح عما تريد !

فرد دانيال يقول : ألست تؤمن بالحقائق الدينية التى جاء بها محمد ؟ فلتذهب إليه ولتكن معه فى صف واحد ، وسيقدمك بين أصحابه ، فيسير طموحك متوائماً ومنسجماً مع ما تعتنق من الآراء !

قال أمية : وأكون الرجل الثانى !

---

(١) سورة المائدة ، الآيات من ٨٢ — ٨٥

(٢) سورة البروج ، الآيات من ٤ — ١٠

فضحك سمعان وقال : فى مكنتك أن تنسى أمر محمد ، وتذهب إلى رءوس الجبال فترعى الوعول !

فرد أمية : يخيل إلى أن الثمانين وقد جاوزها ورقة ، عند بعثة محمد ، كانت عاملا فى سهولة انقياده !

فقال دانيال : رجعنا إلى اللجاج من جديد ! ليت الأمر أمر الثمانين ، ولكنه الخلوص إلى الحق دون غرض ذاتى ! أنقول ذلك مرة ثالثة .

فصاح أمية : جئت يا قوم هنا لأستريح لا لأتكدر ، فلنترك أمر ورقة إلى أمر زيد بن عمرو بن نفيل !

قال سمعان : لا أعلم عن مصيره شيئاً ، لقد كان يأتى دير أيوب ، ويناقش راهبنا الأكبر حزقيال ، ولكنه لم يرحب باعتناق النصرانية كما اعتنقها ورقة ! ولم نشأ أن نجبره على اعتناق ما لا يريد !

فقال أمية ، ولماذا يرحب الدير بلقائه إذن ولم يعتنق المسيحية ؟

فرد دانيال : كما نرحب بلقائك الآن ! على أن زيد بن عمرو طالب حقيقة لم يجدها ، فأخذ يتلهف على لقائها ، ولكنك نشدت الحقيقة ، فحين امتد بك العمر إلى لقائها نكصت على عقبيك ! ! لقد مات زيد بن عمرو شهيداً ، وقال نبى الإسلام إنه يبعث أمة وحده !

فهاج أمية قائلا : ويلى ، كأنكما تتكلمان بلسان محمد .

قال دانيال : وماذا فى هذا ؟ لقد جاءنا أن وحياً من الله عز وجل نزل على محمد بهذه الآيات : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ۞ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين ۞ ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ۞

فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين »(١).

قال أمية ساخراً : وأنت يا سمعان هل تحفظ شيئاً من القرآن كما حفظ دانيال؟

فقال سمعان : أحفظ أيضاً ما نزل فى القرآن عن شهداء النصرانية الذين أحرقهم ذو نواس ، لأنهم آمنوا بالعزيز الحميد ، فقال عنهم كتاب الله :

« قتل أصحاب الأخدود ۞ النار ذات الوقود ۞ إذ هم عليها قعود ۞ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ۞ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ۞ الذى له ملك السموات والأرض ۞ والله على كل شىء شهيد ۞ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق »(٢) .

قال أمية : لو كنت أعلم أنكما ترويان من قرآن محمد ما اتجهت إلى دير أيوب مهما أظلم الليل وتمثل الرعب .

قال سمعان : ندعك تنام ، فقد طال النقاش .

فعجل أمية يقول : لن أنام ، فقد أثرتما فى نفسى من اللواعج ما يمنع الرقاد عدة ليال !

فسكت الراهبان ملياً ، ثم قال دانيال : أعلم أن التغلب على رغبات النفس الطامحة يحتاج إلى كفاح هائل ، لأنه جهاد شاق ، ولكن الرجوع إلى العقل فى حالات الصحو الروحى مما يجعل الانتصار محققاً ، وإذا كان الطموح دافعاً للعذاب الشاق ، فلماذا لايوجه الطموح إلى ميدان يأتى بالثمرة المشتهاة دون تعذيب ؟

قال أمية : بربك أفصح عما تريد !

فرد دانيال يقول : ألست تؤمن بالحقائق الدينية التى جاء بها محمد ؟ فلتذهب إليه ولتكن معه فى صف واحد ، وسيقدمك بين أصحابه ، فيسير طموحك متوائماً ومنسجماً مع ما تعتنق من الآراء !

قال أمية : وأكون الرجل الثانى !

---

(١) سورة المائدة ، الآيات من ٨٢ — ٨٥

(٢) سورة البروج ، الآيات من ٤ — ١٠

فرد سمعان : هذا هو الخطر حقاً ! الخطر فى أن ننظر إلى أنفسنا ، وكل فرد يعتقد أنه وحده مركز الكون !

وسكت أمية فلم يجب ، فقال دانيال : لقد ذكرنا اسم (سلمان الفارسى) فيمن زارنا من الباحثين عن الحقيقة بهذا الدير ، وعلمت أنه الآن من أكبر أصحاب محمد ؟ أفيكون أمية الشاعر العربى المثقف دون سلمان وقد نزح غريباً من فارس !

فقال سمعان : نسيت أن سلمان كان يبحث عن الحقيقة لذات الحقيقة أما أمية صاحبنا فيبحث عنها لذاته هو ! أى أنها لا تكون حقيقة صادقة فى رأيه إلا إذا اقترنت به ! وهنا موضع الخلاف .

فتجهم وجه أمية ، وقال : تتحدثان دائماً بما لا أستريح له ، وما وجدت فى حديثكما قبساً من ضياء !

فقال دانيال : تستطيع أن ترى الضياء إذا تجردت عن أوهامك يا أمية ! فزيت المصباح تحت يدك ، وما عليك إلا أن تشعل الثقاب فيضىء المصباح ! وصبحك الله بالخير ، فقد آن أن نستريح جميعاً !

ثم خرج الراهبان ليتركا أمية فى خضم من أفكاره المتلاطمات .

وفى الصباح أعد نياقه وتهيأ للمسير ، فقال له سمعان : إلى أين يا أمية ؟

فقال : حيث أهرب منكما ؟

فضحك دانيال وقال : لسنا لك بخصم ، ولكنك تحاول أن تهرب من نفسك وهى معك أنى اتجهت ! عندك الزيت ومعك الثقاب ، فأوقد المصباح ، كيلا تتخبط فى دياجير الظلام ...

نبوءة تتحقق

— ١ —

أخذت الظهيرة الحامية تلهب رمل الصحراء ، حتى ما تستطيع الإبل أن تمعن فى السير ، وهى إبل الشاب القرشى عمر بن الخطاب بن نوفل العدوى ، يتقدم بها من مكة إلى عكاظ ، محملة ببضائع مجلوبة من رحلة اليمن ، لتباع فى سوق عكاظ ، وهى سوق تجارية حافلة ، يؤمها العرب جميعاً قبل أن يتوجهوا للحج بمكة ، ولكل قبيلة مكانها المشتهر ، ورجالها الذين يبيعون ويشترون تارة ، ويلهون ويتندرون تارة أخرى ، وفيهم من يستمع إلى خطب البلغاء ، وقصائد الشعراء ، ومن يجلس للحكم على ما يرتجل من الخطب ، وينشد من الشعر ، أما حفلات السباق ، ومشاهد المصارعة بين البسلاء من الأبطال ، فما يحرص على مشاهدته من يأتون إلى السوق ، ليروا الوجوه الجديدة تضاف إلى ما يعرفون من الوجوه المشتهرة ، ذلك بعض ما تزخر به عكاظ من نشاط سنوى ، وبعض ما قدمت لأجله قافلة الفتى القرشى عمر بن الخطاب .

لقد كان ابن الخطاب تاجراً ذائع السيرة فى مجتمعه ، فإبله المثقلة ترمى حولها المكدسة ليتدافع إليها من عرفوا براعة عمر فى انتقاء العروض ، وجلب الطرف من أقاصى البلاد ، وفيه صدق وحمية ، أما صدقه فيمنع اللجاج فى المساومة والماكسة فى البيع ، وأما حميته فتخلع عليه هيبة واحتراماً ، فما يحدث امرؤ نفسه بانتقاصه أو التهجم عليه ، وعمر مع أنه تاجر مرموق ، ذو لسان ناقد ، فهو ينتهز مجالس السمر بالليل ليتوجه إلى خيام الشعراء ، فيسمع ما يروى وينقد بعض ما يسمع ، وقد سارت له شهرة بحب قصائد زهير بن أبى سلمى وتفضيله على شعراء العرب جميعاً ، لأنه فى رأيه مثال العاقل الحكيم ، الذى يصدق القول ، ويهجر المبالغة ، ويجرى بالقول على اطراد متسلسل لا معاظلة به ولا تعقيد ، أما من يليه من الملهمين فهو نابغة بنى ذبيان ، لاتئاد منطقه وخلوصه إلى اللباب دون حشو ، والناس يستمعون أحكام الشاب القرشى فيتناقلونها ، ويختلفون فى

تقديرها ، بين مؤيد ومتحفظ ، وعمر لا يعنيه أن تكون أحكامه مجال اتفاق تام، وإنما يعنيه أن يفصح عن رأيه دون خفاء !

على أنه لا يقتصر فى عكاظ على التجارة والشعر ، بل يسهم فى المصارعة الرياضية ، لأنه شاب جلد تفور فى أجلاده حميا النشاط ، وقد كانت له جولات رياضية شهدها النظارة فحذروه واتقوه ، بل إن مصارع كنانة قد تحدى القرناء ذات أمسية قراء ، وفيهم عمر ، فلم يلبث الصيال أن نشب ، وقد تحلقت الأفواج فى الساحة الممتدة على هيئة دائرة مكتملة ، واشرأبت الرقاب ، وتطلعت الأبصار وحبست الصدور أنفاسها لترتد حين تحين النهاية ، فينتصر عمر ، وتبتهج قريش بفوز ابن الخطاب ، فترجع بعد انفضاض السوق ، وفيها عجب ، وبها مباهاة .

رجع عمر ليحج البيت مع من رجع ، إذ كانت عكاظ تسبق ميقات الحج ، لتنتهى بابتدائه ، ثم ليقضى بعد ذلك أياماً معدودات ليهيئ أسباب الرحلة التجارية إلى بلاد الشام . وكان انتصاره فى المصارعة بعكاظ باعثاً على الاطمئنان إليه ، إذ يستطيع أن يحمى القافلة النازحة إلى الأفق البعيد ، فأقبل القرشيون يتقدمون بعروضهم إلى عمر ، ليكون سيد أمرها ، وليرجع بالربح الجزيل فيشاطر أصحاب العروض مكاسبهم بما حقق من ربح ، وهى مكاسب ترتفع على يده ، إذا قيس بنظرائه .

وحار عمر فيما يتدفق حوله من بضائع ، ولكنه هيأ لكل شيء حسابه ، حتى إذا حان الموعد سار الشاب القرشى حامياً قافلة لم تعهد له من قبل ، وقد باهى بمكانته ، إذ توافد أصحاب العروض لتوديعه فى ساعة مشهودة ، وفيهم من يحتضنه فى حرارة ، ومن يقبل فى شوق ، ومن يسلم فى رجاء . وما زالت العيون تتبع القافلة النازحة حتى توارت عن الأنظار ، فرجع المودعون إلى بيوتهم بمكة ، يتحدثون بما ينتظرون من خير على يد عمر ، وسار هو فى مقدمة القافلة ، وله ثقة مطمئنة ، وقد عرف كل فرد من أفراد جماعته ، وحدد لكل إنسان عمله وموقعه ، وأججّ من حماسة الركب ، حين وعده بالكسب المتاح ، والأوبة الحميدة عن قريب :

ومن شأن عمر أن يلم بكل شيء يهيمن عليه ، حتى عجب منه من رجال القافلة من لم يكن صحبه من قبل ، فهو يعرف منابع الماء فى الأرض المستكنة ، فيأمر بالحفر حتى تجود الرملة بمائها ، وله دراية بشيوخ الأحياء ، ورجال القرى الممتدة فى الطريق ، يقابلهم مقابلة الصديق ، وفيه — مع ذلك — حرص وإمساك ، فلا يسمح لمشتر أن يرخص ما حقه أن يغلو ، وقد اشتد ذات مرة ، فلامه بعض رفاقه ، فقال : أنا أدرى بما أصنع ، وأنا لا أغالى ولكنى لا أفرط ، وكان إذا نزل الركب للطعام هيمن على الطاعمين من إنسان وحيوان بنفسه ، وساعد على الإعداد ، وتلك عادة لزمته حتى فى مؤخر حياته ، إذ يرى من حق القائد أن يطمئن إلى راحة أتباعه ، حتى إذا استوثق من كل شيء ، وجاء وقت الراحة ، اعتزل غير بعيد لينام وحده نوم من يحرص على النهوض فى موعده الذى حدده دون إبطاء ، وما زال يطوى القرى والمدائن ، حتى بلغ (إيلياء) ببادية الشام ، فنزل القوم عن ركابهم ، وتهيئوا للقيلولة ردحاً من الزمان .

مد عمر بصره إلى الفضاء الممتد ، فلمح رجلين ، أحدهما طويل جسيم ، والآخر هزيل ضاو ، يتعاونان على حمل شيء ثقيل ، ويجرانه جراً ، إذ لا يطيقان رفعه عن الأرض ، فرأى من المروءة أن ينهض لمعونة هذين ، وكان نظره قد خدعه فحسب البعيد قريباً ، فأسرع على عادته ، إذ كان طويل الساقين ، يتعب من يسايره كى يستطيع محاذاته ، حتى بلغ ما أراد ، فرأى الرجل الكبير راهباً من شيوخ النصارى ، يرسل لحيته الممتلئة ، ويرتدى عباءته السوداء المنفرجة ، أما تلميذه فراهب صغير ينم مظهره عن بؤس ومرض معاً ، ولكن عينيه ترسلان بريقاً مشعاً إذا أطال النظر ، فلم يلبث أن حمل الصندوق وحده ، وسأل عن المكان ، فأشار الراهب الكبير إلى دير قريب وصلوا إليه جميعاً ، وما كاد الراهب يدخل ساحة الدير ، حتى خلع عباءته ، وامتشق سيفاً ، وقال لعمر فى غلظة : ستكون خادمى من الآن مع هذا التلميذ المريض ، ولن تبرح الدير حيث أوصده عليكما ، وإذا حاولت الفرار فلن تستطيع ، فأنت شاب جلد تستطيع أن تقوم بتنظيف الدير خادماً مطيعاً مع هذا الخائب ، ولا عليك فستأكل وتشرب ! وماذا تبتغى بعد هذين !

سمع عمر تهديد الراهب الماكر ، ورأى نفسه أعزل لا يستطيع مقاومة السيف فى يد من يدعى الرهبنة ، وهو قاطع طريق مارد ، فجلس على الأرض كمن يفكر ، ثم أغلق الراهب باب الدير ، وخرج .

تطلع عمر إلى الراهب الشاب صامتاً ، ولكنه وجد دموعه تترقرق فى عينه ، فسأله عن بكائه ، فقال الشاب محزوناً :

لقد كنت راهباً فى دير حمص ، فعمد هذا الشرير إلى زيارتنا منذ عامين ، وأظهر من التسبيح والتقوى ما خدع رفقائى بالدير ، ثم جعل يطيل النظر إلى فى مودة ، حين سمع من حديثى ما عرف به منزلتى من العلم والدراية ، فأجهش بالبكاء ، وقال لرفاقى فى ضراعة : لقد تقدمت بى السن ، وأنا فى حاجة لمن يتلو تراتيل الأحد ، ويعظ المصلين ، بعد أن ثقل لسانى ، وأرى أن يصحبنى هذا الشاب ، ليكون راهب الدير بعدى ، فصاح رئيس الدير : تلك رسالته ، ولن يتخلى عنها ، واجتمعوا على فأذعنت ، وما حللت هذا المكان حتى وقفت على سيرة راهب ليس له أدنى صلة بالمسيح ، يكذب وينهب ، ويدبر مكايد القتل حيناً ، كما أنه لم يكن شيخاً ثقيل اللسان كما ادعى ، ولكنه خبيث ماكر ، تصنع وافتعل حتى تمكن وقادنى :

قال عمر مغيظاً : وكيف نصبر على هذا ؟

فأجاب الراهب الشاب : إنه يغلق الباب الحديدى ، ومفتاحه فى جيبه ، ولن يرجع قبل المساء ، وعلينا أن نقوم بالتنظيف والتهوية حتى نأمن اعتداءه ، كما أنه لا يترك خنجره ، بل يحمله فى وسطه أنى سار ، لأن أعداءه كثيرون ، فحاذر أن تهجم عليه فهو شرير شرير !

أخذ عمر يجول مع صاحبه فى الدير ، فلمح قراباً فى زاوية خافية ، هزه قليلا ، فعلم أن السيف داخله ، فترك مكانه ، حتى إذا ألم بكثير من محتويات الدير ، رجع إلى الراهب الشاب ، وجلس يحدثه ، فوجد الراهب يتأمله كالحائر وكأنه يعرفه من قبل ، ثم سأله فى رقة حانية : ما اسمك يا سيدى ؟

فقال : أنا عمر بن الخطاب ، عدوى من قريش !!

فأكب الشاب على يده مقبلا ، وصاح : صدقت فراستى :

قال عمر دهشاً : أية فراسة هذه ؟ قال الراهب : ستكون صاحب الأمر فى هذه البلاد ! أنت شاب آدم طوال ، أصلع أشقر ، بعيد ما بين المنكبين شديد الحمرة ، عربى قرشى ، واسمك عمر ، ستدول دولة الروم فى الشام على يدك ، والله ما خدعتنى نفسى !

تعجب عمر ، وصاح : نحن الآن أسيران ، دعنا من نبوءتك :

فسأل الراهب : أوتقرأ وتكتب يا عمر ؟ فقال : نعم .

فنهض سريعاً إلى قرطاس وقلم ، وقال له : اكتب : (هذا عهد من عمر ابن الخطاب إلى راهب لقيه فى دير إلياء ، له ما لأصحابنا ، وعليه ما عليهم ، لا نظلمه ولا نخذله ، ولا نفرض عليه ما لا طاقة له به ، وله ديره وما ملك) .

فقال عمر : أمصمم أنت على أن أكتب ؟

فقال الراهب : لن تخسر شيئاً .

قال عمر : أوما ترانا أسيرين !

صاح الراهب : ستنجو ، وقد أنجو معك .

فبسط عمر القرطاس وكتب ، ولكن تفكيره كان متجهاً إلى الخلاص من قبضة الراهب ، وقد علم صاحبه أنه إذا أقبل سارع وأوصد الدير وفى كفه الخنجر ، فقال عمر : لا بأس .

وقبل أن تغيب الشمس ، سمع عمر من يفتح الباب الحديدى ، وكان قد دبر أمراً ، إذ رجع إلى السيف فحمله ، وتقدم إلى الباب قبل أن يفتح ، ففاجأ الراهب بضربة سقط بعدها ، وصاح بالراهب الشاب : هيا ، فانطلق معه فرحاً وصاح : نجوت يا عمر ، ونجوت معك للمرة الأولى ، وسأنجو على يدك للمرة الثانية ، وما فارقا الدير حتى جد عمر فى اللحاق بالقافلة ، واتجه رفيقه إلى حمص حيث كان من قبل .

— ٢ —

مرت السنون خلف السنين ، وجدت أحداث وأحداث كان أظهرها جميعاً مشرق الإسلام فى مكة ، وائتلافه فى ربوع الكون ممتداً إلى ديار فارس وممتلكات

الروم بالشام ومصر ، وتقدمت كتائب خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ودخلت حمص ودمشق وإيلة والجابية فى دين الله ، وانطلقت الكتائب الظافرة إلى بيت المقدس فى فلسطين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، فتم نصر الله ، وأصر أهل البيت المقدسى أن يدخلوا فى عهد المسلمين وحمايتهم ، على أن يكون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه من يوقع العهد ، وفى بيت المقدس بالذات .

وكانت فى نفس الفاروق رغبة فى أن يتعهد بلاد الشام ، ويرى بعينيه نور الإسلام يأتلق فى ربوعها مؤذناً بالعدالة والحرية والمساواة ، فنزح عن المدينة ، ولكن مع من ؟ مع غلامه أسلم وحده ، وتقدم الشاميون ممن رأوا موكب هرقل قبل عشر سنين عقب انتصاره على الفرس يزحم الأرض فى مائة ألف جندى من أبطاله ومن فوقهم الأعلام والرايات ، وبأيديهم السيوف والرماح ، وعلى صدورهم الأوسمة والنياشين ، تقدم هؤلاء ليروا موكب أمير المؤمنين الذى أطاح بجيوش هرقل فكانوا كالهباء ، ظانين أنه سيرج الأرض رجاً بزحفه الحافل ، ولكنهم وجدوا بعيرين يركبهما رجلان ، فسألوا : متى يجىء موكب أمير المؤمنين فسكت ، ثم قالوا : أين هو الآن ، فقال عمر فى بساطة مستغربة : هو أمامكم !

وكان قميص عمر قد تغير من غبار السفر ، وعرق الهجير ، فدفعه إلى من يغسله ، وسارع أحد الرهبان فأحضر قميصاً من حرير ، فنظر إليه عمر فى تواضع وقال له فى رقة : خذه لا يتحمل عرق الرجوع ، قميص القطن أمتن وأرخص .

ثم انتقل عمر من دمشق إلى بيت المقدس ، فقدم له أبو عبيدة جواداً ذا قوة وأصالة ، وقال إنه أسرع من البعير ، والقوم ينتظرون أمير المؤمنين على عجل ! فركبه عمر فوجده ذا خيلاء وعجب ، فنزل سريعاً وقال : مالى ولهذا ؟ هاتوا فرساً من أفراس العامة كيلا ينتقل إلى زهو هذا فأضيع ! وكان دخوله بيت المقدس ليلا ، فتوجه إلى محراب داود ليقيم الصلاة ، ومكث بعد العشاء فى المسجد حتى حان الفجر ، فأم الناس وقرأ قول الله عن نبيه داود : « اصبر على

ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب »(١) ، وسبعة آيات بعدها فى الركعة الأولى ، وقرأ فى الركعة الثانية الآيات الأولى من سورة الإسراء .

وتناول طعام الإفطار فى المسجد ، ولم يزد عما كان يأكله فى الطريق ، ثم نظر فوجد كناسة حول البيت الشريف ، فطلب مكنسة ، وقال : أيها الناس ، اصنعوا كما أصنع ، وبدأ بإزالة الكناسة ، فنهض القوم يعاونونه ، حتى نظف المكان ، فرجع عمر إلى مصلاه ، وجعل يتحدث عن حقوق الإنسان فى ظل الإسلام ، فما راعه أن يسمع من يصيح : يا أمير المؤمنين ، فنظر فإذا راهب إيليا يتقدم إليه باسماً ، ويقدم له قرطاساً كتبه عمر من قبل ، فيقرأ فيه :

(هذا عهد من عمر بن الخطاب إلى راهب لقيه فى دير إيلياء ، له ما لأصحابنا وعليه ما عليهم ، لا نظلمه ولا نخذله ، ولا نفرض عليه ما لا طاقة له به ، وله ديره وما ملك) .

حار عمر ، وقد جاشت به الذكرى ، فانتفض الماضى أمامه بملامحه وقسماته ، لم يغب منها شىء ، ثم ابتسم للراهب قائلا : هذا عهدى ولك ذمة فى عنق كل مسلم . والتفت إلى أبى عبيدة ، وقال له : أسمعت ؟ ذلك جارى ، له الأمان والذمة ، ثم سقطت عبرة من عينه وهو يقول : الحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة ص ، الآية ١٧

الى بيت المقدس

- ١ -

لم ينعم موريس بفراشه، إذ أخذيتقلب عليه دون أن يغمض له جفن، وكيف ينام ، وعمه الذى اغتصب مال أبيه يرهقه بأشق الأعمال طول اليوم ، ولا يسمح له باستراحة القيلولة ، كما يستريح أبناء عمه ، وهم لداته ، يرفلون فى أغلى الثياب ويطعمون ألذ الطعام ، ويسافرون للنزهة مع والدتهم فى المصيف ، على حين لا يبرح المزرعة ، وكأنه عامل غريب لا يمت إلى عمه بنسب ! على أنه سمع من أمه قبل رحيلها المفاجئ أن مال عمه قد سرق من خزانة أبيه ، إذ اشتغل المنزل بوداع جنازة الراحل ، وتهيئة مراسيم التشييع ، فلما رجعوا من الكنيسة وجدوا خزانة المال منهوبة ، ولم يحضر الأخ جنازة أخيه ، وشوهد يخرج من المنزل متسللا أثناء الدفن ؟ لقد ماتت الأم بحسرتها ، وتركت موريس فى مهب الريح ، فرأى عمه أن يضمه إليه ، لا ليكون نجلا عزيزاً ، بل ليكون عاملا يفلح الأرض فى النهار ، ويقضى حاجات المنزل شراء وتنظيفاً فى الليل ، حتى إذا أجهده التعب نام حيث يعمل ، مكتفياً بفتات الزاد ، ورخيص الملبس .

وقد فكر كثيراً فى الفرار من سجنه المرهق ، ولكن إلى أين يتجه ؟ وعمه صاحب كلمة مسموعة يستطيع بها أن يرده إلى منزله ، وأن يدعى حق رعايته ، لأنه ابن أخيه الراحل ، وقد أوصاه به قبل أن يرحل .

ورأت القرية الجاثمة فى سفوح (الألب) وفوداً محتشدة تتجمع من كل صوب ، يباركها القسس والرهبان ، ويتقدمها الوجهاء من أمراء البلاد ، وتظللها الرايات ، تحمل الصليب ، وصور المسيح والعذراء ، فتساءل موريس فى حذر ، فعلم أن القوم يرحلون للشرق لينقذوا قبر المسيح من كفرة المسلمين ، وأنهم يجمعون الشباب من كل ناحية ليكونوا من جنود الحروب الصليبية ، وقد أعلنت الكنيسة غفران الله لكل نازح ، إذ ضمن الجنة بكفاحه سواء استشهد أم عاش ،

لأنه منذ انخراطه فى الجيش الغازى سيكون فى رعاية (يسوع) يرعاه أنى سار !

حديث عذب رائع ، استمع إليه فى شوق ، ولكنه كتم فرحة النجاة فى نفسه حذراً من سطوة عمه ، فقد يقف حائلا دون إرادته ، وقد يبادر بسجنه أياماً مظلمة فى الطابق الأسفل بمنزله ، كما فعل من قبل ، لقد رجع إلى عمله منهمكاً ، بعد أن عرف طريق النازحين إلى البحر الممتلئ بالسفن ، كى تحمل المجاهدين ، وما كاد الليل يرفرف بأجنحته السود ، حتى تسلل فى حذر ، بعد أن أوهم من فى المنزل أنه ذهب لينام ! وجعل يسترق الخطى متمهلا ، يدور بعينه ، وينصت بسمعه ، حتى تراءى له الموكب الهائج بضجيجه ، يحتل الشاطئ فى جلبة ، فعلم أن ساعة الخلاص قد دنت ، ورأى السفن تحمل القوم دون انتظار لمعرفة الأسماء، فرمى نفسه فى أقرب سفينة ، وولج إلى أخفى مكان يظلله السقف ، واصطنع النوم كيلا يتحدث مع أحد ، فيعلم شيئاً من أمره ، ويدل عليه إذا جاء من يسأل عنه ، وما كاد الصبح يرسل نوره الباهر ، حتى سارت السفن فى اتجاهها صوب المشرق ، وملك موريس أنفاسه فلم تعد تضطرب فى خوف حين رأى نفسه فوق الماء وتحت السماء .

تفرقت السفن حين وصلت إلى الشرق، وكان من نصيب موريس أن ترحل سفينته إلى بيت المقدس ، وكان سروره بذلك عظيماً ، لأنه سيكون على مقربة من قبر المسيح ، وسيعيش فى جو العذراء الطاهرة ، وسيبذل دمه فى الدفاع عن القبر المقدس إن تعرض لأدنى حادث :

على أنه دهش حين وجد الحياة هادئة فى إمارة بيت المقدس ، لقد ملأوا سمعه فى السفينة ، بأن المسلمين وحوش ضارية تصيد الناس فى كل مكان ، وأن القبر المقدس كان من قبل تدوسه خيول الكفرة من المسلمين وتبول عليه ، وأنهم يلبسون جلود الحيوانات ، ولا يتفاهمون بغير الصياح والصراخ ، وعلى من يسير ليلا أن يحتمى بخنجره ، لأنه سيتعرض للسلب إذا كان رجلا ، وللاغتصاب إذا كان امرأة ! نزل موريس بيت المقدس وهذه الأفكار تعشش فى ذهنه ، وتسود الأفق فى عينيه ، ولكنه ما كاد يجول فى المدينة ، حتى رأى المسلمين والنصارى

يبيعون ويشترون متفاهمين ، وجاء الليل فوجد الأنوار تضيء المحلات والشوارع ، والناس يسيرون فى اطمئنان ، وكأن الحرب لم تعرف فى هذه الأرض .

رجع إلى الموضع الذى تحدد للوافدين ، فرأى خيمة خصصت له فى أطراف المدينة جوار خيمات كثيرة تملأ الفضاء الفسيح ، فسأل : أتكون لى وحدى ؟ فقيل له : إذا تزوجت انفردت بها مع أسرتك ، وإذا بقيت عزباً فسيشاركك نظراؤك .

فسأل : وهل الزواج سهل هنا ؟

فنظر إليه أحد الجالسين طويلا ، فعرف أنه يريد أن يحدثه ، فدنا منه على حذر ، فسمعه يقول : لقد خدعوا نساءنا وبناتنا فى أوربا ، فأفهموهن أن الموت فى أرض يسوع شهادة ، وأن البقاء دون موت تمتع برياض الشرق الزاهرة ، وشمسه الدافئة ، وثماره المكدسة ، وأفقه المنير ، فجئن أسراباً يزاحمن الرجال ، وتدور المعارك بين الآونة والآونة ، فيموت الرجال ، وتترمل النساء ، ثم تحضر الوفود منهن خلف الوفود ! فيصبح الزواج سهلا ؟ وقد أعدت خيمة لكل أسرة ، فهل تود ؟

فرفع موريس رأسه يقول فى حيرة : وهل الزوجة أصبحت بضاعة تشترى من البقال ، أو لحماً يجىء من القصاب عفواً دون اختيار !

قال له : يا صاحبى لعلك قد سمعت !

نام موريس ، ورأسه كموج البحر مما يجيش به من الفكر ، لقد قدم ليحارب وها هو ذا يجبر على الزواج ، وممن ؟ ممن لا يدرى ؟ ثم تذكر أنه شاهد عشرات الحسان من بنات جنسه أثناء جولة اليوم ، وإذن فليست المسألة صعبة ، وله أن يختار ، وأمامه أسبوعان !

وفى الصباح سئل عما سيفعل ، والزمن زمن هدنة لا حرب فيه ، أيتاجر ؟ أيزرع الأرض ؟ أينضم إلى قوة الأمن ؟ أسئلة تواردت على ذهنه ، ثم رأى أن يفلح الأرض ، فسيق إلى حديقة جوار معسكر (جونار) وهو قائد بيت المقدس الحربى فى زمن القتال ، ورئيس الشرطة البوليسية فى زمن الهدنة ، ليقوم بأمرها

سقياً وزرعاً وتشذيباً ، وقد كان يفلح أرض عمه فى فرنسا ، فأهون شىء لديه أن يزرع حديقة محدودة المساحة ، سهلة الرى ، وكل شىء متاح ، لأنها حديقة (جونار) وما أسرع أن تسلم موقعه ، ثم ما أسرع أن قادته المصادفة لزواج سعيد لقد كان حارس الحديقة صليبياً مثله ، حضر مع أخته الشابة (مادلين) قبل أن يحضر موريس بثلاثة أشهر ، وجمعهما العمل المشترك فى مكان واحد ، فتحدثا كثيراً ، وزاره فى خيمته مرات ومرات ، فمال إلى مصاهرته ، ورضيت مادلين بصاحبها ، وتم الزفاف فى مظهر هادئ ، لا تضج به الزغاريد ، ولا تقام به الولائم ! وكيف ؟ وهم غرباء متقشفون !

جعلت الأرض تدور فى عين موريس دورات متشابهة ، فالأمس كاليوم كالغد ، لا يطلع نهار عليه بجديد ، لقد جاء ليحارب وينتصر وينقذ قبر المسيح ، هكذا قالوا له فى فرنسا ، ولكنه يعيش فى بيت المقدس حيث قبر المسيح مصون مقدس تؤمه الجموع آملة راغبة ، فأين ما زعموه من اتهامات ظالمة تتردد بهتاناً دون حق ! لماذا يمكثون إذن إذا كان إنقاذ القبر هدفهم المنشود ، ولماذا تعددت الإمارات الصليبية فى أنطاكية وطرابلس والرها وبيت المقدس ، بل لماذا يحارب ملوك النصرانية بعضهم بعضاً ، إذ يطمع كل ملك فى ما ليس له ، أمن المعقول أن تأتى الجيوش من أوربا ليحارب المسيحيون بعضهم بعضاً ، ولتسيل دماء كان من الأوفق أن تصان ليتحد الجميع أمام صلاح الدين !

وتمضى به الحيرة إلى أقصى مداها ، حين يرى (ميشيل) نجل القائد (جونار) يأتى كل يوم فيدخل من باب الحديقة مع كوكبة من المتبذلات ، ثم يصفق ميشيل بيده لينهض كل من بالقصر والحديقة ملبياً ما يريد ، فهذا يعد الطعام ، وذاك يهيئ الشراب ، وذاك يحضر أدوات الغناء والقصف ، وتمضى السهرات الدامية إلى منتصف الليل ، وضحاياها من التعسات ممن غلبن على أمرهن ، فساقهن الشاب المدلل بسلاح الرهبة ، أبالفسق يرضى يسوع ، وتنتصر المسيحية على الإسلام ؟

تأزمت نفس موريس ، وحادث صهره حارس الحديقة فيما يرى من المساخر فأغراه بالسكوت ، لأن الدم الإنسانى رخيص فى بيت المقدس ، وهو أرخص

شيء فى عين (جونار) بالذات ، ولا يأمن أن يعترض ولو بصوت خافت ، فيرديه (ميشيل) بطعنة غادرة ، وقد فعلها من قبل مرات مع سواه ، والنفس اللوامة لا تستطيع الإغضاء بسهولة ، فللضمير وخزاته الأليمة ، حين يظل ينغز كالجرح الدامى فلا يهدأ صاحبه بحال ، إن الذى أغراه بالسكوت لا يحس وخزاً للضمير ، فهو ينام هادئ البال ، يرى الجرم الفظيع فلا يترك فى نفسه أثراً يؤلم ، وحسبه أن يقنع نفسه بأنه لم يقترف شيئاً ، لأن الجانى غيره ، أما موريس فقد حاول الإغضاء فاستحال .

ورأى أن يستعين بمن ظنه طوقاً للنجاة ، فلجأ إلى راهب الكنيسة يعترف له بما يؤرق عينه ، ويقض مضجعه ، فقص عليه موجز حياته ، بادئاً بما كان من مأساة عمه ، ومارّاً بتعيينه بستانياً للحديقة ، ومنتهياً بالحديث عما يرى من مخزيات ميشيل ، التى لا يستطيع أن يسكت عليها ، وانتظر أن يرى الرد العملى ، طامعاً أن يزور الراهب قصر (جونار) وأن يعظ الماجن الداعر ، حين يجده يتبذل ويتهتك فى عصابة آثمة من حاشيته المنحدرة ، فإذا لم يستقم هدده بإذاعة منكراته على الملأ ، وهو بعد راهب بيت المقدس ، وله صوته المسموع ، انتظر موريس أن يرى الرد العملى من الراهب الجليل ، ولكنه أطرق قليلا ثم سأله :

— أأنت تجيد رعاية الحديقة غرساً وريّاً وتشذيباً ؟

— نعم يا سيدى .

— سأطلبك يومين من (جونار) تقوم فيها على رعاية حديقة الكنيسة ، لأنها حديقة يسوع !

— وماذا ستصنع فى مسألتى التى جئت من أجلها ؟

— لاشأن لنا بالقائد وولده ، وحذار أن تنطق بكلمة واحدة عن ميشيل ، فأنا صديق أبيه .

— ذلك أدعى أن تقول الحق كى يرتدع ، ما دمت صديقاً .

— حدد ما تحب من أيام الأسبوع حتى لا أفرض عليك يومين لا ترضاهما !

— سيدى ، سيدى !! ألهذا جئت ؟

ولم يفت الراهب أن يقتنص الفرصة ، وقد عز على موريس أن يستغل هكذا بمشيئة ماكر يتزيى بلباس الرهبانية ، وهو يأبى أن يدل على الخير ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وخلا فى المساء بزوجته فحدثها عما يثير شجونه ، وكانت عاقلة متزنة ، فأرادت أن تهون الأمر عليه ، فقالت فى ابتسام : لم تزد أعباؤك شيئاً ، فأنت تشتغل هنا كما تشتغل هناك ، وهناك أفضل من هنا ، فأنت تعمل فى كنيسة يسوع ، ترعاك عينه ، ويحميك مجده ، وأنت هنا ترى كل يوم ما يخالف إرادة يسوع من أعمال (ميشيل) فتتأوه صامتاً ، اذهب إلى خدمة الكنيسة يا موريس ! ففكر قليلا ، ثم قال ملاطفاً : هونت الأمر على يا مادلين !

كان موريس يظن أن شواغله النفسية ستهدأ فى الأسبوع يومين ، ولكنه تألم كثيراً حين رأى من الراهب مالا يحب ، فهو يبعث به كى يجمع النقود من بنى جنسه ليقدمها للمرضى والضعفاء ممن يأتون الكنيسة شاكين ، ولكنه يدخرها لنفسه دون أن ينفق منها فى اتجاهها المنشود ، وهو يرسله لشراء مايريد من السوق ، ويعد بالدفع ثم لا يدفع ، فإذا جاء التجار مطالبين لاطفهم فى مودة ، وقال لهم : كل أموال الكنيسة فى خدمة فقراء النصارى ، فاغنموا المثوبة ، وهبوا أموالكم ليسوع ! ثم هو شحيح شحيح ، يأتى كل صباح ليتصفح فواكه الأشجار بالحديقة ، مخافة أن تمتد يد العامل إلى واحدة منها حين يعضه الجوع ، ولا يرى مانعاً من أن يفترى عليه مؤنباً ، فيصح به : كانت هنا بالأمس برتقالة ناضجة فأين ذهبت ؟ إن التوت اليوم فى الأغصان أقل منه بالأمس فهل ذهبت ببعضه إلى السوق ؟ مما يضيق به صدر الحليم .

وقد انفجر بركان موريس ذات صباح ، حين وجد سائلة عجوزاً مريضة تفد إلى الكنيسة شاكية ألم المرض والجوع ، آملة أن ينفحها الراهب الراعى بعض ما جمع ، وقد أشاع فى الناس أنه ينفق شمالا ويميناً دون أن يبقى شيئاً فى يده ! انفجر موريس حين وجد الراهب يعبس فى وجه المسكينة صارخاً : إنه أنفق كل شيء على شبيهاتها من المساكين ، وليس معه دانق واحد ، فقال له موريس : لقد جمعت لك بالأمس ثمانمائة درهم ممن بعثتنى إليهم ، ولم يأتك سائل واحد ، فاربد وجه الراهب ، واشتعل اللهب فى عينه ، وصاح به : أنت تحصى على ، سترى ! ثم خرج غاضباً إلى حيث لا يعلم البستانى الذاهل إلى أين يسير .

لم تمض برهة ، حتى جاء صهره الحارس مضطرباً يرتعد من الخوف ، وقد صاح بموريس : انج بنفسك ، ماذا صنعت يا أحمق ، لقد جاء الراهب إلى قصر القائد فأيقظ (ميشيل) على عجل ، وقال له إنك تشنع عليه فى كل مكان ، وأنك تصمه بالفسق والفجور واغتصاب الضعيفات ، فاستشاط غضباً وطلب منى أن أسارع فأحضرك ، وليس أمامك إلا أن تفر من بيت المقدس إلى إمارة أخرى ، فالشاب نزق مجرم ، وسيدبر اغتيالك كما اغتال سواك !

فوجئ موريس ، فاحتبس الكلام فى حلقه ، وجرت دموعه منحدرة تلذع خده كالنار ، فصاح به صهره : على ما اعزمت ، ليس لديك وقت !

فأطرق المسكين : أأهرب فاراً ، وأترك (مادلين) وهى حامل فى شهرها الأخير ؟

قال الحارس : أنت أمام خطر محقق ، وسأقوم برعاية أختى قدر ما أستطيع ؟ هيا ، إن الزمن ليس معك بل عليك !

قال موريس : وماذا ستقول لميشيل ؟

فأجاب صاحبه : سأقول بحثت عنه فى كل مكان بالكنيسة ، وفيما حولها ، فلم أجد له أثراً ، ولابد أنه سيأتى بعد حين .

— ٢ —

انطلق الهارب المضطرب إلى حيث لايدرى أين يذهب ، إنه فر من بيت المقدس دون خطة يتبعها ، وعليه بعد أن أصبح بعيداً عن الخطر بعض الشىء أن يجلس قليلا ليفكر ؟

تراه يلجأ إلى إمارة صليبية ؟ من يدرى لعلهم يسألونه عن أيامه ببيت المقدس ولماذا فر منها ؟ وقد يعتبرونه جاسوساً لبعض من يتنافسون ؟ فهم على اتحاد الدين أعداء يتصارعون ، بل ربما عرف جونار مكانه فبعث يطلبه ، وقد يدعى أنه مجرم ، لص أوقاتل ، ولابد أن يلبى طلبته أمير المقاطعة ، لأنه أيضاً يطلب من فر لذنب اقترفه ، فيجاب لساعته ! لا أمان إذن فى إمارات الصليبيين ولا اطمئنان ، ثم تابع خواطره المسترسلة ، فأخذ يسأل نفسه : أيكون الأمان لدى صلاح الدين ؟

أى مفارقة هـذه ؟ أأحضر من فرنسا لأقاتل المسلمين ثم لا أجد الاطمئنان إلا لديهم ، ويترصدنى الخوف لدى إخوانى الذين جاءوا كما جئت لينقذوا قبر المسيح !

وهبنى ذهبت إلى بلاد صلاح الدين ، أليس من الجائز أن أعامل معاملة الأسير ، فتحبس حريتى ؟ وأنتقل من ضيق إلى ضيق ، ولكنى مع ذلك أكون بمنأى عن (جونار) وولده (ميشيل) فلا يستطيعان أن يرجوا صلاح الدين فى تسليم لاجئ مستجير ! لا مفر إذن من الذهاب إلى هؤلاء ، ولن أخسر شيئاً ، إذ لا يجبرنى أحد على أن أهجر عقيدتى وأفارق يسوع !

هذا ما انتهى إليه (موريس) وصمم عليه ، ولكنه ظل نهب صراع متأزم ، لأنه قد اضطر فى رأيه إلى المسلك الصعب تجنباً للمسلك الأصعب ، ولم يكن يعلم أنه فتح صفحة جديدة مشرقة حين اتجه إلى صلاح الدين ، فقد رأى نفراً من زملائه يسالمون المسلمين ، ويعملون معهم ، وهم — على قلة عددهم — مصممون على الانتظام فى جيش صلاح الدين لو سمح لهم بذلك ، ولكنه يحتاط معهم ، فيعهد إليهم بالخدمة فى شئون الغذاء والكساء ورعاية الدواب ، وإقامة الخيام تحت رعاية خبير مسلم يدبر الشئون الإدارية بحذق ومهارة ، ولن يضير المائة مثلا إذا كان بينها خمسة يكونون تحت الاختبار ، وهم لابد ناجحون ، فقد انضموا إلى العمل مختارين .

أخذ (موريس) يختبر مجتمعه الجديد ، متفحصاً متفرساً ، فرأى مابدل فكرته عن المسلمين من النقيض إلى النقيض ، فهم تحت قيادة صلاح الدين سواسية ، ليس لرئيس أن يتجبر على مرءوس ، وهم يأكلون جميعاً مما يأكل السلطان وحاشيته دون تمييز ، بل إن السلطان نفسه فى أحيان كثيرة يجود بما يقدم إليه من الغذاء لمن يحضر مجلسه فى بشاشة ، وفى حياته زهد وتقوى ، إذ يصوم كثيراً فى غير أيام رمضان ، ويحرص على أداء الصلوات الخمس فى جماعة عامة مبتدئاً بصلاة الفجر فى غبش الظلام ، وله مجالس متعددة لقراءة الحديث ودراسة تاريخ السلف ، يحضرها كبار العلماء ، فيتصدرون المجلس ، والسلطان مطروق يسمع ويناقش كأحد المجتمعين دون تمييز ، أما : استماعه للمظالم والشكايات فما لا ينقطع ، وقد يكون سائراً لمهم عاجل ، فتوقفه امرأة لتشرح حاجتها ، أو عجوز ليعرض

ظلامته ، فلا يدخر وسعاً فى إنصاف المظلوم ، وإغاثة اللهيف ، وخاصته المقربة من أفاضل العلماء ، وهم مستشاروه ، وقد يبدى الرأى فلا يقع منهم موقع القبول فيخالفونه علناً لأمور يبدونها فى تعقل ، فيستمع باسماً ، ويعدل عما قرر حين يتضح له الصواب ! أى سلطان هذا ، بل أى ملك ، إنى أقارن بينه وبين من أعرف من ملوك الفرنجة فأرى الفرق شاسعاً ، لماذا تغير شعورى ؟ لقد أصبحت وكأنى مسلم .

مضت سنوات ثلاث ، وموريس لاينفك يلاحظ ما يأتى به المسلمون من بطولات مخلصة ، فيتساءل أولا : أليسوا يدافعون عن أوطانهم التى احتلها الغرباء ، فهم محقون فيما يبذلون من تضحية ويهيئون من سلاح ! ثم يتساءل ثانياً : لماذا جئنا نحاربهم دون حق ! أننقذ قبر المسيح ؟ لقد أنقذناه منذ أكثر من ثمانين عاماً من يوم أن احتل الفرنجة بيت المقدس ، ففيم بناء القصور وإقامة الإمارات الصليبية فى بلاد تبعد عن قبر المسيح ؟ خرج أصحابها منها مرغمين ، واقتحمناها غاصبين ! ثم يكر به تفكيره راجعاً ، فيتساءل ثالثاً : وهل كان قبر المسيح كما ادعوا وزعموا فى أوربا مهاناً مزدرى تحت سلطان المسلمين ، لقد عشت فى بيت المقدس سنوات عدة ، وألممت بتاريخ القبر ، وسمعت عن يقين أنه كان موضع احترام المسلمين والنصارى معاً ؟ فلماذا جئنا هنا ، لقد أتينا استجابة لمن يحلمون بالسيطرة والملك وإقامة الدويلات على أشلاء الآمنين من أصحاب الوطن المستباح .. مرة ثانية أقول لماذا تغير شعورى ! لقد أصبحت وكأنى مسلم !!

ثم توالت انتصارات صلاح الدين فى حطين وعسقلان ، واتجهت جيوشه إلى بيت المقدس ، وهنا خفق قلب موريس ، وتذكر مادلين زوجته وأخاها صهره وطفله الذى لم يره ، فصمم على أن ينهض مع الجيش ، ولكن كيف يدخل المدينة ، وجونار وابنه يسيطران عليها ، وقد يقع فى قبضتيهما ، ؟ إن عواطفه الهائجة تسوقه سوقاً إلى بيت المقدس ، وسينتظر بعيداً خلف الأسوار ، فإذا لاحت بوارق النصر ، واطمأن على حياته خف إلى أهله ، وإذا كانت الأخرى رجع مع العائدين !

كان جيش صلاح الدين قوياً كثير العدد والعدة ، وقد وصلت أنباء انتصاراته الباهرة فى حطين وعسقلان ، ففتت فى أعضاد الصليبيين وتقدموا بطلب

الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال السلطان الظافر ، وكان رائعاً أن يصدر أمره الرحيم بالسماح لسكان القدس من الروم والفرنجة غير المحاربين ، أن يقيموا كما شاءوا ، وأن يتمتعوا بحقوق الإنسان دون نقص ، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم خلال أربعين يوماً ، نظير فدية متواضعة وقد عجز بعض النازحين عن الأداء ، فتحمل السلطان فداءهم حتى دفع فدية عشرة آلاف ودفع أخوه الملك العادل فدية سبعة آلاف ، وخرجت عدة آلاف دون فداء ما ، وقد حمل الكهنة ذهب الكنيسة وفضتها معهم دون أن يفتدوا أسيراً واحداً .

هرعت طوائف كثيرة من النصارى إلى الرحيل ، ووقف موريس يتصفح الوجوه ، فرأى مسلماً يحمل طفلا صغيراً ، تفرس فى وجهه فحن إليه حنيناً جائشاً ، وحمله بين يديه ثم قبله فى شغف ، وكأن له به عهداً ، فسأل عنه حامله ، فقال : وجدته وحيداً يبكى فعطفت عليه ، ومضت برهة فإذا سيدة تقبل صارخة مهتاجة تقول : ولدى ! ولدى ! ولم يكن الصوت غريباً على أذن موريس ، فتطلع ليرى زوجته (مادلين) نادبة تسأل عن فلذتها ، وكانت مفاجأتها شديدة إذ رأت موريس يحمل الطفل ، ويتقدم لعناقها ! ومرت لحظات لا تعد فى حساب الزمن لديهما ، حتى هدأت مشاعرهما قليلا ، فسألها موريس : أين كنت ذاهبة ؟ قالت : إلى طرابلس مع هؤلاء ! فقال موريس : وإذا كنت أنا فى جيش صلاح الدين !؟ فلم تتردد بل قالت : سنكون إذن معاً فى رعاية السلطان الرحيم .

خاتمة الهرمزان

— ١ —

جلس كسرى (يزدجرد) على سريره الذهبي فى صدر الإيوان ، ومن حوله رؤساء جيشه ، وأمراء مملكته ، وذوو المكانة من المرازبة والدهاقين ، وقد قام الجلاوذة من حوله يحملون السيوف ، ووجهه يلتهب كالجمرة المتوهجة غضباً ، وتكاد شدة غيظه تمنعه من الكلام ، فهو يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، مرسلا زفراته التى لا تنقطع ، حتى طال ذلك منه ، والقوم من حوله صامتون ، ينظرون فى حيرة ، ولا يدرى أحدهم كيف يبدأ الحديث ، إجلالا لكسرى ، وهيبة لمقامه ، حتى تجرأ الهرمزان ، فوقف متأدباً ليقول فى انحناء :

إذا لم يشأ سيدى أن يدخل عليه رسول سعد بن أبى وقاص ، فليصرفه ، وإذا شاء أهلكناه ، وجعلناه عبرة لسواه .

فصاح يزدجرد : ما هذا يا هرمزان ! نحن الذين دعوناه ، لنسمع ما عند هؤلاء ! بعد أن هجموا كالوباء !

قال الهرمزان : إن دعوة رسول سعد إلى الإيوان ، تدفع المسلمين إلى الغرور الكاذب ، وربما ظنوا أنهم شىء ، ومن هم يا مولاى ؟

لم يكد (يزدجرد) يسمع حديثه ، حتى صاح فى حدة :

تقول من هؤلاء ! كأنك لا تدرى ! إنهم الذين هزموا رجالنا يوم ذات السلاسل حين نكبوا (هرمز) وفر من وجوههم مذعوراً ، وقد قتلوا الآلاف ، وغنموا الكنوز ، إنهم الذين هزموا قائدنا يوم الثنى (قارن) ومعه (قباذ) و (أنوشجان) فلم يتحملوا صعقات المثنى بن حارثة ، وهجمات خالد بن الوليد ، واندحروا تاركين آلاف القتلى وما كانوا يحملون من ذخيرة وعتاد ، إنهم الذين

فرقوا جيوشنا يوم (الوليجة) ودحروا (الأندرزغر) و (جاذويه) ، فقتل الأول ، وهرب الثانى !

إنهم الذين فتكوا بنا فتكاً يوم (أليس) ، فاستسلم للأسر من استسلم ، وغرق فى النهر مئات الفارين من الذعر ، واندحر قائدانا (جابيان) و (جاذويه) ولم يستفد الأخير من معركة (الوليجة) فيغير الخطة ، وقد علمت أن خالد بن الوليد كان يحدث فى كل معركة نهجاً مخالفاً يأخذنا به على غرة ، ونحن جبناء ، أما يوم (الحيرة) ففضائحنا فيه معروفة ، وأمضها فى النفس استسلام الدهاقين لابن الوليد بأموالهم وبضائعهم ، وخضوعهم لما فرض من صلح يطعننا فى الصميم . ماذا أقول ، أأتكلم عن فضائحنا فى (ذات العيون) وهروب قائدنا (شيرازاز) أم عن هزيمتنا فى (عين التمر) وهروب قائدنا (مهران بن بهرام) أم عن نكبتنا يوم (السقاطية) وفرار (الجالنوس) أم عن فضيحة (يوم النمارق) وهزيمة (شهريران) رعباً من المثنى بن حارثة ! وأقرب معركة لنا (يوم البويب) وقد انهزم بها رستم والفيرزان ومهران وهم أكبر جنودنا ! ويجلسون معكم الآن !

ثم علا صوته وصرخ : أتقول بعد هذا يا هرمزان إنهم مغرورون مخدوعون ، أنتم المغررون أيها القواد العظام ! !

ثم صفق بيده ، فجاء الحاجب الأعظم فسجد بين يدى (يزدجرد) ، فصاح به : من من العرب بالباب ؟

فقال الحاجب فى اهتمام : رجلان يسمى أحدهما النعمان بن مقرن ، ويسمى الثانى (المغيرة بن زرارة) .

فقال كسرى : أدخلهما .

ثم التفت مغيظاً إلى القوم وهو يقول : ستسمعون ما لا تطيقون ، بعد أن شهدتم فى وقائعهم ما لا تتصورون .

دخل النعمان والمغيرة ثابتى الخطو ، مرفوعى الرأس ، فنظر كسرى إلى الترجمان فى كراهية ، وقال : سلهما ما يريدان ؟

فانطلق النعمان يقول : إن الله رحمنا فأرسل لنا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا

به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فدخلنا فى طاعته بعد خلاف حسم فى سنوات ، وعرفنا فضل ما جاء به ، ثم أمر أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فإما أن يدخلوا فى ديننا ، أو يعطو الجزية ، أو تقوم الحرب ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه لتحكموا بحكمه ونرجع عنكم ، وإن اكتفيتم بالجزية قبلنا ، وحمينا كم ومنعنا كم ممن يغير عليكم ، وإلا قاتلناكم .

فانتفض كسرى يقول وصوته مرتفع : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ منكم ، وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحى أنفة من أن نغزوكم، فإذا دخلكم اليوم الغرور فلا يغرنكم ، وإذا أدرككم الجهد فرضنا لكم القوت ، وأكرمنا رؤساءكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً منكم يرفق بكم .

فسكت النعمان وتوجه بعينه إلى المغيرة ليتكلم فقد جاء دوره ، فقال المغيرة من كلام مسهب : أيها الملك ، لقد وصفتنا بما لا تعلم ، أما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نتقاتل ونتشاجر ويغير بعضنا على بعض ، حتى بعث الله لنا نبياً ، نعرف حسبه ونسبه ، فرفع الظلم وأقام العدل ودعا إلى توحيد الله وإلى المساواة بين الناس ، وقال : من تابعكم فهو منكم ومن خالفكم ورضى بالجزية فامنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، فهو فى حماكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فاختر ما شئت .

فصاح يزدجرد : أتستقبلنى بمثل هذا ، والله لولا أن الرسول لا يقتل لقتلتكما ، وصرفهما وقد حملهما التراب ليبينهما فى رأيه ، ولكنهما ضحكا وقالا : إذن هذه بشارة ، فسترث الأرض ، وخرجا ، وكسرى متشائم متضايق فزع لما قالاه .

ثم نظر إلى جلسائه ، وقال : تشاوروا ، فأجابوا جميعاً : لك الرأى ، فقال : يتولى رستم القيادة ، ويكون على مقدمته الجالنوس ، وعلى الميسرة مهران بن بهرام وعلى الميمنة الهرمزان ، فقال رستم : أرى أن أكون معك فى المدائن لنرسم الخطة معاً ، وفى هؤلاء من يقود .

فلم ينتظر الهرمزان ، بل قال : الرأى ما قال كسرى ، وكلنا طوع أمره .

ثم خرج القوم متأهبين ، وفى نفس رستم حزازة من الهرمزان ، عرفها فى وجهه ، فسأله : لماذا تحاول التنحى عن القيادة ؟ فقال رستم متخابثاً : أعرف شجاعتكم وأقدرها ، فلماذا تتنصلون ؟ وأنا أريد لكم المكان الأعلى وتحجمون ؟

قال الهرمزان : سنقتدى بك ولا محيد .

تلكأ الجيش الفارسى قرابة أربعة أشهر ، لا يحاول أن يهجم ، وقد أخذت جنوده تعيث فى القرى ، فتنهب وتسلب وتفجر ، حتى ضج الناس ، فذهب كبارهم إلى رستم يشكون ما فعل الجنود ، وكان فى أشد الضيق النفسى ، فصاح بمن حوله : أقسمت لقد صدق العرب ، ما أسلمنا إلى هذه الحال إلا سوء ما نصنع وما أسلمهم إلى هذا التوغل إلا خير ما يصنعون ، إننا كنا نأمل النصر بحسن السيرة ، وكرم المعاملة ، فإذا انعكس الوضع فأبشروا بالخذلان .

ولم يلبث القتال أن نشب ، وتجالد القوم تجالداً رهيباً ، وصدق الله وعده ، فتم النصر فى القادسية ، ووقائعها مشتهرة ذات ذيوع .

لم يكن من هم الهرمزان أن يضحى بكل رخيص وغال فى سبيل النصر ، وإنما فكر فعرف أن قوة المسلمين تتضاعف بعد هذه الانتصارات ، فرأى أن يوجه الميمنة التى يقوم على قيادتها دون أن يتقدم الطليعة ، مدعياً أنه يرسم الخطة ويتدبر الأمر ، لذلك نجا سالماً من المعركة ، على حين قتل رستم ونفر من كبار قواده ، فلما هدأت المعركة انحاز الهرمزان إلى الأهواز طامعاً أن ينضم إليه من بها من العرب وأن يكون رجل فارس الأول فى عين كسرى ، وأخذ يغير على أهل ميسان ، وهم عرب لم يشتركوا فى القتال ، وتلك حماقة منه ، لأنه إذا كان قد استرضى عرب الأهواز فأحرى به ألا يغضب بنى جنسهم فى ميسان ، وبينهم من المصاهرة والترابط ما يجب أن يكون موضع الاعتبار ، وذلك كان فى صالح المسلمين ، إذ ما كاد والى البصرة عتبة بن غزوان يعرف ما اعتزمه الهرمزان حتى خاطب سعد بن أبى وقاص ، فأخذ للأمر أهبته وتوجه الجيش الإسلامى لمنازلة الهرمزان بالأهواز ، فعرف أنه مخذول لا محالة ، وأعلن التسليم ، وطلب الصلح ، فأجابه عتبة بن غزوان : على أن يكون للعرب ما غلبوا عليه من البقاع ، وللهرمزان ما لم يصلوا إليه من الأهواز ، فأظهر القبول ، وأبرم الصلح ، ولكنه أخفى فى

نفسه الشر ، إذ التمس هدنة لاجتماع أمره فحسب ، ريثما يستوثق من قدوم الجيوش الفارسية . وقد جاءته الأنباء بأن كسرى سيمده بأعظم العدد وشجعان الرجال ، فأخذ يشاكس من أبرم معهم الصلح ، مدعياً أن له حقوقاً أخرى فيما تحت أيديهم من الأرض ، وتحبب إلى فريق من الأكراد فضمهم إليه ، بعد أن وعدهم أنهم سيكونون أمراء البلاد بدلا من العرب المغتصبين ، وجاء النبأ إلى عتبة ، فهيأ الجيش الإسلامى ، وقاتل الهرمزان ، فانهزم بمن معه من الفرس والأكراد ، وطلب الصلح للمرة الثانية معتذراً ، فأجيب بعد أن ترك الأهواز ، وأقام فى (رامهرمز) .

لم يكن (يزدجرد) خلال هذه الأحداث الصاعقة بالنسبة إليه ، بغافل عما يتهدده فى مسقط رأسه بالمدائن ، فأخذ يجمع أعيان البلاد ، ويرسلهم إلى الأماكن النائية ليواجهوا معه الخطر قبل زحف العرب إلى عاصمة ملكه ، وجاءت رسل يزدجرد إلى الهرمزان فصمم على الغدر مرة ثالثة ، وانتقل إلى (تستر) ليقود حشداً تجمع من آفاق فارس ، وكان بتستر خنادق كثيرة ، وقلاع ذات أسوار عالية ، فتحصن الفرس بها ، وحاصرهم المسلمون أشهراً .

وكان البراء بن مالك رضى الله عنه يدعو للمبارزة ، فقتل أكثر من مائة فارس تهيئوا للمبارزة واحداً بعد واحد ، ولكن الحصار لا يجلب النصر السريع فأعمل المسلمون شتى الحيل حتى اهتدوا إلى مدخل يلجون منه إلى الحصون ، فكبروا ودخلوا مقتحمين ، ودارت أعنف المعارك الحمراء ، وتحصن الهرمزان بأعلى القلعة ، ثم وقف صارخاً : أيها المسلمون ، معى مائة نشابه مسمومة ، وسأرمى بها لأقتل منكم مائة فارس فأكثر ، ولن تصلوا إلى إلا بعد فناء أبطالكم فهل تضمنون لى أن تبقوا على ، وأذهب إلى المدينة إلى أمير المؤمنين ليحكم فى أمرى !

فقال النعمان بن مقرن : لك ذلك ، فرمى أقواسه ، وأمكنهم من نفسه ، فشدوه وثاقاً ، وتحمس بعض الأبطال لقتله ، إذ أنه رمى بسهامه المسمومة البراء ابن مالك ومجزأة بن ثور ، وهما من أعاظم الأبطال ، فصرعا لوقتهما ، ولكن النعمان بن مقرن قال : العهد ، العهد يا قوم ! سيذهب إلى عمر وأمره إليه ، فسكت المتحمسون .

كانت الطريق قلقة ترتج بنفس الهرمزان ، لأنه يعرف أنه قادم على عرين الأسد ، ويجيل فى نفسه كلاماً يبدؤه ويعيده ، لعله يجد منفذاً لجرمه المتعدد ، وقد دخل المدينة لابساً كسوته من الديباج ، واضعاً على رأسه تاجاً مكللا بالياقوت ، وخيوط الذهب تلمع بحلته ، وتزيدها الشمس وهجاً وبريقاً ، حتى تجمع حوله الناس وكأنه يسير فى موكب ، فسأل أنس بن مالك — وهو أحد الذين صحبوا الرجل — عن عمر ، فعرف أنه فى المسجد ، فيمموه ، وكان المسجد خالياً ليس به غير الفاروق نائماً ، يرتدى برنساً من قطن ، فجعل الهرمزان يسأل : أين عمر ؟ أين حراسه ؟ أين الحجاب والكتاب ؟ فقيل : إنه هو هذا ؟ فقام أمير المؤمنين على ضجيج الجلبة ، ونظر إلى القوم ، فعرف الهرمزان بما يلبس على جسمه ويكلل رأسه . فتأمله ملياً ، ثم قال : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشياعه ، فقال أنس : هذا ملك الأهواز فكلمه يا أمير المؤمنين ، فقال : لا ، حتى يخلع كل حلية يرتديها ، فرمى كل شىء إلا ما يستر الجسم ، وألبسوه ثوباً صفيقاً .

ثم تفرس عمر فى وجهه قائلا : هيه يا هرمزان ، كيف رأيت عاقبة الغدر ، بعد أن عاهدت وغدرت ثلاث مرات ؟

قال الهرمزان : يا عمر ، كنا نغلبكم فى الجاهلية ولم يكن الله معكم ، فلما أسلمتم غلبتمونا بنصر الله !

قال عمر : أجب ما عذرك ؟ حتى تغدر مرة بعد مرة .

فرد الهرمزان : أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك ، قال : لا تخف .

ثم طلب الهرمزان ماء ، فأتى به ، فجعلت يده ترتجف والكوز فى كفه ، وهو يقول : أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء .

قال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفأه .

فقال عمر : هاتوا له ماء آخر ، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش .

فقال الهرمزان : لا حاجة لى بالماء ، إنما أردت أن أستأمن .

فقال عمر : ستقتل ؟ قال : لقد أمنتنى . قال : كذبت .

هنا قال أنس بن مالك : بل صدق يا أمير المؤمنين ، قد أمنته .

فصاح عمر : ويحك يا أنس ، أأنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور ، والبراء ابن مالك ؟ والله لتأتين بدليل أو أعاقبك !

قال أنس : قلت له : لا بأس عليك حتى تخبرنى ، وقلت له : لا بأس عليك حتى تشربه .

فأقبل على الهرمزان وقال له : خدعتنى ، وأنا والله لا أنخدع إلا لمسلم :

قال الهرمزان : وأنا مسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فتراجع عمر ، وفرض له ألفين ، على أن يظل بالمدينة ولا يبرح .

— ٢ —

استيقظ عمر بن الخطاب كعادته قبل الفجر بما يكفى لمروره على منازل المدينة داعياً إلى الصلاة ، ليصحو النائم ، وينتبه الغافل ، حتى إذا أتم دورته توجه إلى المسجد فوجده ممتلئاً بالراكعين والذاكرين ، فصلى ركعتين خفيفتين ، وجلس يستمع أذان الفجر ، وإذ حانت صلاة الجماعة تقدم للإمامة فى المحراب ، وما كاد يسجد السجدة الأولى حتى بادره من برك على ظهره ، وأخذ يطعنه بخنجر ذى شعبتين ، فصاح الخليفة ، ورفع الساجدون رءوسهم دهشين ، فوجدوا (أبا لؤلؤة المجوسى) غلام (المغيرة بن شعبة) ينهض وفى يده خنجره يشغب دماً ، فاحتاطوا به ، ولكنه جعل يطعن فى جنون من يتقدم إليه ، حتى بلغت طعناته الدامية حداً مزعجاً ، ففكر بعض المشاهدين فى إنقاذ الموقف ، فرمى بعباءته على وجه القاتل وجذبه فى عنف ، فتقدم من يستل الخنجر من يده ، ولكنه بادر بطعن نفسه عدة طعنات أصابت سويداء قلبه ، فخر صريعاً دون أن يتكلم بحرف ، أما عمر فقد قال فى ألم : أين عبد الرحمن بن عوف ؟ فصاح : ها أنذا يا أمير المؤمنين ، فقال فى صوت خافت : قم فصل بالناس !

واعتمد الخليفة بكوعه على الأرض ، وحاول أن يضم بيده طيات بطنه المبقورة ، وصلى مع الناس جالساً ! وبعد الانتهاء من الصلاة سأل الفاروق فى صوت خافت عمن أصابه ، فقالوا : إنه أبو لؤلؤة المجوسى ، فقال : الحمد لله الذى لم يجعل مصرعى بيد مسلم يشهد معى أن لا إله إلا الله ! ثم أمر بانتقاله إلى منزله ، ولم تنسه شدة الألم أن يقيم صهيباً نائباً عنه حتى يفرغ المسلمون من اختيار

واحد من كبار الصحابة الذين عينهم بنفسه ، ثم طلب من يذهب إلى السيدة عائشة يستأذنها فى أن يدفن جوار رسول الله وخليفته أبى بكر ، فأجابت على الفور ، وهى تعتصر ألماً لما جد .

مات أبو لؤلؤة المجوسى وسره فى صدره ، حيث لم يتح لأحد أن يستكنه أمره بعد أن طعن نفسه منتحراً ، وجاء من قال : إن أبا لؤلؤة قبل ثلاثة أيام قابل أمير المؤمنين فقال له : اعدنى على المغيرة بن شعبة ، فإن على خراجاً كثيراً . فقال له عمر : كم خراجك ؟ فقال : درهمان فى كل يوم ، فقال عمر : وفى أى شىء تعمل ؟ قال : نجار حداد نقاش ، قال عمر : ما أرى خراجك كثيراً مع هذه الأعمال ! لقد بلغنى أنك تقول : لو أردت لعملت رحى تطحن بالريح ، قال : نعم ، قال : فاعمل لى رحى ، قال أبو لؤلؤة : سأعمل لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ، ثم انصرف ، فقال عمر : لقد توعدنى العبد .

تردد هذا الحديث ، ولكن من سمعوه قالوا : لا يمكن أن يكون قول عمر إن درهمين ليسا بكثير سبباً لهذا الجرم الفظيع ، إذ لو كانت المسألة استياء من كثرة الخراج ، لوجه الانتقام إلى المغيرة بن شعبة سيده الذى فرض عليه القيمة ، أما أن يوجه الانتقام لعمر ، وبهذه الطريقة المستبشعة ، لمجرد موافقته على الأجر ، فهذا ما يستبعد .

وفى غمرة هذه الاحتمالات ، تقدم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، فأدلى بشهادة خطيرة ، حين ذكر أنه رأى أبا لؤلؤة ليلة مصرع عمر ، واقفاً مع الهرمزان وأبى جفينة النصرانى ، يتحدثون فى همس ، فلما تقدمت منهم أظهروا الوجل ، وسقط منهم خنجر له رأسان ، ومقبضه فى وسطه ، وهذه هى صفة الخنجر الذى طعن به عمر ، وما ظننت إلا أنهم يتحدثون فى أمور تخصهم ، ولكنى بعد مصرع أمير المؤمنين أرجح أن مؤامرة دنيئة قام بها هؤلاء !

كلام خطير ذو دلالات منكرة ، وكان من المنتظر أن يقبض على الهرمزان الفارسى وأبى جفينة النصرانى ، ليحقق معهما فيما قيل ، ولكن عبيد الله بن عمر أدركه ما يشبه الذهول ، فحمل سيفه ، وتوجه إلى الهرمزان فصرعه ، ثم إلى أبى جفينة فقتله ، إذ تأكد من دورهما فى مأساة أبيه ، حيث لا يعقل أن يقوم غلام

مولى بعمل منكر مثل هذا دون تحريض : وإذا كان الخنجر هو الخنجر وقد رآه عبد الرحمن مع المتآمرين ، فقد قام الدليل :

انتهت حياة الهرمزان صريعاً بسيف عبيد الله بن عمر ! وقد هال المسلمين أن يقتل الهرمزان دون تحقيق قضائى ، وإذا كان من قصاص فلابد من صدور الإدانة صريحة لا تحتمل اللبس ، وقد رأى على بن أبى طالب أن يقتص من عبيد الله فيقتل بما جنى ، إذ ليس من حقه أن يتعجل ، ورأى غيره أن من البلوى أن يقتل عمر فى يوم ، ويقتل ولده فى يوم تال ، فلابد من التريث !

تولى عثمان بن عفان خلافة المسلمين ، وواجه المشكلة القضائية ، وما كان له أن يتجاهلها وهو خليفة رسول الله منذ صار أمير المؤمنين ، فجمع رؤساء الصحابة للتشاور فيما ينبغى أن يكون بعد أن صمم على بن أبى طالب على وجوب القصاص ، إذ لا مفر منه :

قال عمرو بن العاص لعثمان : إن الله قد أعفاك يا أمير المؤمنين من هذا الأمر أن يحدث فى أيامك ، فقد حدث قبل مبايعتك ولا سلطان لك ، فاصفح عن عبيد الله ، فهو أجدر بالغفران ؛

ولكن عثمان يعلم أن الدماء لا تذهب هدراً بين وفاة خليفة وانتخاب سواه ، وإلا لانتهز الناس فرصة تتيح الفساد ، واقترفوا الآثام إلى أن ينتخب خليفة جديد وهذا ما لم يقل به أحد ، وما جاء به دين !

ثم تداول الخليفة الرأى إلى أن انتهى إلى أنه ولى من قتلهم عبيد الله ، وسيتحمل دياتهم ، فيؤديها إلى أصحاب الدم ، وقد دعا القماذبان بن الهرمزان فأمكنه من عبيد الله حين قال له : يا بنى هذا قاتل أبيك ، فإما أن تعفو أو تقتص ! قال القماذبان : أفئن رأيت قتله أتمنعونه ؟ قالوا : لا ، أنت صاحب الأمر ، قال : إذن أعفو عن مقدرة ، فسر الحاضرون ، وحملوا القماذبان على رءوسهم حتى بلغوا منزله تكريماً لتنازله :

قال الراوى : وهكذا هدأت النفوس ، ولم يعطل حد من حدود الله ، مهما تشابكت العقد ، وتأزمت الأمور :

زينب الثانية

— ١ —

علم أهل مصر أن السيدة زينب بنت على شقيقة الإمام الحسين فى طريقها إليهم ، حيث اختارت أن تقيم بمصر بعد أن أمرها والى المدينة أن ترحل منها إلى حيث تشاء ، علموا ذلك ، فرأوا أن يخفوا إلى استقبالها من الفسطاط إلى بلبيس ، وقد غمرتهم فرحة سعيدة ، لأن مصرع الحسين كان قد أشعل الصدور وجداً ، كما جذب النفوس إلى أهل البيت هياماً وافتداء . وبدون أن يطلب منهم أحد أن يهرعوا إلى استقبال الوافدة العزيزة ، تألف تلقائياً موكب حاشد يتقدمه القضاة والفقهاء ورءوس الناس من كافة الطبقات ، ورأى والى مصر مسلمة بن مخلد أنه ليس أقل شعوراً بمكانة السيدة الوافدة ، ولا أضأل رغبة من هؤلاء فى الترحيب بها ، فتقدم الحشد الزاحف ، وتعجب القوم من صنيع مسلمة ، وهو وال ليزيد ابن معاوية على مصر ، حين لم يخش أن يقع تحت طائلة اللوم والمؤاخذة ، وقد يأتى الأمر بعزله واستدعائه إلى دمشق ، ورأى مسلمة ما فى وجوه القوم من التساؤل ، فصاح بهم : يا أهل مصر ، دعونا نرضى الله فى يوم واحد :

ولم يكد ركب السيدة الكريمة يهل على بلبيس ، وهى فى نفر من ذويها لا يبلغون أصابع اليدين ، حتى أدركها العجب الشديد لما رأت من جموع ، وظنت بادئ الأمر أن الحشد الحاشد لم يقدم لاستقبالها ، وإنما اجتمع الناس لأمر آخر لا شأن لها به ، ولكنها وجدت الترحيب الحار ، والشوق المندفع ، والناس يصيحون فى بهجة : مرحباً بأهل البيت ، مرحباً ببنت رسول الله ! وجالت بذهنها ذكريات وفودها على الكوفة ثم دمشق ثم المدينة ، فهالها الفارق الشديد بين استقبال واستقبال ، وقالت لزينب بنت ابن عمها مسلم بن عقيل وكانت معها : عجباً ، كنت أخشى ألا نجد مكاناً فى مصر ، حيث لم يكن لنا بهذا عهد ، وحيث تضيق الخلافة الأموية علينا الحصار فى كل اتجاه ، وها نحن أولاء نرى الجموع تتسابق

مرحبة ، بل نرى الوالى يتقدم المرحبين لو كان أخى الحسين يعرف مدى هذه المشاعر لرحل إلى مصر بدل الكوفة ، ولكنه القدر المحتوم .

قالت صاحبتها : لقد كنت متفائلة حين ضاقت علينا المدينة ، لأنى أعلم أن الله سيختار لنا الراحة بعد العناء .

وأصر المجتمعون على أن تتقدم زينب الركب ، إذ لا يجوز أن يسبقها فى المسير أحد ، إلا من يفسح الطريق ويرسم الاتجاه ، حتى مسلمة بن مخلد آثر أن ينخرط فى الجموع دون تمييز ، إذ رأى أنه ليس الآن حاكماً يتصدر ، فذلك فى غير هذا الموقف ! أما هو فى ركب زينب فخاشع مطيع ، وصاح صائح يقول فى لوعه : واحسرتا على الحسين ، فأطلت زينب من هودجها قائلة : هـذا ما وعـد الرحمن وصدق المرسلون .

بلغ الركب مدينـة الفسطاط ، وأصر مسلمة على أن تنزل زينب ومن معها فى منزله فقبلت على أن يهيأ لها منزل خاص بعد حين ، وتقاطرت الوفود خلف الوفود لرؤية السيدة الطاهرة ، حتى حار مسلمة فيما يصنع ، ورأت ما يشغل باله فخرجت للقوم تقول :

يا أهل مصر ، أكرم الله وجوهكم الوضيئة ، ولئن سرنى إقبالكم النبيل على آل بيت رسول الله ، فإنه ليهمنى أن أعلمكم أنى نويت الاستقرار فى هذه الأرض ولئن امتد بى العمر ، فسأراكم وترونني على مهل . فانصرفوا مشكورين حتى أنتقل إلى منزل خاص وعدنى به أميركم مسلمة ، وعندها سأقابل وفودكم دون زحام ، وفداً بعد وفد ، بحيث لا يزيد الجمع الوافد عن عشرة من الزوار ، كيلا تحدث جلبة تعوق الطريق ، فانصرفوا الآن على بركة الله .

فقال مسلمة : لوددت أن تظلى بمنزلى ليخدمك أبنائى وبناتى .

فردت : أكرمك الله وحياك ، فقد سبق الوعد .

وما هى غير أيام معـدودة ، حتى انتقلت زينب ورفاقها إلى منزل خاص بالفسطاط ، وجعل الزوار يتوافدون وفق ما حددت من عدد ، وما عينت من وقت ، وكان العلماء من الفقهاء والمحدثين أول من أسرع بالزيارة فى اليوم التالى

لانتقالها ، فخرجت إليهم مع ابنة عمها زينب بنت مسلم ، وجلست فى حجابها الأرفع ، تحيي الوافدين ، فابتدأت تقول : شتان بين يومى فى مصر ، ويومى فى الكوفة ، لقـد أسرع عمر بن سعد بى وبإخوتى وأبناء أخى وبناته إلى الـكوفة ، ودموعنا تتقاطر ألماً ، إذ مررنا فى الطريق على كربلاء ، فصاح إخـوتى : واحسيناه ، وصحت أنا : يا محمداه ، صلت عليك ملائكة السماء ، هذا سبطك الحسين بالعراء ! مزمل بالدماء ، مقطع الأشلاء .. يا محمد ، هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقتلة ، فبكى كل من سمعنى ، وأسرع ابن سعد فى السير لنبتعد عن كربلاء.

ثم حانت الساعة البغيضة ، ساعة دخولنا على عبيد الله بن زياد ، والى يزيد على الكوفة ، فصممت على أن أرتدى أرذل ثيابى أنا ومن معى ، وجلست فى أقصى المكان ، فقال عبيد الله : من هذه التى انحازت فجلست ناحية ؟ وكررها ثلاثاً ، فلم أنبس ببنت شـفة ، فقالت أمة لى تجلس جـوارى : هذه زينب بنت فاطمة وعلىّ وبنت رسول الله .

فصاح اللعين يقـول شامتاً : الحمد لله الذى فضحكم وقتلـكم ، وأكذب أحدوثتكم .

فوجدت فى نفسى جمرة تتقد من الغيظ ، وصحت فى وجهه : الحمـد لله الذى أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس ، وإنما يفضح الفاسق ، ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله !

فرد فى تهكم : كيف رأيت ما صنع الله بأهل بيتك ؟

فأجبت فى حدة : كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينهم وبينك ، فتختصمون غداً !

ثم سكتت زينب بنت على ، إذ تمثلت الذكرى الوجيعة ، فلم تستطع مواصلة الحـديث .

وكان إلى جوارها زينب ابنة عمها مسلم ، فقالت فى أدب :

لم ينته الموقف إلى هذا الحد ، فقد نظر ابن زياد إلى (على بن الحسين) وكان يجلس فى صحبتها . فقال له : من أنت ؟ قال : أنا على بن الحسين ، فتجهم الطاغية

وقال : لقد أدرك البلوغ ، فاذهبوا به ، واضربوا عنقه ، وهنا قفزت زينب من مكانها وقالت : يا ابن زياد ، حسبك منا ، أما شبعت من دمائنا ، ثم اعتنقت علياً وقالت : والله لا أفارقه ، ولئن قتلته لأقتلن معه ، ولك أن تبدأ بى ، وكان فى أحد الجالسين بقية من مروءة ، فأخذ يتشفع لعلى حتى تراجع الطاغية :

قالت زينب بنت مسلم : ثم خرجنا جميعاً ، فوجدنا من رجال الكوفة ونسائها من قدموا يتباكون على مصرع الحسين ، وقد أسلموه من قبل ، ونقضوا عهده الذى أبرموه معه فى رسائلهم ، فضاع دمه دون جند يلتف حوله ، فاشتعلت السيدة غضباً ، وانفجرت تخطبهم فى ازدراء ، فكان مما قالت :

يا أهل الكوفة ، أتبكون ؟ فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة ، إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، ألا ساء ما تزرون ! أتبكون ، وقد ذهبتم بعارها وثنارها ، فلن ترحضوها بغسل أبداً ، وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، وسيد شباب أهل الجنة ؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ، فلا تعجبوا إذا أمطرت السماء دماً ، ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، أن سخط الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون ، أتدرون أى دم سفكتم ، وأى كبد فريتم ، وأى كريمة أبرزتم ! لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هداً ، يا محمداه ، هذا حسين مرملا بالعراء ، وهؤلاء بناتك سبايا ، وذريتك قتلى ، يا أهل الكوفة إن ربى وربكم لبالمرصاد !

قال أحد الحاضرين : هذا كلام يفتت قلب الجماد .

ونظرت السيدة زينب فرأت الدموع تتقاطر ، والزفرات تتصاعد ، فقالت لابنة مسلم : كفى يا زينب ، لقد جاء القوم مسرورين برؤيتنا ، فكيف تثيرين هذه اللواعج ، لننتقل إلى حديث آخر .

ولكن أصوات القوم ترتفع : لا يا سيدتى نريد أن نقف على كل ما كان لنكتبه فى كتبنا فتقرأه الأجيال ، لسنا بعيدين عن المعترك ، فكلنا أحباء مخلصون منا المؤرخ ، ومنا الفقيه ، ومنا المفسر ، ومنا المحدث ، ومنا الكاتب ، ومنا الشاعر ، ولابد أن تدون هذه الوقائع لتكون عبرة المعتبرين ، وتبصرة المتأملين .

قالت السيدة زينب : وماذا بقى مما لم تقله زينب ابنة عمى ، لقد انتهى الموقف وتركنا الكوفة إلى دمشق حيث يزيد !

فأسرع قاضى الفسطاط يقول : وهل نرجع ولا نستمع ما كان من أمر يزيد ؟ إنه حديث — كما أتصور — أشجى وأدمع !

فردت السيدة زينب تقول : كان المنتظر أن يكون الأمر كما تتصورون ، ولكنى فوجئت بما لم أتوقع ، لقد توجهنا إلى منزل يزيد، فقابلنا نساؤه وجواريه فى قصره مقابلة طيبة ، كانت أمارات الحزن تشيع فى ملامحهن ، وقد حاولن تعزيتنا بما ملكن من الكلام الطيب ، كما قدمن من الطعام والشراب والملبس ما لم يكن لدينا استعداد نفسى لقبوله ، ولكننا شكرنا هذا التعاطف ، وعلمنا أن البداية طيبة !

ثم قابلنا يزيد ، فرأيناه واجماً ، ولم يهجم بالحديث الشامت كما فعل عبيد الله ابن زياد ، وطال انتظارنا لقوله ، وكان الموقف أكبر مما أحتمل ، ففاضت دموعى ودمع بعض الحاضرين من جلسائه تعاطفاً وتأثراً ، فرأيت يزيد ، يتركنى ويتوجه بالحديث إلى ابن أخى على بن الحسين ، فيقول فى أسف : يا على ، لعن الله ابن مرجانة — يريد ابن زياد — أما والله لو كنت هناك ما سألنى أبوك خصلة إلا أعطيته إياها ، ولدفعت عنه الحتف بكل ما أستطيع ولو بهلاك بعض ولدى، ولكن ماذا تنفع لو وليت ! وقد قضى الله ما رأيت .

ثم أطرق ساكتاً ، وقال : أنتم مخيرون بين البقاء معنا فى دمشق ، أو الرحيل إلى المدينة ، فاخترت المدينة ، وهنا أمر النعمان بن بشير بأن يجهز لنا الرحال ويخصص لنا الحرس من الجنود الأشداء ، فصدع النعمان بما أمر ، وهيأ على رأس الحرس رجلا جلداً شديداً ، كان معنا كأحسن ما يكون الصاحب ، حتى لكأنه بعض شيعتنا ، كان يمشى من خلفنا نهاراً ، ويتقدمنا ليلا ، ويسأل عن كل ما نريد ، فيسرع بالإجابة سعيداً ، ويبدى من التذلل والحب ما لم نره من قبل .

فلما بلغنا مشارف المدينة ، قالت لى فاطمة بنت أخى الحسين : لقد أحسن الرجل إلينا ، فهل لنا أن نصله بشىء ، ووالله ما كان معنا غير حلينا فخلعت سوارين ودملجين وبعثت بها إلى الرجل معتذرة عن قلة المكافأة ، فما راعنا إلا أن

بكى وقال : لوكنت أصنع هذا الصنيع لذهب أو فضة لقبلت ما قدم إلى ، وعددته كثيراً ، ولكنى أحفظ عهد رسول الله فى أهل بيته ، وآمل أن يشفع لى يوم العرض ، وبكى ، فبكينا معه !

وكانت المدينة ذات أرج طيب ، فيها قبر جدى وجدتى وأمى فاطمة ، وبها من ذوى الإخلاص والصدق والغيرة علينا مانرجو أن يثيبهم الله على جزيل ما أظهروا من الحب ، وواسوا وجاملوا ، وقد رأيت عبد الله بن الزبير يرسل وفوده من مكة إلى المدينة مطالباً بثأر الحسين ، فتشجعت ، وبذلت الجهد فى تأييده ، وطار الخبر إلى يزيد . فكتب إلى عامله على المدينة عمرو بن سعيد طالباً هجرتنا إلى مصر وشاهدت من قرابتى من وافقوا على الرحلة ، لنهدأ قليلا مما نعانى ، فقد تهب العاصفة ، ولم نعد نتحمل ، وها نحن الآن معكم ، فالحمد لله ...

ونظر القوم بعضهم إلى بعض ، فترجموا بنظراتهم عما تخفى الضلوع من طرب شجى ، وقال قائلهم : حسبنا اليوم ما سمعنا ، وسنعود لنسمع إذ طال الحديث ، ثم نهضوا إلى الباب صامتين ، وفى وجوههم خشوع ، وفى مآقيهم دموع .

— ٢ —

تفرق القوم عن مجلس زينب صامتين ، ثم اجتمعوا فى المسجد متحدثين ، فقال إمام المسجد ، وكان بين المجتمعين : لقد كنت أضمر فى نفسى سؤالا ، ولكنى تهيبت السيدة الطاهرة أن يكون فيه ما يمس شعورها الأخوى ، ولكن السؤال يلح على .

فقال قاضى الفسطاط : أفصح عن سؤالك لنا ، فقد نجد إجابة له .

قال الإمام : كنت أريد أن أسأل السيدة الفاضلة إذا كان شقيقها الإمام الحسين لايملك الجند الكثير ، والأنصار المتحمسين ، فلماذا ذهب إلى كربلاء وليس معه غير نفر من ذويه ، وفيهم النساء والأطفال ، أفما كان الأحرى أن يأخذ للأمر أهبته ؟

قال القاضى : سؤال يدور فى أذهاننا جميعاً ، ولا حرج فى أن نلتمس الإجابة عنه من السيدة الطاهرة ، فهى رفيقة جهاده ، وموضع سره ونجواه ، وليس

الإمام الحسين رضى الله عنه غراً ، حتى يقذف بنفسه وبأهله للتهلكة دون إعداد ، وستجيب بما يشفى الغليل .

وإذا كان الحديث العام فى المسجد لايكتم ، فقد طار فحواه إلى السيدة ، وأحست أن عليها أن تدعو جماعة الفقهاء والمحدثين إلى اجتماع قريب حددت يومه وساعته ، ولم يتأخر أحد عن تلبية الدعوة ، إذ ما حان موعد الاجتماع حتى توافد الشيوخ إلى منزل السيدة ، فجعلت ترحب بهم فى سماحة ، وقالت : إن من حقهم أن يقفوا على مقدمات مأساة كربلاء كما وقفوا على خاتمتها المروعة ، وإنها ستروى ما شهدت دون تزيد ، لتكون شهادة تنصف المظلوم من الظالم ، ورب العرش عالم محيط .

قالت السيدة فى وقار هادئ :

إن أخى رحمه الله قد ورث شجاعة أبيه ، إذ ما كان يجاوز العشرين حتى انضم إلى جيش سعيد بن العاص الذى توجه إلى طبرستان ، وأبدى من البطولة ما كان حديث الناس ، ثم لم يكد يستريح بعد رجوعه حتى انضم إلى جيش أفريقية ، وكان فارساً معلماً يوم فتحت طرابلس ، إذ أبدى من البسالة النادرة ما قرب الفتح ، وعجل بالنصر ، ولا أذكر مواقفه فى معركتى الجمل وصفين ، إذ كان ساعد أبيه ، وموضع استشارته ، وحين تم الصلح بين أخى الحسن وبين معاوية كان الحسين ممن عارض أخاه فى شدة ، ثم رأى أن يجمع الجموع ليقف أمام معاوية فلم يكن أهل البيت من رأيه فأطاع ! وحين رشح معاوية يزيد لخلافته وأرسل إلى الوليد بن عتبة عامله بالمدينة أن يأخذ البيعة له من كبار الصحابة فى الحجاز ، كان الحسين أشجع معارض ، فرفض هذه المهزلة ، وأرسل إلى شيعتنا بالكوفة ليستوثق من موقفهم فجاءه الرد السريع يقول :

(أما بعد ، فالحمد لله الذى قصم عدوك العنيد — يريدون معاوية — حين اعتدى على الأمة ، فاغتصب حقوقها ، وغلب على فيئها ثم قتل خيارها ، واستبقى أشرارها ، فبعداً له كما بعدت ثمود ! وإنه ليس لنا إمام غيرك ، فأقدم علينا ، لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى) .

قرأ الحسين خطاب الكوفيين ، وجمعنا نحن أهل البيت لنتشاور ، أيرحل بناء

على خطاب أتى إليه أم يتريث ، وكان من رأيه أن يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل للكوفة ليرى بعينه ، ويلمس بيده ، ثم يخبرنا بما يرى ويلمس ، فوافقنا على اقتراحه ، ونشط مسلم رحمه الله إلى الكوفة ، ومعه كتاب للحسين يقول فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن على إلى الملأ من المؤمنين ، أما بعد ، فقد فهمت كل الذى قصصتم ، وبعثت إليكم بأخى وابن عمى ، وثقتى من أهل بيتى ، مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم ورأيكم ، فإن كتب إلى أنه اجتمع رأى ملئكم وذوى الحجا منكم ، على مثل ماقد قدمت به رسلكم ، وقرأت فى كتبكم ، فإنى أقدم إليكم وشيكاً ، إن شاء الله) .

فلما ذهب مسلم وجد حماسة وتأهباً ، وسمع ما يحلو من القول استعداداً للشهادة وتحفزاً للجهاد ، وقد بايعه اثنا عشر ألفاً ، يعلنون انضواءهم تحت راية الحسين ، فكتب إلى أخى بما كان ، فاطمأننا ، وتهيئأنا للرحيل .

ثم سكتت السيدة كأنها تتذكر ، وما لبثت أن قالت : لقد عارض الحسين فى مسيره رجلان هما ابن عباس ، والطرماح بن عدى .

أما ابن عباس ، فعارضه بالمدينة قبل أن يرحل ، إذ أتى إلى داره ، وطلب أن يحدثه على انفراد ، حيث قال له : يابن عم ، لقد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لى ما أنت صانع ؟

قال الحسين : إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله .

قال عبد الله : إنى أعيذك بالله من ذلك ، فأخبرنى رحمك الله ، أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ، فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم ، وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله يجبون إليه مال البلاد ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ، ثم يستغفروا إليك ، فيكونوا أشد الناس عليك !

فقال الحسين : إنى أستخير الله وأنظر ما يكون .

فلما كان الغد عاود عبد الله بن عباس الكرة ، فقال للحسين : إنى يابن العم أتصبر ولا أصبر ، إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل

العراق قوم غدر فلا تقربنهم ، فإنك سيد الحجاز فأقم به ، وإن أبيت ، فاخرج إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً ، وبها أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، فتكون بهم ذا منعة .

قال الحسين : إنى والله لأعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنى صممت .

قال ابن عباس : فإن عزمت فلا تصحب معك نساءك وأبناءك ، إذ أخشى أن يقتلوك وأنت تنظر إليهم ، كما قتل عثمان وأهله ينظرون !

ثم سكتت السيدة وقد سبحت فى شجونها متحسرة :

فقال إمام المسجد : سيدتى ، عهدناك ذات شجاعة وصبر ، فلا تدعى للشجن باباً يفد منه إليك ، قد عرفنا قول ابن عباس ، فماذا قال الطرماح بن عدى ؟

فأسرعت السيدة تجيب :

قبل كل شىء أؤكد أن أخى كان واثقاً من كلام مسلم حين أخبره بأن اثنى عشر ألفاً بايعوا الحسين ، وهم مستعدون لنصرته ، ومن قبل جاءه كتاب الكوفة ، فضم قولا إلى قول ، فاعتزم ونهض .

أما الطرماح بن عدى ، فقد قدم على الحسين ليقول له :

لقد غادرت الكوفة ، ولى أمل ألا تسير إليهم ، إذ لا يقدرون على منعك ، وإذا أردت مجالا للجهاد ، فهلم معى إلى طيئ فهم أهل بسالة وحمية ، وأنا الزعيم أن أجمع لك عشرين ألفاً من طيئ يضربون بين يديك بأسيافهم ، ووالله لايصل إليك عدوك ، ومنهم عين تطرف .

فقال الحسين : جزاك الله خيراً ، ولكن بيننا وبين أهل الكوفة عهداً ، وأنا فى الطريق وهم منتظرون .

راجعت أخى فيما سمعت ، فأطرق قليلا ، ثم قال لى : أمرى فى يدى ، فإن لم أجد عوناً صادقاً ، وجيشاً متأهباً ، فلى أن أوجه خطوى إلى مكان آخر ، وإذا تحقق ما قال مسلم فالنصر قريب !

على أن الخطب بدأ يكشر عن نابه ، إذ انطلقنا من المدينة إلى الكوفة ، فعلمنا فى الطريق أن مسلماً قد قتل ، وأن أهل الكوفة قد خذلوه :

هنا أسف الحسين ، ورأى أن الخير فى المسالمة ، فانتظر حتى جاءه عمر بن سعد ابن أبى وقادة على رأس جيش فى أكثر من أربعة آلاف ، فتقدم عمر ، وقال للحسين : ماذا أتى بك ، فقال : أخى ، كتب إلى أهل مصركم أن أقدم ، أما إذا نكلوا عن عهدهم فسأرجع .

فقال عمر : هذا هو الرأى .

وكتب إلى ابن زياد ليخبره باعتزام الحسين على الرجوع ، ولكن الطاغية تجهم وقال : لابد من الحرب ، وكتب إلى عمر كى يبدأ .

كان ابن سعد متهيباً أن يحارب آل رسول الله ، فكتب إلى عبيد الله يقول : هذا حسين قد أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى جاء منه ، أو أن يسير إلى أى ثغر من ثغور المسلمين ، أو أن يأتى يزيد فيضع يده فى يده ، وفى هذا رضى ، وللأمة صلاح ! وهذا كتاب ناصح للأمير مشفق على قومه !

ولكن ابن زياد قد اشتط فكتب مصمماً أن يحارب الحسين ، وبعث إليه باللعين شمر بن ذى الجوشن ، ليضرم الحريق ، وشبت الحرب ، واستشهد الحسين ، ولن أطيل ، ثم انخرطت فى بكاء طويل !

نظر الشيوخ بعضهم إلى بعض متحسرين ، وقال قائلهم : لقد أعذر الحسين إذ طلب المسالمة ، وسأل القوم أن يأذنوا له فى الرجوع .

وقال آخر : لم يقدم على مهلكة ، فقد وثق بالكوفة ، ولكن أهلها خذلوه ، وحين تأكد من الخيانة تراجع !

فرفعت زينب رأسها وقالت فى هدوء : هنيئاً له ، قد لقى الشهادة ، وليتنا ظفرنا بها معه ، ثم علا صوت المؤذن ينادى للصلاة ، فاستأذن القوم وكل واجم مطرق كأنه يسير فى جنازة الحسين ، وهى جنازة تتكرر كل حين ، إذ لا يسأم المسلمون حديثهم عن استشهاده متحسرين !

خارجيان يتوبان

كان الحسن البصرى يتجه بعد صلاة العصر إلى حلقة درسه بجامع البصرة ، فرأى التفافاً حول ضيفين غريبين ، فتوجه إليهما محيياً ، وسأل : من أنتما ، فقال تلميذه عمرو بن عبيد : إنهما أسلم بن البراض ، وفاتك بن أسامة الخارجيان ، وقد جاءا إلى مجلس الحسن يعلنان التوبة والانضمام إلى الجماعة ، فابتسم الحسن ، وربت بيديه على كتفيهما وصاح بهما : هيا ، ستجلسان جوارى لتعظا الناس . فصاح ابن عبيد : من الذى يعظ يامولاى ؟

وسار الحسن بصاحبيه حتى توسط الحلقة ، وأحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ثم بدأ الحديث بقوله :

إن الحق لا يخفى طويلا ، وإن للباطل جولة ثم تنقضى ، وأنا وإن كنت أخالف جماعات الخوارج مخالفة صريحة ، إلا أنى أرحمها ، وأقدر بواعث شقاقها ، لأن الخوارج مسلمون ضلوا الطريق ، وهم أهل إخلاص وصدق ، وقد سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن هؤلاء : أكفار هم ؟ قال : من الكفر فروا : رحم الله الإمام علياً كرم الله وجهه ، فقد حاربه الخوارج وأرهقوه ، وأفتوا بكفره ، ولكن الحق عنده فوق كل شىء كان فى مكنته أن ينتهز مروقهم عن طاعة الإمام ، وشنهم الحروب الدامية على معشره ليوجه لهم أقسى الطعنات ، فيتهمهم فى إيمانهم ، ولكنه استشعر حق الفتيا ، وهو باب مدينة العلم ووارث فقه ابن عمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بصريح العبارة : من الكفر فروا ...

ثم التفت إلى أسلم بن البراض ، وكان على يمينه ، فقال له : كيف انضممت إلى الخوارج يا أسلم ؟

فقال أسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : لقد كنت قريباً فى المسكن من منزل صالح بن مسرح صاحب شبيب بن زيد ، وكان ورعاً تقياً متحرزاً ، يقوم أكثر الليل ، ويجاهد ويعظ طيلة النهار ، وكان زاهداً ورعاً مصفر الوجه ، له أصحاب

كرام بالموصل ، يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الدين ، وقد دعا بالخروج على عبد الملك ، واستنفار المسلمين لقتال إخوانهم المسلمين .

قال الحسن : لم يكن يصفهم بالمسلمين يا أسلم .

فقال أسلم : نعم ، وهذا خطؤه ، بل هذا ما استدرجنا إلى الانضمام إلى جماعته وما زلت أذكر مديحه لرسول الله وأبى بكر وعمر بأجمل العبارات ، حتى إذا وصل إلى عثمان وعلى ، حرد ومرق ! وكانت له لباقة فى الدعوة إلى الجهاد ، وما زلت أحفظ قوله : « لا تجزعوا من الموت ، فإن لقاء الله حبيب أثير ، والموت نازل لا محالة عن قتل أو غير قتل ، فبيعوا لله أنفسكم طائعين » .

وضع الحسن يده على ركبة أسلم ، وقال : مهلا قليلا فسأعقب : ثم اتجه إلى تلاميذه بالحلقة فقال :

لقد أصاب صالح فى ورعه وزهده ، وتعليمه أبناء الموصل كتاب الله ، كما أصاب فى حبه رسول الله وأبا بكر وعمر ، أما موقفه من عثمان وعلى فذو خطأ صريح ! لقد مات عثمان شهيداً قبل أن تبرز فتنة الخوارج ، لأنهم لم يظهروا إلا بعد التحكيم فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وقد كانوا قبل خروجهم فى جماعته ، ثم مردوا عليه لأنه قبل التحكيم ، مع أنه كرم الله وجهه كان مخالفاً له ، ولكن جماعته أجبروه عليه فنزل على رأى الجماعة ! ثم انجلى التحكيم عن شقاق رجحت به الكفة الباغية ، هنا مرد الخوارج وقالوا إن علياً قبل التحكيم ، وإذن فقد كفر ، ولا اتفاق معه إلا إذا أعلن كفره ثم رجوعه بالتوبة !

ثم رفع الإمام الحسن صوته قائلا : ألستم معى فى أن الإمام مظلوم ، مظلوم حين اضطر إلى قبول التحكيم تحت تأثير جماعته ، ودون رضاه الشخصى ، ومظلوم حين اتهم بالكفر وهو أمير المؤمنين !

ثم اتجه إلى أسلم ، وقال له : استرسل كما تريد .

فقال أسلم : أوافق الآن على ما يقول مولانا الحسن ، ولكنى حين اعتنقت مذهب صالح بن مسرح لم تكن الحقائق واضحة لذهنى كما تتضح الآن ! على أنى لا أنكر أن لجماعة الخوارج آراء هى من صميم الإسلام ، وإنى أحبذها كل التحبيذ !

فأشرق وجه الحسن ، وتوجه إلى تلاميذه بالحلقة ، وقال : استمعوا يا قوم ، فقد يأتى الرجل لنا بما لا نعلم ، ونحن أتباع الحق .

قال أسلم : إن جماعة الخوارج يذهبون إلى أن الخليفة لن يختار إلا بانتخاب صحيح تقوم به جماعة المسلمين كافة لا خاصتهم ، وأنه يستمر خليفة ما دام قائماً بالشرع ، فإذا وقع فى زيغ وجبت محاسبته ، وإن أتى ما يستحق القتل شرعاً قتل !

قال الحسن : نحن نرى أن الخليفة لن يكون خليفة شرعياً إلا إذا قام بالشرع ، والتزم بالأحكام ، فإذا حاد عن حكم الله عزل وحوسب ! أما أنه لا يختار إلا بانتخاب تقوم به جماعة المسلمين دون استثناء ، فهذا ما يتعذر ، وقد تمضى السنوات دون أن يجتمع من فى المشرق والمغرب من شتى بلاد الإسلام على انتخاب إمام واحد ، وليت ذلك كان ميسوراً فنرتضيه ، ولكن اللجوء إلى الصفوة المختارة من أهل الحل والعقد كان أقرب طريق للحق !

ثم اتجه إلى أسلم فقال له : أعندك شىء آخر ؟

فقال أسلم : ألا ترى أن لصاحبى فاتك بن أسامة حقاً فى أن يتحدث وقد بدأت فليثن !

فاتجه الحسن إلى فاتك وقال : دعاك أخوك للحديث ، فقل لنا ماذا أعجبك لدى القوم غير مسألة اختيار أمير المؤمنين ! وقد عرفت الجواب عنها !

قال فاتك : لقد ناقشت بينى وبين نفسى أوجه الخلاف بين الخوارج والجماعة واهتديت إلى ضلال الخوارج .

فرد الحسن : أرشدك الله ثم أرشدك ، فوضح لنا مشكوراً كيف اهتديت إلى الصراط السواء ؟

فقال فاتك : أنت تعلم يا سيدى أن جماعة الخوارج يحكمون بتكفير أهل الذنوب ، واعتبروا الخطأ فى الحكم ذنباً يصل إلى الكفر ! ولذلك حكموا بتكفير على كرم الله وجهه حين قبل التحكيم ، لأن التحكيم فى رأيهم ذنب ، ومن أتى الذنب كافر لديهم ! وكذلك حكموا بكفر طائفة من أصحاب رسول الله ! وقد تدبرت آيات القرآن فوجدت أن الذنب لا يكفر به صاحبه ، بل يمحى بالتوبة ،

وأمامنا النص الصريح من قول الله عز وجل : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون »(١)

قال الحسن : حياك الله ثم حياك ، ثم توجه إلى تلاميذه فقال :

إن الآيات الكريمة تدل على سعة عفو الله ! فالله يقول : أسرفوا على أنفسهم ، والإسراف : تجاوز الحد ، ولن يكون الإسراف من ذنب أو ذنبين ، بل من عدة ذنوب ، يتغمدها الله بعفوه إن تاب صاحبها توبته النصوح ، ثم يقول : « لا تقنطوا » والقنوط لا يكون من ذنب واحد أو ذنبين ، لأن القنوط يأس مرير تضيق به الدنيا فى وجه القانط ، وهذا يحدث عند ارتكاب الكبائر لا اللمم ، فإذا كانت الكبائر لا تستدعى القنوط ففيم التكفير ؟ ثم يقول : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » وكلمة « جميعاً » تفتح كل باب مغلق ، فهما تخيلت من ذنب كبير تجسمت أهواله فى عينك ، فهو صغير فى جنب رحمة الله ، « إنه هو الغفور الرحيم ! »

وأدار الحسن وجهه إلى فاتك ، فقال : استمر يا فاتك !

فقال فاتك : جاءتنى أقوال العلماء فيمن ارتكب الكبيرة ، إذ ذهبت الجماعة إلى أنه مسلم عاص ، وذهبتم أنتم إلى أنه بين المنزلتين !

فصاح الحسن : من الذى ذهب إلى أنه بين المنزلتين ، منزلة الكفر والإيمان إن ذلك رأى لتلميذى واصل بن عطاء ، وقد خالفته بالحق ، فاعتزل مجلسى ، ونأى مع نفر من مؤيديه ! أأكون أنا الذى قلت ذلك ، وقد خطأت واصلا وهاجمته حتى اعتزل ! وسمى أصحابه بالمعتزلة ! نحن مع الجماعة يا فاتك فلا تتوهم ! أما الخوارج فقد حكموا بتكفير مرتكب الكبيرة فأيأسوه من رحمة الله !

قال فاتك : وقد رجعنا بحمد الله عما يقولون !!

ابتسم الحسن وقال : الحمد لله ! ما دمتما قد رجعتما فهنيئاً ثم هنيئاً ، ولابد أن نعرف منكما شذوراً عن مواقف القوم ، إذ تأتينا الأنباء متضاربة مختلطة ، ومثلكما لا يقول غير الحق ، وأنتما الآن بعد الهداية من أهل الصدق واليقين !

(١) سورة الزمر ، الآيات ٥٣ — ٥٥

ثم رفع الحسن صوته عالياً متجهاً بالحديث إلى جميع من بالحلقة من تلاميذ ومستمعين ، فقال : لا تظنوا أن الدرس الدينى وقف على الشيخ وحده ، فإن مما يجمل بالعالم أن يستمع إلى سواه فى حلقة درسه ، وإليه المرجع فى التصحيح والتصويب ، وقد كنت أتوق إلى أن أجلس مجلس المستمع فى مسجد البصرة هذا ، ولكنكم تأبون على إلا أن أتكلم ، وما أنا بأفضل من ابن عباس ومن ابن عمر ومن ابن مسعود ، وقد كانوا يجلسون فيستمعون ، العلم مناقلة ومدارسة ، وقد بعث الله هذين الكريمين لأستمع إليهما معكم ، فنلم ببعض ما لا نعلم .

صاح صائح من الحلقة : يا إمام ، وهل عدم المتكلمون حتى لم يبق غير حديث رجلين كانا بالأمس فى ضلال مبين ، فيتصدران حلقة العلم يتحدثان ؟

قال الحسن : مهلا مهلا يا رجل ! أنت تعلم أن الخوارج خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، فلم لا نغبط بالعمل الصالح فنقتدى به ، ولم لا ننقد العمل السيئ ونجافيه ! ؟

قال الصائح : وأى مواقفهم نغبط به ؟

فرد الحسن : أغبط بموقف مرداس الخارجى — مثلا — حين حبس فى سجن عبد الله بن زياد بالبصرة ، فقال له السجان وقد رأى كثرة صلاته وتسبيحه : أنا أحب أن أوليك حسنة ، قال مرداس : وماذا تستطيع أن تفعل ؟ قال السجان : أتركك كل ليلة تذهب إلى بيتك ممسياً ، فإذا أذن الفجر قدمت على ، ففعل .

وفى ليلة جاء النبأ إلى عبد الله بن زياد أن الخوارج قد قتلوا صاحب شرطته ، فأقسم ليقتلن من بالسجن منهم إذا طلع الصباح ، وجاء الخبر إلى مرداس فى منزله ، فتركه لفوره واتجه إلى السجن ، ورآه السجان قبل موعده ، إذ تعود ألا يحضر إلا ساعة الفجر ، فسأله : ماذا أتى بك الآن ، فقال مرداس : علمت أن الأمير سيدعو من بالسجن قبيل الصباح كى يقتلهم أخذاً بثأر صاحب شرطته وخفت عليك أن تقع فى مؤاخذة إذا لم أكن بين المسجونين ، فتعجب السجان وسأل مرداساً : ولما بكرت هكذا قبل الفجر ؟ قال ؛ خفت أن يأتى الطلب الآن فتقع فى المحظور ، ويلحقك المكروه ، فأطرق السجان مبهوتاً وهو يقول : حرام أن يقتل من يفى بالعهد !

ثم سكت الحسن لحظة وقال : ألا أغبط بما صنع مرداس ، ألا أضربه للناس فى مجلس الوعظ مثلا لمن ينى بالعهد ، ويصدق الوعد ؟

أما ما أنقده من سيئات الخوارج فأكثر من أن يحصر ، وقد سمعتم بالأمس رأيي فى نافع بن الأزرق الحنفى حين رأس الأزارقة ونادى بتكفير كل من لم يكن من رأيه ، من جماعة المسلمين ، وأباح قتل الأطفال والنساء ممن يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقال : الدار دار كفر إلا من أظهر أنه معنا ، ثم أفتى بألا تؤكل ذبائح المسلمين ولا تجوز مناكحتهم وتوارثهم لأنهم كفار كالمشركين ، ولا يقبل منهم غير الطاعة أو السيف ! قال نافع ذلك ، ومع فحش ما قاله ، هادنه عبد الله بن عباس ، وناقشه الرأى ، وجادله فى معانى بعض الآيات ! ولم يقل إنه كافر ، بل قال إنه عاص ضال ، وسأل الله أن يهدى الضالين !

ثم التفت الحسن إلى مكان المعترض وسأل فى رفق : ألديك تعقيب فأزيد ، فلم يسمع رداً .

فقال الحسن لجاره أسلم بن البراض : مع من كنت فى الخوارج ؟

فقال : كنت بفارس فى جيش قطرى .

والتفت إلى جاره الآخر فاتك بن أسامة فسأله : ومع من كنت فى الخوارج؟

فقال : كنت بالكوفة فى جيش شبيب بن يزيد .

فابتسم الحسن وقال : الصيد ثمين ، سنعلم حديث القوم جميعاً ، ونحن مستريحون ، هيا يا أسلم فتحدث عن بعض ما شاهدت فى حروب قطرى ، وقد تأتى بالجديد .

قال أسلم : ليت لى بعض بيان الإمام الحسن فأفيض بما لدى عن طواعية سلسة لا تعرف التكلف ، ولكنى أتحدث بما يحضرنى ، فأقول : إنى عرفت قطرى ابن الفجاءة بطلا محارباً ، لا يعبأ بالموت ، فهو يهجم بالكتيبة القليلة على الجمع الكثير غير هياب ، شاهدته يوم دولاب ، وكان أمير الخوارج حينئذ الحجاج ابن باب الحميرى ، فلم يزل يقاتل الخوارج ، وأعداؤه أكثر منه عشر مرات ، وقد رموه وجنوده بالقذائف القاتلة من الحجارة ، حتى غلبت الكثرة الهائلة القلة

الضئيلة ، واضطر الخوارج للفرار ، وكادت تنحسم المعركة لجيش ابن الزبير ، ولكن جماعة تظهر فجأة بقيادة قطرى بن الفجاءة ، فحملت على الناس حملة من يستميتون ولا يرجون بقاء لحظة فى الحياة ، السيوف فى أيديهم ، والنبال تسبقهم إلى الأعداء ، وصيحات قطرى تعلو وهو يكر ويفر لا يبالى قذائف الحجارة ، ولا نبل العدو ورماحه ، حتى تغير الموقف ، فسقط قائد المسلمين حارثة بن بدر فظنه القوم صريعاً ، فانخزل الجيش وتفرق ، ومن ورائه قطرى يتتبعهم حتى بلغوا الأهواز ، فمن رأى قطرياً فى هذا اليوم لم يحسبه إنساناً ، بل يعتقد أنه جنى انشقت عنه الأرض ، وقد هزه الطرب عقب الخاتمة الناجحة بالنسبة إليه ، فبعث بقصيدة من شعره متشوقاً إلى زوجته البطلة النادرة أم حكيم فقال عنها :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً ... يمج دماً من قائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تكن موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

فقلب الحسن البصرى يديه دهشاً ، وهو يقول : (باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن) ، إنهم سموا أنفسهم الشراة ، أخذاً من قول الله عز وجل : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »[1] ، لقد صدقوا النية عن غفلة ، وفهموا الباطل فى صورة الحق ، فما استقاموا على الطريق .

قال أسلم : كانوا فى حاجة إليكم معشر العلماء لترشدوهم إلى السبيل !

فصاح الحسن : سبحان الله ، أوقصر العلماء ! إن الفاقهين منذ عهد الإمام على ابن أبى طالب يجادلونهم بالتى هى أحسن ، فما استمعوا إلى قول فقيه ، كانوا يظنون أنفسهم حملة العلم وحدهم ، وأن خصومهم جهلاء لا يفقهون كتاب الله

(١) سورة التوبة ، الآية ١١١

وسنة الرسول ، فماذا يصنع عالم أمام من يرميه بالجهل الشنيع ، استمر يا أسلم فقد اهتديت !

قال أسلم : ولم يندحر قطرى عن طريق الميدان وحده ، فقد نازل جيوش المهلب بن أبى صفرة دون مبالاة ، والمهلب رحمه الله بطل المعارك ، ورجل المواقف ، وهو أسد ذو زئير ، وأشباله من حوله : المغيرة والمفضل ويزيد ، وحبيب ومعن كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، كما قال القائل فى وصفهم صادقاً غير متحيز ، كل ولد بقبيلة فى الميدان ، ومن ورائه جيوش الخلافة ، وتأييد الحجاج ، وحب المخلصين ، ولكنه مع ذلك كله لم يجعل القتال وحده سبيل الظفر مع قطرى ، فأخذ يلجأ إلى الاحتيال ، وله فيه غرائب وأعاجيب !

قال الحسن : مثل !

فقال أسلم : كان قطرى يعلم أنهم يتمسكون بظواهر النصوص ، فيرسل من جيوشه من يتظاهر بالانضمام إلى الخوارج ليثير اللجاج الجدلى ، فيتطاحن القوم ويتنافرون حتى دبت البغضاء بينهم ، وحاربوا أنفسهم ، وذلك نصر نفسى للمهلب ! كان قطرى يثق فى مقاتل جرىء من أبطاله يسمى (عبيدة بن هلال) ، فبلغ المهلب أن عبيدة يختلف إلى امرأة حداد متخفياً ، فأرسل من جيشه من يذيع النبأ ، فهاج القوم وذهبوا إلى قطرى يطلبون منه إقامة الحد ، فقال لهم : لم يشهد شهود على الفاحشة ، وعبيدة من الدين بحيث لا يجرم ، ومن القتال بموضع البطل الباسل ، وقد شهدتم بلاءه ، فقالوا : ولكننا لا نقره على الفاحشة ، فاستدعى قطرى عبيدة ، وسأله عن اتهام القوم ، فقام فزعاً يقرأ قول الله عز وجل : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »(١) ، فتراجع القوم وبكوا واعتذروا ، ولكن رسول المهلب اندس بين الصفوف ، وجعل يقول : خدعنا بآية من كتاب الله نزلت فى سواه ، فأحدث بلبلة ، وهاج القوم على قطرى ، وانسحب من جيشه فريق كبير .

وقد تعب قطرى ذات يوم تعباً جسيماً اضطره إلى الراحة ، فقال له قومه : ألا نخرج الآن إلى القتال ؟ فقال : كلا ، ثم رأى تجمعهم وحماسهم فعزم على

(١) سورة النور ، الآية ١١

الخروج رغم مرضه ، فصاح به الصائحون : قلت لا ، ثم كذبت حين خرجت ، أنت الآن مرتد ، لأن الكاذب مرتد ، وسمع رسول المهلب هذا اللجاج فجعل ، يذيعه متنقلا بين الناس ، حتى هاجت الهائجة على قطرى ، وانسحب فريق آخر .

واستطرد أسلم يقول : قلت جيوش قطرى بعد هذا الانسحاب المتتابع ولكنه لم يجبن ، حتى صرع ، ولم يصرع مواجهة ، إذ كان الأبطال يتهيبون لقاءه ، ولكن فرسه قد سقط به على جبل وعر ، فأخذ ينحدر متساقطاً دون أن يقدر على النهوض ، وانتهزها القوم فرموه بالحجارة الصلبة ، ففلقت رأسه ، وتخلص المهلب من عدو خطير !

قال الحسن : ما أشد وجيعتى لفرقة المسلمين ! ما ضر لو زحفت الجموع لنشر الإسلام دون أن يقع البأس بين المسلمين !

قل يا أسلم ، فقال : انتهى ما لدى ، وجاء دور فاتك ليتحدث عن شبيب :

فقال الحسن لجماعته : أوتأذنون الآن ! أم نرجئ إلى الغد ، قالوا جميعاً : نأذن فالوقت كاف ، والشمس لم تجنح بعد للأصيل .

فالتفت الحسن إلى فاتك وقال له : هيا ، لو ارتضيت .

قال فاتك بن أسامة : سمعت ما قال أسلم عن قطرى ، فرأيت أن شبيباً لا يقل عنه فروسية وبسالة ، كنت معه فى جميع مواقفه الباهرة حتى غرق ، فلم أشهد غير الهول الزاحف يزلزل ما أمامه ، ولا يكترث بشىء على قلة أعوانه ، وكثرة أعدائه ، فأول معركة خضناها كانت مع جيش ابن مروان وقائده عدى بن عميرة وكان شبيب فى أربعين بطلا من جنده ، وجيش عدى يتعدى ألفاً وخمسمائة فارس ولو تلاقى الجمعان دون تدبير لانتصرت الكثرة على القلة ، ولكن شبيباً هاجم عدوه قبيل الفجر قبل أن يستيقظ ، فهزمه هزيمة نكراء وقتل الأربعون جنداً كثيراً ، وغنموا الأموال ، وظفروا بما أعانهم من السلاح .

ولم يهدأ محمد بن مروان بعد هزيمة عدى ، فقد أدركه الغضب وعبأ جيشاً كثيفاً يتعقب أصحاب شبيب ، وقد رحلوا إلى آمد مع ما يحملون من السلاح ، وجاء جيش الأموية فحفر خندقاً كبيراً حول المدينة ، فحال ذلك دون سهولة الالتقاء على وجه سريع ، فتشاور شبيب مع صالح بن مسرح ، وهو قائد الخوارج الأول ، ومعه تعاقد شبيب على القتال حتى النصر ، فاتفق الرأى على الرحيل إلى

الموصل حتى تكون المعركة فى مكان لا يحده خندق ، وفوجئ الحجاج بن يوسف وقد ولى العراق بعد ابن مروان بانتقال الخوارج إلى الموصل ، فجهز جيشاً فى ثلاثة آلاف رجل ! وليس مع الخوارج غير تسعين رجلا فحسب ! وقد جعل صالح جيشه ثلاثة أقسام ، كل قسم يضم ثلاثين فارساً ، ثم التحم الهول ، فصرع صالح ، وكاد شبيب يصرع ، لولا أنه احتال للفرار من جمع لا قبل له به ، وجاء الليل فجمعنا ، وكنا سبعين فقط ، وسأل : ما العمل ؟ فلم ندر ما نقول ، فقال شبيب : ليكن كل واحد منا جاعلا ظهره خلف ظهر صاحبه فيحمى كل مقاتل أخاه ، وبذلك يكثر عددنا إلى الضعف ، ولا ننتظر بقاء ، فالموت فخر .

وحانت المعركة ، فبذل السبعون جهاد الجبابرة ، حتى فرت كتائب الأموية إلى حصن الموصل بعد أن صرع قائدهم الحارث بن عميرة ، وتركت من السلاح ما لا حصر له ، وأقبل الليل فانتهزها شبيب فرصة للمسير ، وحمل جميع العتاد ومعه الخيول والدواب ، وذاع انتصاره فأقبل عليه الخوارج من كل صوب ونادوه بإمارة المؤمنين .

ارتاع الحجاج لما سمع من هزيمة الجيش ، وازدياد جموع الخوارج ، فبعث بجيش كثيف يتعقب شبيباً حيث اتجه ، فتلاقى الجمعان عند سفح جبل بخانقين ، واستعمل شبيب الحيلة ، فأظهر للقوم أنه ينوى الفرار ، حين ترك كميناً يلتف حول الجيش إذا تقدم ، وظن قائد الحجاج أن القوم يهربون فراراً من بطشه ، فتعقبهم معجلا ، وسار جنده خلفه فى غير أهبة كاملة ، ثم رأوا شبيباً يكر عليهم كالصاعقة من أمام ، على حين هجم الكمين المستتر من خلف ، فذعر القوم ذعراً شديداً ، وحصدت السيوف الخارجية جمعاً كثيراً .

وتكررت المواقع ، إذ بعث الحجاج بالقادة ، قائداً خلف قائد ، بعث بالجزل بن سعيد على جيش ضخم ، فلم يصنع شيئاً ، وتلاه بجيش آخر يقوده سعيد بن المجالد ، وقد ضاق به الصبر ، نظراً لتأنيب الحجاج واستعجاله ، فصاح بالقوم من أهل الكوفة : إنكم عجزتم وأطمعتم عدوكم ، وأنتم فى طلب هؤلاء الأعاريب العجف منذ شهرين ، وقد خربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم متحصنون بالخنادق لا تبرحون ، إلى أن يبلغكم أن القوم نهبوا أموالكم وأسلحتكم وارتحلوا ظافرين .

فقال الجزل : وما تريد أن نفعل يا سعيد ؟ قال : نترك هذه الخنادق ، ونتعقب الأعراب ، فقال له : مهلا حتى نرسم الخطة بعد أن نعرف أين يقيمون وكم عددهم ، وما لديهم من العتاد ، فصاح سعيد : لا مرحباً بمن يخذل ، والله لأذهبن ولو كنت فرداً واحداً ، وجاء الخبر إلى شبيب بالنهروان فجمعنا ، وجعل يقسمنا كراديس كراديس ، ويباعد بين كل فرقة وأختها ، حتى يظن العدو أنه أمام جمع صغير فيهجم غير مبال ، وحانت المعركة فأطبق الجزل بجيشه ، وقاتل حتى جرح وحمل ، ورأى جيشه القائد محمولا ، فظنوه قد صرع ، وتفرقوا مذعورين ، وانتصر شبيب .

قال الحسن : هذه معارك عرفتها وسمعت عنها كما سمعت عن انتصارات شبيب على جيش محمد بن موسى ، وجيش عبد الرحمن بن الأشعث ، وجيش عثمان ابن قطن ، وجيش عتاب بن ورقاء ! بل على جيش الحجاج نفسه بالكوفة ، وكانت قائدة الجيش غزالة زوجة شبيب ، وقد دخلت مسجد الكوفة وصلت الظهر ، والحجاج محجم عن مواجهتها ومعه أربعة آلاف بطل من جيوش الشام بعد أن ضاق صبره بجنود العراق ! دخلت غزالة المسجد ، وتوضأت وصلت بعدة سور من القرآن ، واطمأنت ، وخرجت راكبة فرسها دون أن يعترضها أحد ، وقد قال فى ذلك من يهجو الحجاج :

أسد على وفى الحروب نعامة ... ورهاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

ولكن جيش الأموية قد انتصر فى النهاية بعد مصرع شبيب .

قال فاتك : لم يصرع شبيب فى معركة حربية ، ومن الذى يقدر على مواجهة شبيب ، ولكن فرسه ، قد عدا به نحو نهر دجلة ، وكانت شطوط النهر منهارة ، فزل الفرس بقائده وعليه الدروع الواقية من الحديد الثقيل ، فلم يستطع السباحة ، مع ما يقيده من الأغلال ، وجاءه الموت غرقاً فى موج البحر لا فى خضم الميدان .

وتبسم الحسن وقال : ما زلت عطوفاً على صاحبك .

فصاح فاتك : إنه الحق يا إمام ، وقد دعوتنى للحديث فأجبت .

فرفع الحسن يديه يقول : رحم الله من أسلم وجهه للحق وهو مذعن ، ورحم الله من قاتل عن نية خالصة ، وحمية دافقة فى نصر الإسلام ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون

وأذن المغرب ، فأقيمت الصلاة !

العم الصريع

— ١ —

دخل عبد الله بن على البصرة مستخفياً ، وهو يتلفت ذات اليمين وذات الشمال حذراً من أن تقع عليه عين أحد ، وقارن بين يومه وأمسه فبكى ، لقد أتى البصرة منذ عامين وهو وال على الشام لزيارة أخويه سليمان بن على وعيسى بن على ، فأرسل من حاشينه عشرة جنود يعلنون مقدمه قبل أيام ، وأخذت المدينة زينتها لاستقباله ، فاحتشد علماؤها ورؤساؤها ، وأولو الشأن بها ، وفى مقدمتهم أخوه سليمان بن على والى البصرة ليكونوا فى طليعة المستقبلين فى مشارف البصرة ، حتى إذا اجتاز أول شارع من شوارعها دوت الزغاريد ، وصفقت الأكف وتراص الناس على الجانبين ينظرون ، وتطلعت السيدات والأوانس من النوافذ يتأملن مبتهجات ، إذ يرون موكباً لم يعهدنه .

لقد حضر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين نفسه زائراً ، فما استقباله عمه سليمان بمثل ما استقبل سليمان أخاه منذ عامين ، وها هو ذا عبد الله بن على يفد إلى البصرة خائفاً يترقب ، وتوحى إليه كل ثنية ، ويهجس خاطره فى كل منحنى بأن به من يرصده ليغتاله ! لقد كان يحارب جيش ابن أخيه أبى جعفر ، واندحر مهزوماً على يد أبى مسلم الخراسانى ، وخاف على نفسه ، ففر هارباً ، يرفعه نجد، ويخفضه وهد ، حتى جاء إلى أخويه سليمان وعيسى ، وهما لا يزالان على ولائهما لأمير المؤمنين كى يستشفعا بهما لديه ،وفى تاريخه الماضى ،وجهاده الغابر ما يشفع .

وسمع سليمان طرقات خفيفة على حجرته ، فعجب أن يجرؤ أحد على إيقاظه بعد أن أوى إلى فراشه إلا أن يطرأ حادث كبير ، فنهض قلقاً ليقول له حارسه الأمين : أخوك عبد الله خارج المنزل يطرق الباب .

غرق سليمان فى موج من التفكير ، فهو يعرف أن أخاه قد فر مهزوماً بعد أن تسبب فى إزعاج ابن أخيه أمير المؤمنين ، فهيأ له جيشاً ظل ينازله قرابة خمسة

أشهر ، حتى انتصر عليه بقيادة أبى مسلم ، ولكن بعد ما ذهبت عشرات الآلاف من أرواح المتقاتلين ، بل من جنود الخلافة ، لأن كلا المتحاربين ينوء إلى ظل أمير المؤمنين ، ماذا عسى أن يصنع معه الآن ، وليس فى طوقه أن يحميه من غريمه الأكبر أبى جعفر المنصور !!

لقد أذن لحارسه أن يفتح الباب ، كما أمر خادماً آخر أن يعجل باستدعاء عيسى بن على أخيه فى أسرع من البرق ، ليجد من رأيه ما يعينه على الاهتداء فى معالجة هذه النازلة ، وإنها لنازلة حقاً ، إذ يعلم من شراسة المنصور ما لا قبل له بفجاءاتها ، فمن الهين عليه أن يطيح بسليمان وعيسى قبل أن يطيح بعبد الله ، وله حجته الواضحة ... أليس عبد الله قد أرق عينيه شهوراً ذات عدد ؟ ثم لماذا لم يذهب أخواه لتحذيره وقد دعاهما الخليفة إلى ذلك ، فاعتذرا بأن الرجل عنيد يركب رأسه ، ولن يرجع بعد ما أعد الجيوش ، وهيأ السلاح ! وها هو ذا قد اندحر اندحاراً لا يملك معه أن ينعم بساعة من رقاد .

خرج سليمان ليستقبل أخاه ، وما مضت لحظات حتى جاء الأخ الثالث عيسى ابن على ، وكان أهدأ بالا من صاحبيه ، وأربط جأشاً ، إذ دخل باشاً يصطنع السرور باللقاء ! ويأخذ أخاه الأكبر محتضناً ، حتى إذا انتهت لحظات الترحيب لم يتمالك عبد الله أن قال : لقد لجأت إلى البصرة ، إذ سدت المنافذ أمام وجهى ، وتستطيعان الذهاب إلى أبى جعفر لتبلغاه بيعتى له بالخلافة ، وهو يعلم من أنا ؟

قال سليمان ، يعلم أنك شققت العصا ، وأرقت الدماء فى حرب طاحنة ، كلفته كثيراً من الوبال !

فرد عيسى يقول : مهلا يا سليمان ، فما جئنا لنناقش عبد الله فيما صنع ، ولكننا نلتمس المخرج .

فصاح عبد الله غاضباً يوجه الحديث إلى سليمان : كأنك لا تعلم أنى الذى وضعت أسس الخلافة ، وهيأت الأمر لبنى العباس .

ألم أنتقل فى البلاد قبل سقوط الأموية حاملا رسائل أخى إبراهيم الإمام من الحميمة إلى شيعتنا فى فارس متعرضاً لأفدح الغوائل ، ألم أحارب فى جيش عبدالله ابن معاوية العلوى حين ثار على مروان بن محمد ، ولم أترك الميدان حتى تفرق

جنوده، وأطبق عليه خصمه ، فاتجهت إلى ابن ضبارة قائد الجيش الأموى مستعملا حيلتى الواسعة لا لكى يصفح عنى ، إذ كان فى مكنتى أن أفر ، ولكن لأحمى أرواحاً كثيرة نعدها لساعة النزال .

فقال سليمان : رفقاً يا أخى ، فهذا الكلام لا يقنع أبا جعفر ، لأنه سيقول : لقد صنعت أنا أكثر مما صنع ، حملت الرسائل من الحميمة ، وتعرضت للأهوال فى سفرى إلى خراسان ، وقاتلت فى جيش عبد الله العلوى ، ولقيت من العذاب والضرب ما لم يلق عبد الله ، لأنى ثبت وفر !

هاج عبد الله صارخاً : كأنك معه ولست معى ! ولكن عيسى قد تدخل يقول : كيف نكون عليك يا عبد الله ، نحن نلتمس المخرج !

فانفجر الهائج الغاضب يستطرد : أينسى أبو جعفر أنى أنا الذى حاربت مروان بن محمد ، وهزمت جيش الشام ، وأخذت البيعة لأبى العباس السفاح ممن ؟ من جنود بنى مروان ! فلم يبق بعد ذلك معارض .

فأطرق سليمان كالمفكر ، فصاح به عبد الله : ماذا تقول فيما سمعت ؟

فقال سليمان فى حذر ، وقد انخفض صوته ، كأنه يحاذر أن يمتد ويعلو ، فيسمعه جاسوس من خدم المنزل يكون عيناً لأبى جعفر دون أن يعلم شيئاً عن خبيئته ، قال سليمان : مكثت أربع سنوات والياً على الشام فى أخصب البلاد وأرقاها ومعك الجيش والمال والعتاد ، فأغضبت الجميع ، ولو تدبرت العواقب لكنت ذا لين وحنو ، ليكونوا عدتك فى ساعة الهول ، ولكنك بطشت أسوأ بطش ، وأخذت تقتل المذنب والبرىء معاً ، وخضعت لك الجسوم لا القلوب ، فلما حانت ساعة القتال ، ظهر الخفاء ولم تجد من نصير !!

قال عبد الله فى غلظة : هأنذا أشرح طبيعتى ، لقد فطرت على الغلظة فى المواقف الحاسمة ، لأن استمالة النفوس بالعطف لا تجدى فتيلا أمام العدو ، وقد تتبعت فلول الأمويين فى سوريا لأجعل المعركة حاسمة بعد هزيمة مروان ! إن الناس يأخذون على أنى نبشت قبور بنى أمية لأحرق العظام البالية ، فكشفت بقايا معاوية ويزيد وهشام من حفائرها ، وأشعلت النار فيها ، وقد وجدت جثة هشام لا تزال بعظامها ، فأبرزتها للناس وجلدتها بالسياط حتى تمزقت ! كل ذلك فعلته لأنبئ أنصار بنى أمية فى الشام أنه لا رحمة ، وأن من يقاوم من الأحياء سيلقى أشد النكال ، وتابعت فأحضرت من عثرت عليه من أبناء بنى مروان صغاراً وكباراً فحصدتهم حصداً .

قال سليمان : لقد أعطيت بنى مروان الأمان على رءوس الأشهاد ، حتى اجتمعوا واثقين ، وأقمت الولائم ، ومددت السماط ، ثم حضر الطعام وتهيئوا لتناوله ، فناديت جنودك ، ومعهم سيوفهم الباترة ، ليحصدوهم حصداً ، والناس ينظرون ، فأين احترام العهود والمواثيق ؟

تبرم عبد الله مغيظاً وقال لسليمان : أتحاسبنى ؟ كأنك لا تعرف أن الملك جبار غشوم ! ولا عهد يحترم لعدو !

قال موسى : لا تعلن ذلك بعد الآن ، فأنا أخشى أن نذهب إلى أبى جعفر ونستشفعه فيقول : الملك جبار غشوم ، ولا عهد لمن نابذنى ، وجمع الجموع ليقتلنى ، وأخذ لنفسه البيعة .

هنا تدخل عيسى بن على ، وقال : على رسلك يا سليمان ، فأبو جعفر منا ونحن منه ، وسنحتال عليه بشتى الحيل ولا يأس !

نظر عبد الله نظرات القلق ، ثم قال : لقد كان الموت أهون من فرارى حتى أضطر إلى ما أنا فيه ، أنا أعلم مكيدة أبى مسلم لى عند المنصور ، وقد شنع على بما كان ، وبما اختلق مما لم يكن .

ابتسم عيسى ، وقال فى هدوء : اعلم يا عبد الله أن المنصور لا يطيق أبا مسلم ولا يطيقك ، كما لا يطيق من يظنه يطمح لولاية الأمر حتى من بعد موته ، أتراه سيبقى العهد لعيسى بن موسى ، وهو الآن يده اليمنى ، إنه سينتظر حتى تهدأ العاصفة وينقض العهد أمام الناس ثم يحوله إلى نجله الكبير ! إذا كنت لا تعرف أبا جعفر فأنا أدرى به منك ! لقد علمت أنه قال لبعض خواصه : لقد بعثت أبا مسلم الخراسانى لمحاربة عبد الله على بن ، وكلاهما لعين مقيت ، وأيهما انتصر فسيكفينى صاحبه ، فأتفرغ لواحد بدل أن أتفرغ لاثنين !

قال عبد الله : لقد توهمت ذلك حتى اعتقدته ، ولكن كيف لم تظهر هذه الخديعة لأبى مسلم وهو داهية جبار !!

فرد عيسى يقول : لندع أمر أبى مسلم الآن ، ولنفكر فى الذى سنصنع تجاه عبد الله !!

قال عبد الله : سأختفى فى مكان بالبصرة تعرفانه وتحددانه ، دون أن يعلم عنه أبو جعفر شيئاً ، ثم تذهبان إليه تستشفعان ، وتأخذان عليه أشد المواثيق ، فإذا صفح نهضت معكما للقائه !

أطرق عيسى كالحائر ، ثم قال فى روية : لقد طرأت لى فكرة ، هى أننا نقول إننا نحن اللذان استدعيناك ، وقد أجبت بعد تردد كبير ، نزولا عند رغبتنا بعد أن جمعت حشداً كبيراً من أهل سوريا ، واستعددت لمعركة فاصلة أخرى ، بعد مسير أبى مسلم ورحيله دون أن يستطيع القبض عليك ، إذ أن حرصنا على رأب الصدع قوى شديد ، وهنا نمهد لقبول الشفاعة ، لأن أبا جعفر لا يزال فى حيرة من أمرك بعد نجاتك ، ولا يدرى ماذا ستصنع ؟

قال عبد الله فى سرور : هذا أجمل ما سمعت ، ولكما أن تبحثا عن مأوى آمن أنتقل إليه قبل أن يبزغ نور الفجر ، ثم تذهبا معاً إلى أبى جعفر المنصور ، ولا أوصيكما ، فأنتما تدريان مكايده الخاتلات .

— ٢ —

فوجئ المنصور بعميه سليمان وعيسى يلتمسان الإذن ، فأدرك بحاسته اليقظة أنهما على علم بأمر عبد الله، وأنها لا يأتيان معاً إلا وقد حادثاه أو راسلاه ، واتفقوا جميعاً على رأى ، ولكنه كتم ما فى نفسه ، وأسرع يقول :

كنت على أن أرسل لكما ، لأنى لا أحب لعمى عبد الله أن يظل شريداً تائهاً فى البلاد ، وقد يقع فى أيدى أعدائنا ، فيشمتون به وبنا ، وعليكما أن ترسلا إليه فى أى مكان تتوقعان نزوله به ، أو فى عدة أمكنة ، فإذا أذعن وأطاع وقام بالبيعة على ملإ من الناس فى المسجد الجامع هنا ، فهذا ما يكفينى ، ولن أسيئه بشىء ، فأثره فى استتباب الأمر لبنى العباس لا ينكر ، وإذا عاقبته على ما اقترف ! فقد عاقبت نفسى !

سر الرجلان كثيراً بما سمعا ، ثم تجرأ سليمان فبدأ الحديث شاكراً لأبى جعفر سعة صدره ، وسماح نفسه ، وقال : لقد أتينا لنخبرك أن الذى كنت توده من مراسلتنا لعبد الله ، قد قمنا به منذ رجع أبو مسلم منتصراً بتأييد أمير المؤمنين ، وقد

استطعنا أن نصل رحمك ورحمه معاً ، فأصررنا على أن يجىء معتذراً بعد أن تعطيه الأمان !

فقال أبو جعفر : أمثل عبد الله عمى فى حاجة إلى أمان منى ؟ أهو من الديلم أم الترك أم البربر ؟ أهو من بنى أمية الذين أراقوا دماء بنى هاشم ، إنه أبو العباس عبد الله بن على ، عم أمير المؤمنين الراحل ، وعم أمير المؤمنين الباقى .

قال سليمان : ولكنه يريد كتابة عهد موثق حتى يتشجع ويقدم .

فرد أبو جعفر : اكتبوا ما شئتم من العهود وعلى التوقيع .

وقد رأى أبو جعفر أن يطيل الحديث فيما يسر عميه ، فقال : أنا فى حاجة إلى أبناء العباس جميعاً ، فأبو مسلم يتربص بى ومعه جيش خراسان ومن يلتف به من وراء النهر ، وأبناء على يجمعون الناس فيهرعون إليهم ، لأنهم لا يزالون أصحاب الثأر ، ثأر على وثأر الحسين ،وللقلوب تعلق بهم يقوى ولا يضعف ، بل إنى أعرف أن كثيراً ممن يلتفون حولنا الآن يودون لو استقام الأمر للعلويين ، ويعدوننا مغتصبين ، أفأواجه هذه الكوارث وحدى ، لابد أن تكونوا معى جميعاً وفى المقدمة عمى عبد الله !

فرأى الأخوان أن يستأذنا شاكرين ، وقد أعلنا أنهما سيرسلان عهد الأمان إليه ليوقعه ، وعند ذلك سيحضرون — هم الثلاثة — للقاء أمير المؤمنين ، وهم جنوده ومؤيدوه ! وانصرفا إلى البصرة ، وقد هدأت نفس أبى جعفر ، وارتقب الغد القريب .

كان عبد الله أكثر احتيالا ، وأمعن ظناً من أخويه ، فحين رجعا ليحدثاه عن شجون أبى جعفر نحو أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، قال فى نفسه : إن أبا جعفر يظهر غير ما يبطن ، وإنه يعد عمه عبد الله أكبر أعدائه ، ولكنه فكر فرأى أن لا سبيل للنجاة منه غير أن يكتب عهد الأمان ، وأن يقدم عليه كالنادم المستغفر ، ومعه عقله الذى يهديه إذا التبست الأمور .

وتساءل القوم : من سيكتب عهد الأمان ، فيحكمه إحكاماً لا شك فى توثيقه ولم يكن أمامهم غير الكاتب الداهية عبد الله بن المقنع ، وهو بعد كاتب عيسى ابن على ، وله خبرة دقيقة بكتابة العهود ، وإبرام المواثيق ، أليس هو أديب

الفرس الذى طالع عهود الأكاسرة وتملأ منها ؟ أليس هو صاحب العقل الجبار الذى يرصد هاجسات المعانى المستترة فى الأعماق فيجلوها أبرع جلاء فى مشارق الضياء ! إنه ابن المقفع ، فليحضروه .

ولأول مرة فى تاريخ ابن المقفع يغيب عنه حرصه الدقيق ، وفطنته المحاذرة ، ويغره ثناء سليمان وعيسى وعبد الله ، وتقديرهم لمكانته الأدبية وحنكته السياسية ، فيعدهم أنه سيكتب فى عهد الأمان ما لا يخطر لأحد على بال ، أجل لقد غاب عن الكاتب اللبق حرصه الدقيق ، حين أرهق أبا جعفر وأوجعه وأمضه بمثل ما تورط فيه حين قال فيما كتب ، على لسان أبى جعفر الذى سيوقع العهد ويعلنه فى الناس :

« ... وإن أنا نلت عبد الله بن على ، أو أحداً ممن قدم معه ، بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً ، سراً أو علانية ، على أية وجوه أو أسباب ، تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفى من محمد ابن على بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة (أى من سفاح) وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى ، والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى ، وإعانة من ناوعنى من الخلق ، ولا مولاة بينى وبين أحد من المسلمين ، وألقى ربى على غير دين أو شريعة ، حرام على مركبى وملبسى وملكى وأهل بيتى » .

هذا بعض ما كتب الرجل ، وقد كان فى دونه ما يكفى ، لأن المبالغة المفرطة فى مثل نفى أبى جعفر عن بنى العباس وعده من سفاح ، ووجوب الثورة عليه وخلعه ، وكفره إذا نكص بالعهد ، وتحريم زوجاته وملكه ومماليكه ، هذه المبالغة تدفع إلى الحفيظة ، لدى إنسان رقيق متسامح ، فكيف بحاكم قاس طاغية كأبى جعفر المنصور .

لقد أراد ابن المقفع أن يرضى ذئباً ، وما علم أنه سيقع فى براثن أسد هصور سيطحنه طحناً بمخالبه وبراثنه ، وهذا ما كان ، إذ قتل عبد الله أعنف قتلة ، بتدبير أبى جعفر ، فذهب ضحية إخلاصه عند قوم ، وضحية غفلته عند آخرين .

لم تنم للمنصور مقلة ليلة قدوم عمه عبد الله بن على عليه ، فهو يعلم أنه ماكر داهية ، يعتقد أن الأمر له وحده ، وأن أبا جعفر قد اغتصبه ، إذ سبق أن أعلن

أبو العباس مؤسس الدولة أن من يهزم مروان بن محمد سيكون ولى عهده ، وقد هزمه عمه على ، فأصبح صاحب الحق بما قدم من جهد شاق لا فى استئصال شأفة مروان وحده ، بل فى استئصال بنى مروان جميعاً ، ولأمر ما عدل أبو العباس عنه وجعل الولاية للمنصور ، كى يظل الحكم فى بنى أبيه لا فى بنى جده ، يعرف أبو جعفر هذه الحقيقة التى إذا أرقته مرة فقد أرقت عبد الله بن على مرات ، وليس بعد من القناعة بحيث يرضى بما دون الخلافة ، وقد سئم الكثيرون حكم أبى جعفر لكثرة ما قتل وعذب وصادر ونفى وحبس ! وقد يميلون إلى عبد الله مع علمهم ببطشه حباً فى التغيير ، واستراحة من شخص لشخص ! إن الموقف جلل ، فلا قرار على زأر من الأسد .

سهر أبو جعفر طيلة ليله ، حتى إذا أشرق الصباح وفد عمه فى ملإ من بنى العباس يتقدمهم أخواه سليمان وعيسى ، وقد قرءوا عهد المنصور ، ورأوا توقيعه ، فخفوا يشكرونه على تسامحه ، واستمع الخليفة لما قيل ، ثم رأى أن يقيم عبد الله فى منزل قريب من منزله ، وعليه حراسه وعيونه ، إلى أن تصفو النفوس فيرى رأيه .

ولكن أى رأى يراه المنصور ؟ إنه يريد أن يمهد الأمر لولده محمد المهدى من بعده ، مع أن ولى عهده الرسمى هو عيسى بن موسى الذى كان ولى عهد أبى العباس ثم أخر مرغماً ليتقدمه أبو جعفر : هو إذن أمام عقبتين لا عقبة واحدة أما أولاهما فتقرب عبد الله من إدارة الحكم ، وأما الثانية فوقوف عيسى بن موسى حائلا دون ولاية المهدى ، فلماذا لا يضرب أحدهما بالآخر ، فيهلكان !؟

ولكن كيف يتم ذلك !؟ لقد دعا أبو جعفر موسى بن عيسى ، فقال له فى مودة : إن الخلافة صائرة إليك ، ولا آمن عليك عبد الله بن على ، ونصيحتى الخالصة أن تحتال للخلاص منه ، فهو وحيد أعزل فى منزله لا يملك قوة تحميه ! وأنا ذاهب إلى مكة فى موسم الحج ، وستكون صاحب الأمر فى بغداد مدة اغترابى ، والوقت فسيح لتعمل .

فتظاهر عيسى بن موسى بالقبول ، وخرج يدبر الأمر فى نفسه ، فجعل يقول : متى كان أبو جعفر مهتماً بأمرى ، حتى يشفق من وقوف عمه فى وجهى

إنه زحزحنى عن الخلافة حين أشار على أخيه من قبل فأجابه ، وهو الآن يدبر المكيدة ليزحزحنى عنها كى يليها ولده محمد ؟ ثم خلا بمن يثق بمشورته فعرض عليه الأمر ، وكان لبقاً داهية ، فقال له محذراً : إن أبا جعفر أمرك أن تقتله ، وكان أمره سراً بينك وبينه ، حتى إذا فعلت ، جمع بنى العباس وألصق التهمة بك فيستشيطون غضباً ، ويطلبون القصاص ، ولن يكون إلا بقتلك ، وبذلك يخلص الأمر للمهدى دون منازع ما ، فعليك أن تذهب بعبد الله إلى مكان خفى لا يعلمه أحد ، فإذا سألك المنصور عنه ، فقل إنه ارتحل إلى غير عود ، وكان المنصور قلقاً ، فأرسل من مكة حافظ سره ليسأله عن خاتمة عبد الله ، فحدثه أن الأمر قد تم .

عاد أبو جعفر من حجه ، فكان أول ما صنعه أن بعث إلى سليمان بن على ، وعيسى بن على وقال لهما : لقد رجعت من الحج منيباً خاشعاً ، وأنتم أهل ، ولابد أن أطلق أخاكما عبد الله ! لأن المقدرة تذهب الحفيظة ، ثم نادى عيسى بن موسى فى جمع من بنى العباس ! وقال : كنت دفعت إليك عمى وعمك عبد الله بن على ليكون فى منزلك ، وقد كلمنى عمومتك فيه ، وتشفعوا ، فصفحت عنه ، فأتنا به .

فتظاهر عيسى بالدهشة وقال : ما هذا يا أمير المؤمنين ، أناشدك الله ، ألم تأمرنى بقتله .

فصرخ أبو جعفر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لم آمرك بهذا .

قال عيسى : بل أمرتنى .

فاصطنع أبو جعفر الغضب وقال : ما أمرتك إلا بحبسه ، وقد كذبت على ، وغدرت بعمى لحاجة فى نفسك ، ثم التفت إلى سليمان وعيسى وقال فى حدة : لقد أقر هذا بقتل أخيكم ، فإن شئتم القصاص فهو حكم الله !

وهاج القوم ، وسيق عيسى بن موسى فى قبضتهم ليكون الانتقام علنياً ، وهم أحدهما بتقديمه للسيف ، حيث الجلاد معهم ، فقال عيسى : أتريدون قتلى ؟ قالوا : نعم ، قال : فردونى إلى أمير المؤمنين قبل مصرعى ، فانطلقوا به إلى المنصور ، فصاح عيسى فى غضب : عمك حى عندى يا أمير المؤمنين ، وقد أردت بقتلى إياه ، أن تقتلنى به !

فقال المنصور مرتبكاً : إذن فأحضره .

فذهب عيسى فى ركب من بنى العباس ، فأحضر عبد الله ، وواجه المنصور فكتم غيظه ، وقال : لا تصدقه يا عم ، فهو كذوب ، لقد هيأت لك منزلا خاصاً بك ، ولا تكلمه بعد الآن أنت وأخواك .

قال الراوى : وكان المنصور قد بنى بيتاً جعل أساسه من الملح — وتلك من مبتكراته الفريدة — فلما أقام به عبد الله ، أجرى الماء من أساسه ، فذاب الملح ، وسقط المنزل فجأة ، ومات علىّ ! !

أبو جعفر يحج

شخص أبو جعفر المنصور إلى مكة حاجاً ، ومضى ركبه يخب فى الطريق ، وفى مقدمته من يقول : ركب أمير المؤمنين أبى جعفر ، فيسرع الناس هاربين ، وكأنهم أمام نار متأججة تهم بالاندلاع فى شتى الجهات ، لقد نظر الخليفة إلى هؤلاء فأخذته غاشية من الوجد ، وجعل يسائل نفسه : ماذا أفدت من خلافتى ورئاستى ولا أحد يود أن يرانى ، لقد كان مما أهفو إليه أن أرزق محبة الناس ، فيتحدثوا عنى كما يتحدثون عن أبى بكر وعمر وعلى وعمر بن عبد العزيز ، ولكنى أسهر الليل فى تدبير الأمور ، وأقضى النهار فى شئون الحكم ، ولا آكل غير ما يأكله الناس ، ولا ألبس غير ما يلبسون ، بل فى الكثرة من المسلمين من يتذوق طعاماً لا أتذوقه ، ويفخر بملبس لا أرتديه ! ثم أجدنى بعد ذلك مصدر فزع لمن ألقاه! ماذا كسبت من الخلافة إذن ؟

ثم أطرق إلى الأرض يعرض ذكرياته منذ نشأ بالحميمة فى ديار الشام ، إلى يومه الراهن ، فتذكر كيف لقى السجن والعذاب فى عهد بنى أمية ، إذ اتهمه حبيب بن المهلب ثم أوجعه ضرباً ، ثم اتهمه ولده سليمان فجلده بالسياط وحبسه ، حتى إذا قامت الدولة العباسية لم يجد فى ظلها قليلا من الأمن ، لقد تعددت الثورات من الأقارب والأباعد معاً ، فما مضى عام دون أن يرتاح بنبأ مفزع يهيئ له العدد ويسوق الجيوش ، لقد نازل بنى أمية من أعدائه ، ثم نازل عمه عبد الله ، وأبناء عمومته من العلوية ، فى معارك يشيب لها الولدان ، ونازل أبا مسلم وأتباعه الذين ثاروا لمصرعه ، وتتابعت الثورات شرقاً وغرباً ، فما استطاع النهوض لها إلا بالسهر والعرق والاحتيال ؛ وبعد ذلك كله لا يهنأ بإمارة المؤمنين ، بل يكون فى نظر الأكثرية أسداً كاسراً يتحفز للوثوب ، فهم يهربون منه مخافة شره ، ولو أمكنهم أن يصرعوه لفعلوا ، حتى حاشية الخليفة ، تطيعه لنفعها الخاص ، وتدور فى فلكه ، لا يجد فيها النصيح المشفق ، بل المتملق المداهن : أى حياة هذه ؟ وما مكسبه مما هو فيه !

ثم وصل الركب إلى مكة ، فنزل الخليفة حيث تعود أن ينزل ، ونهض إلى طواف القدوم ، وكان البيت مزدحماً بالناس ، جاءوا من كل فج عميق ، ليقضوا مناسكهم ، ويفيضوا من حيث أفاض الناس ، فلما علموا بمقدمه هرولوا مسرعين وخلا البيت فجأة من قاصديه ، كأنهم توقعوا صاعقة تنزل عليهم فأسلموا أنفسهم للفرار ، لماذا هرول هؤلاء ؟ لقد سمعوا عنه ما يفزع ويروع ، وعرفوا من حاشيته ما يهول من الوقيعة والافتراء ، فآثروا السلامة ، ونكصوا مدبرين !

تابع الخليفة وجومه ، وأدى مناسك اليوم الأول فى ضيق ، وتظاهر بالنشاط ، فقابل عاية الناس من الولاة والعمال ، وأمر ونهى ، وصلب ولان ، وحاسب ، وغاضب ، وأسر وأعلن ، ثم انتهى اليوم ، فرجع إلى مقره لينام بعد أن صلى العشاء الأخيرة ، ولكن هل نام أبو جعفر حقاً ؟

إن شجونه التى أرسلت سحابتها أمام عينيه طيلة يومه ، كرت عليه فى مخدعه ثانية ، وكان أقسى ما يعالج من الشجن حين أخذ يتساءل بينه وبين نفسه ، لماذا هرب الناس منى وتركوا الطواف !

تعاصى النوم على أبى جعفر ، فدعا الربيع بن يونس وزيره ، ولم يشأ أن يفضى له بما يختمر فى نفسه ، ولكنه قال : يا ربيع ، عنّ لى أن أزور معك البيت متخفياً ، نلبس ملابس العامة ، ونرى الأفواج دون حذر .

قال الربيع : وماذا سترى يا أمير المؤمنين ؟ موج يموج فى موج ، وحشود تضج بالتلبية والتهليل .

قال المنصور : هيا ، فلا مجال للاعتراض .

وتنكر الرجلان فى أسرع من لمح الطرف ، وانطلقا تحت ستار الليل ، وجلس المنصور غير بعيد من الكعبة يرى اللج المتراكب ، ولكنه دهش حين صاح صائح : الإمام سفيان الثورى ، الإمام سفيان الثورى !

فوقفت الجموع ، وانفسح الطريق فرقتين ، وأقبل سفيان المهيب يطوف مستأنياً والقوم يرمقونه خاشعين ، حتى إذا انتهى من طوافه تدفق الموج كما كان .

ونظر أبو جعفر للربيع متعجباً ! ثم قال : أى مقدرة للثورى جعلت الشامى والمصرى والعراقى والحجازى واليمنى والخراسانى ، وكل من جمع الحرم ،

يفسحون له الطريق مرحبين ، لقد جئنا للطواف فذعر الناس وتفرقوا، وما شعرت أن طائفاً من القوم يريد أن يتطلع إلىّ .

قال الربيع : وماذا يهمك من هؤلاء ! سوقة وذيول .. فضربه أبو جعفر بقبضة يده على كفه سائلا : ومن نحكم غير هؤلاء !؟ أجب يا ربيع .

فوجم الربيع مأخوذاً ، فصاح به المنصور : لم لا تنطق ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن العالم المحدث من أمثال سفيان ، يذكر الناس بالأنبياء ، لأن العلماء ورثة النبوة ، وقد طاف الأوزاعى اليوم فقوبل بمثل ما قوبل به سفيان ، بل إن سفيان كان يتقدمه قائلا : الإمام ، الإمام ! وقد سمعت بأذنى جماعة تتحدث فى سرور : رأينا سفيان والأوزاعى وعمرو بن عبيد نجوم السماء .

قال أبو جعفر : وهل حج عمرو بن عبيد هذا العام ؟

قال الربيع : جاءتنى الأنباء بأن هذا العام موسم الفقهاء والعلماء ، حيث يحج أبو ذؤيب ومالك بن أنس والأوزاعى وأبو حنيفة وعمرو بن عبيد ! وكلهم عند العامة من أئمة الإسلام .

قال أبو جعفر : وعندى أيضاً ، وسأعمل على لقائهم واحداً واحداً، فقد أجد لديهم غير ما أجد لديكم ، ومن الغد إن شاء الله، فاعمل على إحضارهم من الساعة .

ولم تغمض للمنصور عين فى هذه الليلة ، فقد رجع بذاكرته إلى عهد الصبا حين كان يهيئ نفسه كى يكون عالماً دينياً كبيراً ، ألم يجلس أمام الزهرى وعطاء ابن يسار ومنصور بن عمار لتلقى العلم ، ألم يكن من زملائه التلاميذ إذ ذاك : عمرو ابن عبيد وسفيان الثورى والأوزاعى ومالك بن أنس وسليمان الخواص ، ثم هاهى ذى الأيام تتوالى ، ويصبح أمير المؤمنين بعد هول هائل فى الجهاد والتآمر وإشعال الحروب ، وقد ظن أنه تبوأ المنازل العليا فى النفوس ، ولكن الواقع لا ينبئ عن أى منزلة حقيقية ، منزلة تحيطها القلوب ، وتفديها الأرواح ، لا منزلة رسمية تظهر المودة خوفاً ، وتخفى البغضاء سخطاً ، أما زملاؤه فى حلقات العلم فقد تبوءوا تلك المنزلة التى رامها ، فحفت بهم القلوب ، ونبضت بحبهم المشاعر ، وتطلعت نحوهم الأحاسيس ، ولم يكابدوا هول التآمر ، ولم يصطلوا بجحيم الحروب ، فمن الكاسب إذن ، هو أمهم ؟ لو ملك من أمره ما مضى لما آثر لنفسه هذا الملك المزعج

الذى يضطر إلى حمايته بالسهر والشك والحرص وسوء الظن ، ولصبر على تلقى دروس الحديث والفقه ليصبح إمام الناس عن مودة ، لا أمير المؤمنين عن قهر واستبداد .

هكذا جعلت هذه الخواطر تدور فى نفس أبى جعفر المنصور حتى أذن الفجر ونهض للصلاة .

ثم نادى الربيع بن يونس ، فقال له : ماذ صنعت ؟

فرد الربيع يقول : لقد أوفدت من طلب القوم إلى الحضور اليوم ، وسيكونون لديك عند الضحى ، وما أدرى ما سيكون دورى معهم .

فأجاب المنصور : يا ربيع ، هؤلاء علية الناس ، وإن لم يكونوا عندى بمنزلة سواء ، فأنا أرعى حقوق زملائى فى الطلب : عمرو بن عبيد ، وسفيان الثورى ، ومالك ابن أنس ، والأوزاعى ، وهؤلاء يدخلون إلى فور حضورهم الواحد بعد الآخر ، أما أبو حنيفة وأبو ذؤيب فأنا أعرف مكانتهما العلمية ، ولكن لا أحمل لهما من المودة ما أحمل لهؤلاء ، فافهم ذلك جيداً .

ثم طلب المنصور ما وفد إليه من الرسائل ، وما ارتفع من الشكايات ، وماتأدى لعيونه من الأخبار ، فجعل ينظر فى ذلك كله غير منتظر ، ليفرغ للقاء الأئمة ، حتى إذا ارتفع الضحى توافد الشيوخ ، وكان أسبقهم عمرو بن عبيد ، فسارع الربيع ابن يونس بإدخاله فى أدب ، ونهض المنصور من مجلسه ليعانقه والوزير متحير دهش ، إذ لا عهد له بنهوض الخليفة لزائر من كرام بيته ، وذى رحمة فماله ينهض ويحتفل ؟

لقد بدأ أبو جعفر فسأل عن أبناء عمرو ، سماهم واحداً واحداً ، كأن مقارعة الأحداث لم تنسه أسرة صديقه القديم وقد شطت بينهما الأيام ، فأجاب عمرو فى غير تكلف ولا احتمال ، فتخاشع المنصور وقال لصاحبه : عظنى يا أبا عثمان .

فقال عمرو : بسم الله الرحمن الرحيم : « والفجر ۞ وليال عشر ۞ والشفع والوتر ۞ والليل إذا يسر ۞ هل فى ذلك قسم لذى حجر ۞ ألم تركيف فعل ربك بعاد ۞ إرم ذات العماد ۞ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ۞ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ۞ وفرعون ذى الأوتاد ۞ الذين طغوا فى البلاد ۞ فأكثروا فيها الفساد ۞ فصب عليهم ربك سوط عذاب ۞ إن ربك لبالمرصاد » .

وكان صوت أبى عثمان معبراً يفسر معانى الكلمات بارتفاعه وانخفاضه ، فتأثر أبو جعفر ، وتساقطت دموعه ، كأنه لم يسمع آيات الفجر إلا من فم عمرو بن عبيد ، ثم قال : زدنى أبا عثمان .

فانطلق عمرو يقول : (إن الله أعطاك الدنيا بأثرها فاشتر منه نفسك ببعضها ، واعلم أن هـذا الأمر الذى صار إليك إنما كان فى يد غيرك ثم أفضى إليك ، وسيخرج منك إلى من يأتى بعدك ، وإنى أحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة) ، فارتاع المنصور وجعل يبكى .

هنا تدخل الربيع بن يونس[1] فصاح : رفقاً بأمير المؤمنين ، فقد أتعبته يا أبا عثمان منذ دخلت .

فرفع عمرو رأسه وقال : من أنت ؟ فقال أبو جعفر : هذا أخوك الربيع بن يونس ، فقال أبو عثمان : هذا أخو الشيطان ، ويلك ياربيع ، خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ، ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته .

ثم اتجه إلى أبى جعفر يقول له : (يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سلماً لأهوائهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ، فاتق الله فإنك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ، ومبعوث وحدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئاً) .

فسكت المنصور قليلا ثم سأل : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟

قال : نعم ، قال : ماهى ، قال : لا تبعث إلى حتى آتيك ، قال : إذن لانلتقى ، قال : عن حاجتى سألتنى فأجبت ، ثم نهض مودعاً ، فلما ولى أتبعه المنصور بصره وكأنه يستبقيه .

قال المنصور للربيع : أرأيت ؟ فقال الربيع : عجباً ، لم يسأل لنفسه شيئاً وقد عرضت ! فرد الخليفة : من يدلى بهذه النصائح يا ابن يونس لايسأل أحداً إلا الله .

ثم سأل : ومن أتى بعد أبى عثمان ؟ فقيل : الأوزاعى ، فعجل المنصور يقول : أدخلوه ..

(١) فى بعض الروايات أن الذى حضر اللقاء سليمان بن مجالد ، وهو الذى أجاب ابن عبيد .

وما كاد الأوزاعى يقدم حتى نهض المنصور لاستقباله ، فعانقه وأجلسه جواره ، ثم قال له : ما الذى أبطأ بك عنى يا أوزاعى ؟ فقال : وماذا تريد منى يا أمير المؤمنين ؟

فرد المنصور : أريد الأخذ عنك .

فقال الأوزاعى : أنت تعلم ما أعلم ، فهل عملت بما علمت ؟

قال : ولكنى أريد أن أسمع منك !

فاعتدل الأوزاعى ، وطفق يقول : إنك يا أمير المؤمنين لحقيق عند الناس أن تقوم فيهم بالحق ، لا تغلق دونهم الأبواب ، ولا تقم عليك دونهم الحجاب ، بل تبتهج بالنعمة عندهم ، وتبتئس لما أصابهم !

يا أمير المؤمنين ، لقد صرت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس ، فلكل نصيبه من عدلك ، فكيف إذا اتبعك منهم جماعة خلف جماعة ليس فيهم أحد إلا وهو يشكو بلية أو ظلامة ، لقد كان عمر بن الخطاب يقول : لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات لخشيت أن أسأل عنها ، فكيف بمن حرم العدل وهو على بساطك ؟

ثم اعلم يا أمير المؤمنين لو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأهلك الناس ريحه ، فكيف بمن تقمصه ؟ ولو أن دلواً من صديد أهل النار صب على ماء الدنيا لجعله يغلى ناراً ، فكيف بمن تجرعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته ، فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ؟

فأطرق المنصور ذاهلا ، ثم سأل : ألك حاجة يا أوزاعى ؟

قال : حاجتى أن تعدل بين الناس ، ونهض .

قال الربيع : أفلا تكتفى بهذين يا أمير المؤمنين ؟

فصاح به : ألم أقل لك هذا يوم العلماء ، هيا إذن !

تطامن الربيع وقال فى خشوع : الكلام متشابه يا أمير المؤمنين وما قاله عمرو قاله الأوزاعى مضموناً لا لفظاً ، وربما قاله مالك وأبو حنيفة وأبو ذؤيب وسفيان ، فما الجدوى ؟

فسكت المنصور ليقول : لن أطلب وعظاً بعد هذين ، وسأسأل فى أمور أخرى كيلا يتشابه الحديث ، انظر من بالباب وأدخله .

فأقبل مالك بن أنس ، فقام المنصور مسلماً ، وقال فى صوت ممتلئ : يامالك ، والله الذى لا إله إلا هو يا أبا عبد الله ما كان لى رأى فى ضربك بالمدينة يوم محمد ابن عبد الله ، ولعن الله جعفر بن سليمان فقد أتى ما استنكرته ، يا أبا عبد الله مايزال أهل الحرمين بخير ما دمت بين أظهرهم ، وأنت أمان لهم من عذاب الله وسطوته ، وإنهم أسرع الناس إلى الفتن ، وأضعفهم عنها ، وقد أمرت بجعفر بن سليمان أن يؤتى إلى مكرهاً ممتهناً لأعاقبه عقاباً شديداً ، جزاء ما صنع بك .

قال مالك : عافى الله أمير المؤمنين ، وأكرم مثواه ، لقد عفوت عنه ، لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم منك !

قال أبو جعفر : وأنت فعفا الله عنك .

قال مالك : ثم تناقشا فى حديث العلم والعلماء ، فلم أجد المنصور قد نسى شيئاً مما ألم به فى مجالس الطلب بالكوفة حتى بهرنى ، ثم قال فى نصح : يا أبا عبد الله ، لاأجد لهذا العلم سواك ، فدون فيه كتاباً ، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ ابن مسعود ، واقصد إلى وسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضوان الله عليهم ، لتحمل الناس على كتبك ونبثها فى الأمصار ، ونعهد إليهم ألا يخالفوها ، ولا يقضوا بسواها .

فقلت فى تؤدة : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل العراق لا يرضون قولنا ، ولا يرون فى علمهم رأينا .

فرد أبو جعفر : إنما يحملون عليه ، ونضرب هاماتهم بالسيف ، ونقطع طى ظهورهم بالسياط ، فتعجل بما أشرت يا مالك .

فرد الإمام يقول : أرى أن الأصول متفق عليها ، ولا اختلاف فيها ، والفروع اجتهاد لا يلزم أحداً ما دام لديه دليله ، وسأكتب الكتاب ليقرأه الناس ، ولكن دون إلزام ، فمن خالف فلديه دليله ، وبالله السداد .

قال أمير المؤمنين : وبماذا تسمى كتابك ؟

قال أسميه (الموطأ) إن شاء الله .

فهش أبو جعفر ، وأمر لمالك بكسوة وبألف دينار ذهباً ، ولابنه بألف ، وخرج مبجلا مهيباً .

قال الربيع لأبى جعفر : ما أراك صنعت لأحد ما صنعت لعالم المدينة .

فصاح المنصور : ليس من شأنك ، هذا فقيه الإسلام اليوم ، ثم أمر بإحضار من بقى من العلماء جميعاً ، فى مجلس واحد !

فحضر أبو ذؤيب وأبو حنيفة وسفيان ! فقابلهم الخليفة فى تحفظ ، ولم تنفرج أساريره على نحو ما كان مع مالك ، ثم اتجه إلى سفيان الثورى فقال له : ألك حاجة يا سفيان ؟

فرد الثورى فى شمم : حاجتى أن أسألك عما تصنع بمال الله وأموال المسلمين ، وقد أنفق عمر بن الخطاب فى حجة له ستة عشر ديناراً هو ومن معه ، ثم التفت إلى أصحابه وقال : لقد أجحفنا بيت المال ، فكم أنفقت فى حجتك هذه ؟

فبادر أبو جعفر يقول : تعلم أنت يا سفيان أن الزمن غير الزمن ، ويعلم الناس جميعاً أننى ضنين ضنين شحيح !

قال سفيان : ضنين جداً على الناس ، وأولى أن يأخذوا من خير الله ، وإذا ضننت فإلى من يلجئون ؟

اذكر يا أمير المؤمنين أنك كنت معى فى مجلس منصور بن عمار ، وقد حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رب متخوص فى مال الله كما شاءت نفسه ، له النار غداً .

قال أبو جعفر : كفى ما ذكرت ، أولك حاجة ؟

فهتف سفيان : كلا يا أمير المؤمنين .

فقال له : إذن فانهض راشداً .

فخرج سفيان واتجه أبو جعفر إلى أبى حنيفة فقال له : لماذا رفضت القضاء يا شيخ ؟

قال أبو حنيفة فى جرأة : لو علمت أن حكمى عليك سيطبق ما تأخرت ؟

قال : ومن أدراك أنى أخالف حكم الله ؟

قال أبو حنيفة : عمالك فى البلاد يخالفونه ، وتعلم ذلك ، ولا تصنع شيئاً !

قال أبو جعفر : لقد خرجت مع أهل المدينة يوم محمد ، وكانوا قد عقدوا لى المواثيق أن يلتزموا السكينة ، فإذا خرجوا علىّ فلى أن أقتلهم وأبيدهم ؟ وقد نقضوا العهد أفلا يحل لى أن أقتلهم كما تعاهدوا ؟ قل ياشيخ !

قال أبو حنيفة : لايحل لك ، فقد أعطوك ما لا يملكون، أرأيت لو أن امرأة أعطت نفسها لرجل دون شاهدى زواج ، أفيحل لها ؟

قال أبو جعفر : لا يحل الزواج دون شاهدين .

قال أبو حنيفة : هذه من تلك !

فعبس أبو جعفر وقال : انصرف ياشيخ فأنت تتعبنا بقياسك !

فخرج الإمام مرفوع الرأس .

وبقى أبو ذؤيب ، فقال له : لم يبق غيرك ، وقد أبقيتك وحدك لتقول فى صراحتك التى أعهدها فيك أيام الطلب ، أى الرجال أنا ؟

قال أبو ذؤيب : السكوت آثر يا أمير المؤمنين .

فرد الخليفة : ناشدتك الله أن تقول .

فقال أبو ذؤيب : أما إذا ناشدتنى الله ، فأنا أكل أمرى إليه حين أصرح أنك قد استأثرت بمال الله ورسوله ، وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وأهلكت الضعيف وأتعبت القوى .

قال أبو جعفر : أو ما ترانى أسعى فى إعزاز الدين وحماية الإسلام ؟

فرد أبو ذؤيب : هو ما سمعت يا أمير المؤمنين ، فقد ناشدتنى الله ، وحرام أن أكذب عليه ، والملتقى قريب !

قال أبو جعفر : انصرف إلى بلدك راشداً مهدياً ، فلا تثريب عليك ، فخرج آخر الثلاثة أبو ذؤيب !

واتجه أبو جعفر إلى الربيع ، فقال : أرأيت كيف عظمت مكانة هؤلاء لدى الناس يا ربيع ؟

لقد ترفعوا عنا ، وفيهم من خرج لقتالنا ، ومن لم يخف الموت فجابهنا فى غلظة ، أتستكثر عليهم بعد ذلك أن يستقبلوا عند الطواف استقبال الأنبياء والمرسلين !

دولة الأدارسة

جلس إدريس بن عبد الله بن الحسين حزيناً يقاب كفه ، بعد أن انتهت معركة (فخ) بهزيمة العلويين ، لقد حشدوا كل جهودهم ، وبذل أخوه الحسين بن الحسن أقصى ما يبذل إنسان ليبلغ النصر ، فاستشهد دون أن يتحقق ما يأمل ، وتفرق جيشه أباديد ، دون طائل ، ففيم كانت هذه الحروب المتتابعة من لدن شهيدها الأكبر الحسين بن على ، وقد تتابع من بعده زيد بن على والنفس الزكية ، وإبراهيم أخوه ، والحسين بن الحسن ، وكلهم قاد الجيوش مستبسلا ، وتدافعت خلفه الجموع ، وانتصرت القوة الحاكمة ، بما أعطت من مال ، وأعزت بمنصب ، وخدعت بعهود .

قال راشد لإدريس : الناس عبيد المال ياسيدى، ولئن هزم الحسين بن على ، وزيد بن على فى عهد الأموية ، فإن هزيمة أخيك النفس الزكية ومن تلاه فى عهد العباسية لهى أوجع وأنكى ، لأن الأرحام تقطعت ، وتنكر الدم للدم ، ! وأحب أن أقول رأياً وأخشى أن تضيق به .

قال إدريس : أنا أعلم صدق شعورك وإخلاص عاطفتك ، وكنت أضيق بمن يظهرون الود ، ويضمرون السوء ، فيعارضون أهل البيت ، وكأنهم يشتمون ، ويظهرون البكاء ، وقلوبهم تبتسم ضاحكة ، أما أنت ياراشد فقل ما تشاء !

هنا حدّق راشد فى وجه صاحبه كثيراً ، ثم قال : المال المال يا سيدى ، لم تنقص محمداً ذا النفس الزكية العزيمة ، ولم يعوزه الاستبسال حتى استشهد ، وكذلك أخواك إبراهيم والحسين ، فقد خرجوا فى عدة وعدد ، ولكن أبا جعفر المنصور فرق المال على بخله ، ففعل ما فعل فى نفوس غرها بريق الذهب الخداع .

قال الحسين : أتعنى أن شيعتنا بالمدينة والكوفة والبصرة لم يكونوا صادقين وهم أهل حمية وولاء .

فأجاب راشد يقول : ليس الأمر أمر الشيعة ، ولكنه أمر من اندس بينهم من عيون العباسيين ، فتظاهر بالحمية ، واستمال صحبك بالخديعة ، على أنه منهم وليس من خصومهم ، وأخذ يثير الشكوك ، ويدعو إلى الهرب ، ثم هو فى الوقت نفسه ينقل الأسرار ، ويذيع الخطط ، والدولة العباسية من ورائه تمده بالذهب ، ليجذب الضعفاء ، وسلاحها الحربى وافر إذا قيس بسلاح شيعتنا ، ثم لاتنسى أن الانتصار المتوالى يبعث على الثقة ، والهزيمة المتتالية تدعو إلى التشاؤم وقد تدعو إلى اليأس !

تأوه إدريس تأوبهة المتحسر ، وقال فى أسف : كأن الأمر قد خرج من أيدينا إلى الأبد ، ونحن أهله وذووه !

قال راشد : لقد فكرت طويلا يا سيدى ، ثم اهتديت إلى رأى أعتقد أنه سيكون باب النجاح ، وأقول أعتقد ولا أقول أظن .

فرد إدريس يقول : إذا اعتقدت بدون شك ، فقد فكرت طويلا ، حتى أحكمت الخطة كعهدى بك !

— أجل يا سيدى ، وسأفصح ، ولكن بعد أن نصلى العشاء ، ونلجأ إلى مكمننا بالمدينة فقد تكون للحيطان آذان .

وكانت الصلاة قد حانت ، فتوضأ الرجلان ، وإدريس حائر دهش يفكر فى اقتراح راشد الذى يسوقه عن اعتقاد ، وراشد يطيل التفكير فيما سيعرض من أمر ، وكيف يصل إلى مراده من أقرب طريق ، حتى إذا سمعا الأذان وأديا الفريضة تسللا إلى بيتهما المنعزل فى أطراف المدينة ، وفى نفسيهما خواطر تضطرب وآمال تلوح .

قال راشد : سيدى ، لن تفلح حرب يشنها العلويون بالمدينة أومكة أو البصرة أو الكوفة ، لأن الخلافة تبسط سلطانها على الناس فى الشرق ، ولقد فر عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، فجمع الناس حوله ، ونهضت الأموية فى الغرب بعد أن انتكست فى الشرق ، وليس للأموية فى قلوب الناس ما لأهل بيت رسول الله من الحب الخالص والود المكين ، بل كانت بغيضة كريهة ، تحكم الناس بالخديعة

والبطش ، ومع ذلك فقد نجح عبد الرحمن ، ولم يستطع المنصور أن يصنع شيئاً معه لبعد مستقره ، وقد سماه صقر قريش ، اعترافاً منه بعظمة خصمه ، أفلو كان عبد الرحمن الداخل قد جمع الجموع فى الشام أو البصرة أو مكة ، وتقدم لمنازلة المنصور ، أفيبلغ غير الهزيمة الماحقة ، والخذلان المريع .

حدّق إدريس بعينه ، كمن أخذته مفاجأة على غير انتظار ، ثم قال فى حيرة تأخذ عليه أقطاره : لقد رحل عبد الرحمن إلى الأندلس فماذا بقى أمامنا ؟ أنذهب إلى خراسان ، وهى الآن مسلحة لأبى جعفر بعد مصرع أبى مسلم ، وقد اختار لها أعتى القواد وأقام بها الحصون ، ثم ماذا بقى معنا من المال لنبذله فى شراء السلاح ، وجمع الأنصار فى البلد البعيد !

لم يدع راشد الفرصة تضيع منه فقال : أى مال ياسيدى ! لقد حل عبد الرحمن وليس معه غير خادمه بدر ، وكفه صفر من المال والذخيرة ، ثم أقام دولة فتية ناهضة رأسها عن كفاءة قادرة ، وتخطيط مرسوم ! أما المكان فهو المغرب ، حيث يبعد عن العباسيين فلا يستطيعون الذهاب فييأسون ؟ ومن يدرى ؟ فلعلك إذا وافقت ، وذهبت معك ، تجد من الطاعة والانجذاب أضعاف ما وجده عبد الرحمن ، وكيف لا تجد وأنت حفيد رسول الله !

قال إدريس : سأفكر قليلا ، فدعنى أتأمل .

ولكن راشداً قد أخذ عليه الطريق حين قال : ياسيدى نحن بين اتجاهين ، إما أن نبقى بالمدينة ، فلا نصر ، لأننا محاصرون بعيون الخليفة ، وها أنت ذا ترى عاملها الحقود يسب العلويين علناً ، ويختلق عليهم المثالب ، ويرميهم بأشنع ما يقوله مجرم أثيم ، تثبيتاً لأمره ، وإرضاء للهادى ببغداد ، وله عيون تأتى إليك ، وكأنها تواسيك ، ولكنها تبث بذور اليأس ، وتجلب دواعى الرعب والفزع ، وإذن فلا أمل لعلوى هنا ، أما الاحتمال الثانى فنحن قد نفوز بأربنا فى المغرب ، فنبلغ ما نريد ونشفى صدورنا ، وقد نخفق ، فنتراجع فى صمت دون أن نخسر شيئاً ! البقاء فى المدينة خذلان مؤكد ، والسفر إلى المغرب نصر محتمل ؟ فأيهما يروق !

قال إدريس : أمامى الليل الطويل ، وسأقطع برأى حاسم قبل أن ينبلج نور الصباح ، فإلى الرقاد !

لم ينم إدريس ليلته ، فقد كان يتقلب على مثل الجمر من هواجسه المتضاربة ، وكان أمامه شبحان لايبرحان عينيه ، شبح الهادى خليفة المسلمين ببغداد ، وقد تمت له السيطرة ، فما يستطيع أحد أن يقوم فى وجهه ، وشبح عبد الرحمن الداخل حين فر من الهول إلى الأندلس ، فاستطاع أن ينشىء مملكة ، بل استطاع أن يقيم خلافة ، ولكنه لم يقبل أن يحمل اللقب ، كيلا يجلب عليه شراً لا سبيل إلى إطفائه ، وهو فى أول الطريق ، ثم سمع صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر دون أن ينعم بمهجع ، وقد خف الناس للصلاة بالمسجد ، ولم يجد من نفسه عزماً على رؤية أحد ، فآثر الصلاة بمنزله !

وعجب راشد حين لم ير إدريس فى المسجد الجامع كما تعود أن يراه ، فظنه قد سهر طويلا يفكر ، حتى إذا قرب الفجر أنهكه التفكير ، فاستسلم إلى نوم لم يسمع به صوت المؤذن ، وهو معذور لما عانى من أمر ، وما واجه من احتمالات ، ولم يشأ أن يذهب إليه بعد الصلاة مباشرة ، ولكنه آثر أن ينتظر حتى الصباح !

على أن إدريس كان يرتقب عودة صاحبه إليه ، وهو على أحر من الجمر قلقاً ، وقد توقع مجيئه بعد انتهاء الصلاة ، فلما أبطأ عنه ، تقلب فى حيرة ، وجعل يسأل نفسه : أرجع راشد عن اقتراحه ؟ أبدا له ما جعل يرجح الانتظار دون تعجل ؟ وأى شىء بدا له ؟ وهو الذى فكر وخطط ودرس ؟

ثم التقى الصاحبان ، ليعلن إدريس أنه صمم وعزم ، ولكن كيف تتم الرحلة ومتى ؟

فقال راشد : أنت محاصر ياسيدى ، وللهادى عيون ترصد اتجاهك ، وأرى أن نتلاقى فى المساء ، لنبدأ المسيرة ، وسأحضر لك ثياباً مهلهلة ترتديها ، على أن تغير اليوم من مظهرك ، فتحلق لحيتك ، وتدع عباءتك وعمامتك ، ظاهراً بمرأى الخدم ، كيلا يعرفك أحد إذا تعرضت فى الطريق لعين من عيون الهادى ، أما أنا فسأرتدى أفخم لباس ، وأغير من شأنى ، فأسوى عمامة كبيرة على رأسى ، وأرجل لحيتى ، وأضع المسبحة فى يدى ، وتسير أنت ورائى ، فيظن الناس أنى السيد المطاع وأنك تابع لى ، ومتى بدوت فى مظهر التابع المملوك ، فلن يظن

أحد أنك إدريس بن عبد الله ؟ حتى ولو تفرّس فيك من يعرفك ، فسيباعد مظهرك المتواضع بينك وبين حقيقتك .

قال إدريس : حياك الله وأكرمك يا راشد ، لقد وافقت على رأيك ، ولكن بعد تعديل يسير ! إن خروجنا معاً من المدينة ، وانتقالنا بالليل فى صحبة متحدة وحيدين قد يؤديان إلى أن نعرف ونتعقب ، والأسلم أن أخرج أنا وحدى فى هيئة الخادم المحتاج فأقطع الطريق تابعاً لإحدى القوافل المنصرفة من زيارة المدينة بعد تمام الحج إلى بلاد الشام ، وسأكون من اليقظة بحيث لا أنطق بغير ما ينطق به عربى يسكن البادية ، وقد جاء المدينة زائراً ، ثم هم بالرجوع إلى بادية الشام ، هذا ما رأيت أن أقوم به ، أما أنت يا راشد فلا خطر من ارتحالك مصبحاً أو ممسياً ، فابحث لك عن وجه يأتى بك إلى الشام ، وسيكون المسجد الأموى بدمشق موضع لقائنا ، فلست أعلم فى دمشق أحداً يعرف سحنتى ! وسأحرص على أن أصلى العشاء خلف الإمام كل ليلة ، فإذا تمت رحلتك على أى وجه تراه ، فاجعل من شأنك أن تصلى العشاء فى المسجد الأموى ليلة أن تحضر ، ومتى تم اللقاء فسنرحل إلى مصر فى يقظة مماثلة أيضاً ، سنرحل مجتمعين على الهيئة التى وصفت ، وأرجو أن يجرى الأمر كما نريد ، وهل فى وسعنا إلا أن نرسم ونخطط ، أما التوفيق فمن شأن السماء ، على أنى سأعجل المسير من الليلة ، ونحن فى موسم رحيل القوافل النازحة من المدينة بعد أن أدت فريضة الحج بمكة .

ابتهج راشد بما سمع ، وقال لإدريس : وسأرحل أنا أيضاً الليلة مع قافلة غير التى تتبعها ، لتكون خطواتنا متقاربة ، فلا يبطئ بك المقام فى دمشق ، وستكون معى متطلبات الرحلة إلى مصر فلا تهتم .

وما أسرع ما يمضى الزمن ، فقد سار الرفيقان إلى وجهتهما دون انتظار ، فالتقيا بالمسجد الأموى ، ثم تهيئا للرحلة معاً إلى مصر ، حتى إذا بلغا أسوار الفسطاط وجدا أمام الأسوار من يسألهما ؟ فإذا هو صاحب البريد .

كان راشد حازماً فى إجابته ، لأنه وهو فى مظهر السيد ، قد تولى الإجابة دون ما وجل ، ولكن صاحب البريد أخذ يصوب النظر إلى وجه هذا الذى يظهر فى مرأى التابع ، ثم ما عتم أن قبض على يده ، وارتفع بها إلى شفته يقبلها ، وقال

له فى همس : أنت سيدى إدريس بن عبد الله بن الحسين ، لقد اشتركت معكم فى المدينة حيث استشهد محمد بن عبد الله أخوك ذو النفس الزكية ، واشتركت معكم فى يوم (فخ) حيث استشهد الحسين بن الحسن ، وحين غلبنى الوجد ، تركت الحجاز ومن به وجئت إلى مصر ، فاتخذنى عاملها الأمين على بن سليمان الهاشمى قائماً على البريد ، وأنا صاحب سره ، وعلى بن سليمان هاشمى يخلص لأهل البيت ، وسأصحبكما إليه بعد أن ألتقى به !

قال راشد : ناشدتك الله ألا تفعل ، فالرجل وإن كان هاشمياً فهو عامل الهادى وعين بنى العباس ، وواجبه ينتهى به إلى القبض علينا ، ولئن صفح فسيحار فى أمرنا ، ولا نريد أن نسبب له الضيق !

قال صاحب البريد : أى ضيق وأنا أعرف نوازعه الخفية ، وكم جلست معه ليالى كثيرة نتحدث عن ظلم بنى العباس ، وندعو الله أن يتم الأمر لبنى على ، وقد سمعته بالأمس ينشدنى قول بعض الشعراء :

أنسى الهوى لبنى علىّ فى الحشا وأراه يطمح عن بنى العبـاس

قال إدريس : حياه الله وأكرمه ، ومتى كان كذلك فلا نريد أن نوقعه فى حرج ، فقد تكون عليه عين ترقب ، فتنقل إلى بغداد ما يصف به لتهاونه معنا ، ومن يدرى فقد ننتفع به دون لقاء !

قال صاحب البريد : فهيا إذن إلى منزلى حتى يحين الصباح !

أشرقت الشمس ، وتوجه صاحب البريد إلى على بن سليمان الهاشمى ، ولكن الغيبة قد طالت ، حتى دنت الشمس من المغيب ، دون أن يرجع الرجل بخبر ما .

وتحير الضيفان ماذا يصنعان ؟ أيهربان ؟ وقد أغلق عليهما الباب الخارجى ، وهما موضع التبجيل والإكرام من خدم المنزل ! أيكون على بن سليمان قد ضاق بصاحب البريد فأمر باعتقاله ؟ لو كان الأمر كذلك لأسرع إليهما أعوانه كى يقبضوا عليهما ، ويتجهوا بهما إليه ، ولكن الجو هادئ ، فماذا تم بين الرجلين ياترى !

وبعد العشاء الأخيرة ، حضر صاحب البريد ، ومعه أربع رواحل ، وقال لضيفه فى اهتمام ، بعد أن انفرد بهما وأوصد الأبواب :

لقد مكثت مع على بن سليمان نفكر فى أمركما ، وقد خاف عليكما من البقاء فى الفسطاط ، لأن العيون كثيرة ، وما تسقط إبرة فى مصر ، إلا رن صداها فى أذن الهادى ببغداد ، ثم انتهى الأمر إلى أن ترحلا منفردين إلى برقة ، وقد أعد لكل منكما راحلتين ، إحداهما لتابع يهديكما السبيل ، والأخرى لمتبوعه ، على أن يبدأ أحدكما مع تابعه هذه الليلة ، وينتظر الثانى كى يسير مع تابعه الآخر ، والتابعان يجهلان كل شىء عنكما ، وقد قال الأمير لهما : إنكما تاجران من برقة ، جئتما لزيارته كى تحدثاه عما يمكن أن تحضرا به من العروض إلى مصر فى الموسم القادم ، وقد رأى أن واجب الضيافة يحتم عليه أن يسعدكما برحلة هانئة ، فأعد الراحلة والتابع لكل منكما ! فإذا تحدث أحدكما مع تابعه الذى يجهل كل شىء عن برقة فلا يحدثه بغير الشائع المتعارف ، ولا يخوض معه فيما يدل على شأنه ، وستصلان بخير ، ومعكما الزاد والراحلة والملبس والمال .

قال إدريس : الحمد لله ، دعنى أتوضأ ، وأصلى صلاة الشكر لله ، فإن أمارة التوفيق ساطعة تبشر بما بعدها ، وسأبدأ أنا المسير الليلة ، أما راشد ففى مساء الغد ، والموعد جامع برقة العام عند صلاة العشاء .

لم يصدق الصاحبان واقعهما حين تلاقيا عشاء بمسجد برقة ، وقد تأكدا أنهما فى هذه الأماكن القاصية صارا بمأمن من عيون الخليفة ، ولكن الحيطة توجب الحذر ، إذ لا يمنع أن يوجد من يتعقبهما فى الطريق ، وهو احتمال فحسب ، بل هو فى رأيهما احتمال ضعيف .

ولكن إلى أين يذهبان ؟ لقد قر عزمهما على الرحلة إلى القيروان ، لا لتكون خاتمة المطاف ، بل لتكشف لهما عن واقع المغرب السياسى ، فهى ملتقى القوافل ، وكل أنحاء المغرب تبعث تجارها الناهضين إلى المشرق عن طريقها ، وكل قافلة تشغل الأسواق فتمتلئ ، فإذا ضاقت البلدة نشر القادمون خيامهم فى ضواحيها الممتدة ، وفى تلك الضواحى تتلاقى الوجوه ، ويتعارف الغرباء ، وتسيل أفانين السمر ، وتروى أغرب الأحداث .

لقد عجل إدريس وصاحبه إلى تلك الضواحى العامرة ، يتظاهران بالشراء ، ويلتقيان بالسمع إلى ما يدور ، وقد عرفا أن (وليلى) تخضع لمن يسمى إسحاق

ابن عبد الحميد وهو أمير قبيلة (أوبة) وله منافسون من القبائل المتصارعة يعادونه ، حتى ضاقوا به ، وكاد يضيق بهم ، فالمعارك لاتهدأ ، والشجار لايخف ، وإذا سكت القتال بدأ الكلام واشتد ، فيستدعى القتال مرة تالية .

قال راشد لسيده إدريس : ولماذا لا نتهز الفرصة فتسير إلى (وليلى) وتقابل أميرها إسحق لتعلن إليه صلتك برسول الله ، ومكانك من على والحسين ومن تبعهما من ذريتهما فى ميدان الجهاد وسيعرف أنك صاحب الأمر الذى اغتصبه العباسيون ، ومن يدرى فلعله يرى فى وجودك حلا لمشكلته مع القبائل ، فيجمعهم على مبايعتك راضين ، ولن يخسر شيئاً ، فسيكون وزيرك المختار !

قال إدريس : أنت تحلم ياراشد ، فقال صاحبه : وكم حقيقة ابتدأت بحلم ، أليست الآمال دافعة للعمل ، وإذا ابتدأ العمل على وجهه الصحيح فإنه يدنى الآمال !

تقول : على وجهه الصحيح ؟

أجل : فإن ما أتصوره ليس بعيداً عن التصديق ، أمير متعب لايجد سبيلا للراحة مع معارضيه ، وخصوم أشداء لايستريحون لسيطرة الأمير ، وجميعهم ينشد حلا يرتضيه ! وأنت الحل المأمول . إن طريقنا منذ خرجنا من المدينة كان مبشراً بالخير ، فلم نصادف عقبة تقف معترضة أمامنا ، من كان يصدق أن صاحب البريد فى مصر سيتعاطف معنا ؟ من كان يصدق أن والى مصر على بن سليمان الهاشمى سيرحب بنا ويرسم السبيل لنجاتنا ، من كان يصدق أن نجىء إلى القيروان مطمئنين دون أن يحيق بنا مكروه أو يتلبسنا خوف !! إن هذه المبادئ تبشر بالخواتيم ، وقد قلتها وسترى ! والله لكأنى أقرأ فى كتاب !

تشجع إدريس ، وامتلأ عزماً بما قال راشد ، ونهض ليقبله بين عينيه ، وليقول له فى إعجاب مشغوف : أنت المصباح المشرق الذى أنار طريقى ، وقد تكاثفت حولى الغياهب ، ما أهنأ الحياة حين تجود بصديق مخلص يبذل رأيه الصادق ، ويعطى من قلبه وداً صافياً ، ومن فكره حلا موفقاً ، ومن أمله دافعاً متوثباً ، أنت ذلك الصديق يا راشد !

قال راشد : لقد رفعتنى عن مستواى يا سيدى ، أنا تابع لاصديق ، تابع لحفيد رسول الله ، ولا أدخر لنفسى جزاء غير شفاعة جدك العظيم ، إذ يدرك ما أصنع ، فيأخذ بيدى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فنهض إدريس لعناقه ، وسقطت دموعهما شوقاً وأملا ، وأعدا العدة للرحيل فى الصباح إلى مدينة (وليلى) حيث يريان أميرها إسحاق بن عبد الحميد .

عجباً ، أكان راشد يقرأ صحيفة الغيب ! أيكون فى البشر من يسبق بخواطره خطى الزمان فيرى ما يكون كأنه قد كان ! إن كان فى البشر هذا الطراز فراشد أحد هؤلاء ، إنه ابتسم ابتسامة راضية حين وجد إسحاق يهتف من أعماقه ، وقد استمع إلى حديث إدريس : مرحباً بحفيد رسول الله ! أنت صاحب الأمر فينا وليس له سواك .

قال إدريس فى نفسه : هـذه واحدة ، لقد استجاب إسحاق ومعه قبيلته ، ولكن ما موقف القبائل الأخرى ؟

لقد طار النبأ فى المدينة ثم فيما حولها من القرى والبلاد ، فهرع الناس أفواجاً لرؤية العلوى المضطهد فى الشرق ، وقد بعثته العناية الربانية لينقذ البلاد من الشقاق ألم تكن الدماء تسيل ؟ ألم تكن الصـدور تثور بالحفيظة ؟ ألم تكن الجنوب قلقة لا تنعم بمهـاد ؟ سيتبدل ذلك كله ، وستصبح الكلمة واحـدة فى ظل إدريس ابن عبد الله بن الحسين !

وهكذا وفدت قبائل زنانة وزواغة وزواوة وصيدة ومعهم قبيـلة أوربة ليكونوا صفاً واحداً خلف إدريس ، وهكذا يعبئ إدريس بن عبد الله جيوشه من البربر ليقتحم المعاقل والحصون ناشراً نور الإسـلام فى هـذه الربوع الممتدة من ساحل المحيط الأطلسى حتى مدينة (تلمسان) وقد سبقته شهرته ، فافتتحها دون قتال وبنى بها مسجدها الكبير ، وسجل اسمه على منبرها مسلسلا حتى ينتهى إلى الحسن بن على ثم إلى البتول فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق محمد بن عبـد الله !! وقد أطلق عليه فاتح المغرب الثانى ، إذ كان الفاتح الأول عقبة بن نافع ، وبينهما موسى بن نصير ، وكلهم خيارمن خيار !

والآن ما خطب بغداد ؟ وما شأن أمير المؤمنين ؟

لقد مات الهادى ، وتولى بعده هارون الرشيد ، وطارت إليه أنباء إدريس ابن عبد الله فى المغرب ، فقلب كفاً على كف ، ونادى وزيره يحيى بن برمك ليقول له : لقد تتابعت انتصارات إدريس ، بايعته جميع القبائل فى المغرب ! تعاهد مع الأموية فى الأندلس وأصبح الخارجان حليفين ! ماذا أصنع ؟

قال يحيى : إن أبا جعفر المنصور رحمه الله قد ترك عبد الرحمن الداخل وشأنه لبعد مكانه ، وقد سماه صقر قريش !

قال الرشيد متهكماً : وأنت تريد أن نبحث عن اسم آخر لإدريس ؟

قال يحيى : معذرة يا مولاى ! بل أردت أن أقول إن المنصور مع سعة حيلته قد رأى بعد المسافة بينه وبين خصمه مما يجعل النصر غير مأمول ! والموقف مع إدريس هو الموقف مع عبد الرحمن .

قال الرشيد غاضباً : أونسكت حتى تضيع أفريقية جميعها ! لأنها بعيدة عنا ، ويصعب أن نقود لها الجيوش ؟!

فأجاب يحيى : لا نسكت ولكن نحتال !

قال الرشيد : مخبئاتك يابن برمك ! فأنت حصيف .

فرد يحيى يقول : لقد فكرت فى أن نرسل له طبيباً يدعى أنه فر هارباً منك ، ويتألفه بشتى الحيل ، حتى إذا اطمأن إليه سقاه ما يريحنا منه ، ويكر راجعاً إلينا ، فنثيبه ونحميه ، لا سيما أن إدريس لم يرزق ولداً ، فإذا مات تفرق شمل العلوية هناك !

تبسم الرشيد وقال : فكرة جيدة ، عليك أن تقوم بتنفيذها يا يحيى ، ولا تبطئ ، فالأمر جلل لا يحتمل السكوت ! وراقب من هنا من العلوية الطامحين كيلا يغادر مكانه أحد ، فيرحل إلى إدريس ويكون خليفته هناك !

قال يحيى : هذا ما لا يغيب عنى يا مولاى !

ودار يحيى بفكره فاهتدى إلى سليمان بن جرير المشتهر بالشماخ ، وهو ممن عرف بالطب والصيدلة مع براعة فى الجدل ومناقشة علماء الكلام ، وإلمام بالأدب والشعر ، فدعاه على عجل ، وبسط له من الآمال بعد رجوعه ما يستطيع به أن يكون من كبار رجال الدولة الأقربين ، حيث أراح أمير المؤمنين من خصم عنيد وكانت فى سليمان انتهازية مغامرة يسكت عندها صوت الضمير ، فرحب وهش وعجل بالمسير ، ولم يكن فى حاجة إلى الدربة ، حيث زاول الخداع وأحكم التآمر ، وعرف من مكنون إدريس ما هيأ له فرصة التقرب إليه ، والاستمتاع بمشورته ! وكيف يظن إدريس به الشر ، وقد جاء باكياً ضارعاً يعلن نقمته على الرشيد ، إذ سجنه بغياً دون وزر ، وأعد العدة لاغتياله ، لولا أنه اهتبل فرصة سانحة ففر من المحبس فى جنح ليل ، وإلى من يلتجئ ؟ إلى فرع الدوحة الطاهرة إدريس بن عبد الله ! ! وسيرعى أمور صحته ، فهو طبيب صيدلى ، وإذا شاء كان سمير ليله محدثاً أديباً راوية ، وعالماً بالأحداث ، ومحللا لخفايا الضمائر ، وكوامن الأحاسيس !

ثم نفذ السهم ، فتمت الحيلة ، وصرع إدريس بشمة طيب مسموم تغلغل إلى دمه من أنفه ، ففرح عدو ، وارتاع صديق .. وقد تسلل الشماخ فى جنح الليل قبل أن تظهر أمارات السم البطىء ، ولو بقى سويعات لواجه سوء المصير .

يزيد بن مزيد

رجعت ليلى بنت طريف الشيبانية بعد مصرع أخيها الوليد بن طريف الشارى إلى منزلها صامتة تريق دمعها دون أن تنطق ، إذ كان أخوها الوليد بن طريف الشيبانى زعيم الخوارج فى عهد هارون الرشيد ، وكانت له صولة جبارة أفزعت الرشيد وأزعجته ، فتوالت جيوشه لمنازلته فلم ترجع بشىء ، وقد بلغ من جراءته أنه حين تغلب على نصيبين وأرمينية زحف إلى الجزيرة ما بين الفراتين ، وأصبح قريباً من بغداد ، وقد اجتمع الرشيد بجعفر البرمكى ، والفضل بن يحيى لينظروا فى هذا الخطر الداهم ، جزعاً أن يكون الوليد فى معشار معشار جيوش الخلافة ثم يهددها بهذا الزحف الداهم ، وجعل يستشير فيمن يصلح لمنازلته بعد أن صرع أقوى قادة الخلافة إبراهيم بن خازم وبدد جيشه ، فوقع الاختيار على يزيد بن مزيد الشيبانى ، وكان جعفر يبغض يزيد ويراه مثالا للأنفة المترفعة ، وكأنه يحسده على بطولته ومروءته ويعده منافساً كبيراً ، وهو بعد عربى من شيبان ، فأشار على الرشيد بتوليته القيادة ، وقال فى نفسه : إن انتصر على الوليد فقد دفع الله الشر به ، وله قدره الذى لا يتعداه فى قصر الخلافة ، وإن كانت الأخرى فقد أراح الله من منافس عربى تلتف حوله القلوب !

تقدم يزيد بن مزيد الشيبانى إلى منازلة الخوارج ، فرأى من ثباتهم وهجومهم على الموت ما روعه على شجاعته الخارقة ، ودارت المعركة فى رمضان ، فكان الخوارج جميعهم يصومون ويهجمون . وكان جيش الخلافة يميل إلى الرخصة فيفطر ، وأراد يزيد أن يصوم ليستعين بالله على خطر الوليد ، فغلبه الحر الشديد ، إذ كان بين نارين : نار الحرب ، ونار القيظ ، حتى بلغ به العطش أن عمد إلى خاتمه فنزعه من إصبعه وجعل يلوكه فى فمه ، ويقول : اللهم هذا يوم شديد النار فاستر على ، ونادى أصحابه : إنهم الخوارج يا قوم ، فلا تفضحونا ، فلم يحصل معهم على شىء ، إذ ثبت أعداؤه ثباتاً أزعجه ، ثم اهتدى للحيلة ، فوقف فى الميدان ونادى الوليد بن طريف قائلا : يا ابن العم ، أنا شيبانى وأنت شيبانى ، وفى

شيبان مروءة لا تنكر ، فإن رأيت أن نحفظ هذه الدماء ، ونقصر الأمر على وعليك ، فنتلاقى للبراز ، وأينا صرع الآخر رجحت كفته ! إن رأيت ذلك كنت فتى شيبان ، وحفظت دماء المسلمين ، وما لنا أرب فى الحياة أنا وأنت ، إن هو إلا الموقف العصيب ، فرض علينا العداء ، ونستعين بالله !

كان فى الوليد فتوة ، فصاح بيزيد : لقد أنصفت فهيا ، وتقابل البطلان فى ساعة رهيبة ، وتحلق الفريقان يرمقون على من تدور الدائرة ، وعظم الكر والفر ، وبرق السيف ، واهتز الرمح ، ثم صادف يزيد مقتلا من صاحبه فأرداه ، وتشجع الخوارج ثائرين لقائدهم ، فهجموا ، وهجم يزيد ، وقومه أشد تحمساً بعد مصرع الوليد ، حتى تم النصر لجيش الخلافة .

وكانت ليلى بنت طريف شقيقة الوليد ترقب النزال الهائل ، فلما رأت مصرع أخيها لبست درعها وحملت سيفها وركبت جوادها ، وتقدمت لمنازلة يزيد هاتفة به أن يبرز لها . وحار البطل ماذا يصنع ، ولكنها كانت مصممة على نزاله ، تغلى فى نفسها روح الانتقام ، وهى بطلة ذات مواقف ، ولكن مع من ؟ مع غير يزيد بن مزيد الشيبانى ، ومرت ساعة رأى يزيد بعدها أن ينتهى إلى حد ، فهجم بسيفه على الفرس فقده نصفين ، وصاح بليلى : اغربى يا أختاه ، فليس لى أن أصرعك ، وهرول بعيداً ...

رجعت ليلى إلى منزلها ، وعواطفها تعتلج فى صدرها ، وأخذت ترسل دمعها دون أن تنطق ، ثم جاش صدرها بالشعر ، وكانت شاعرة من طراز نادر فى ملئها ، ومما قالته هذه الأبيات :

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً ... كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ... فيا رب خيل فضها بسيوف!

وانتشرت قصائدها الدامعة بين العرب ، وفى الناس من لا يرحم المصابين ، بل ولا ينكأ الجراح بما يزعم ، إذ دخل على ليلى أحد الخوارج كالساخر ، وهو يقول : رثيت أخاك وذكرت اسم قاتله دون أن تذميه ، وهو عدو قاتل ! كأنك تريدين مصافاته بعد أن عفا عنك فى الميدان !

قالت ليلى : على بأبى محمد اليزيدى ، وهو أديب ناقد ، ليحكم بينى وبينك فقال الخارجى : سأحضره الآن لنعلمى صحة ما أدعيه ! وكأن القوم قد نسوا مصرع الوليد وفرغوا لنقد الشعر ، فأسرعوا إلى أبى محمد يدعونه ، ورأى الشيخ إلحاح القوم ، فخف إلى منزل ليلى ، واستمع إلى ما قيل ، فبان الغضب فى وجهه ، وصاح بالناس : يا قوم ، لم ترحموا الأخت المفجوعة فى شقيقها ، ولستم بأكثر منها لوعة ، ولا أجزع على فقد الوليد ، وقد عبرت عن شعورها بأقوى مما قالت الخنساء فى صخر ، ولم ترد مباهاة بالشعر ، بل نفست عن صدر مكلوم ، وقلب ذى شجون ، فمن هذا الذى يعترض حيث لا اعتراض ؟

قال الخارجى : لم تهج يزيد بن مزيد ، وهو عدوها وعدو أخيها ، أتراها قدرت موقفه حين تركها ، ووهب لها الحياة !

فصاح اليزيدى : عجباً أى عجب ، وماذا فى هذا الشعور النبيل ، كأنك تريد أن ينقلب الرثاء هجاء ، إن السائل من لون الإناء ، والشريفات من الشواعر لا ينحدرن إلى حمأة الإسفاف ، ولها فى هذا المضمار شبيهات ، أتسمعون يا قوم !

قال الجميع : هيا نستمع ، فقل .

فعجل أبو محمد اليزيدى يقول :

كانت قتيلة بنت الحارث ، أخت النضر بن الحارث تعزه وتصطفيه ، وقد قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد المعركة فى بدر لما لقى من أذاه فى مكة ، إذ كان من أفحش الخصوم وأشدهم نقيصة ، فحزنت قتيلة على شقيقها حزناً أسال الدمع ، وأرق العين ، ورثته رثاء كريماً ، ولم تهج فيه رسول الله ، ولم تسكت عنه ، بل مدحته وهو قاتل أخيها ، فقالت :

أمحمد ولأنت ضنء كريمة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى ، وهو المغيظ المحنق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

فماذا تقول أيها الخارجى ! والله إن ليلى لو هجت يزيد لما كانت بنت طريف الشيبانى ! أتهجو من عف عن مصرعها ، وقد تعمدت قتله بكل ما تملك من قوة وسلاح ! أتلك أخلاق شيبان !

قالت ليلى : شفيت صدرى يا عم ، فاجلس نتحدث عن شيبان :

فآنس أبو محمد فى وجوه القوم استبشاراً ، فأراد أن يسلى عنهم ما يجدون من وجد بعد هزيمتهم ! فقال : هما بطلان من أعظم قادة الإسلام ، الوليد بن طريف ويزيد بن مزيد الشيبانيان ! أما الوليد فأنتم جنده ورجاله ، وتعرفون من بسالته النادرة ، وشجاعته الخارقة أكثر مما أعرف ، إنه هو الذى أفزع الرشيد ، وكاد يزلزل عرشه فى بغداد ، وماكاد يبلغه نبأ مصرعه ، حتى سجد لله شاكراً ، وصمم على أن يؤكد شكره ، فرحل إلى مكة معتمراً فى البيت العتيق ، ثم رحل إلى المدينة زائراً قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليؤكد حمده لربه ، فأى بطل كان الوليد ، لقد عبرت ليلى عن مشاعرنا جميعاً حين بكته فقالت :

فقدناك فقدان الربيع وليتنا ... فديناك من فينا بألوف
عليك سلام الله وقفاً فإننى ... أرى الموت نزالا بكل شريف

هذا هو الشيبانى الأول الوليد بن طريف ، فهل أتحدث عن يزيد ، فيقول قائل أنت تمدح العدو أو أن الحق حق !

قال الجميع : أنت تروى تاريخاً فتحدث :

فبادر اليزيدى يقول : وهبنى كنت عدواً ، فالفضل ما شهدت به الأعداء ، أعرف من أمر يزيد بن مزيد أنه كان يحتذى عمه معن بن زائدة فى الشجاعة والكرم معاً ، وقد بلغهما معاً ، وكان معن بن زائدة يعرف له قدره ، ويرفعه عن أبنائه من صلبه منزلة واعتداداً ، قيل لى : إن امرأة معن بن زائدة ، رأت زوجها يقدم يزيد فى مواقف الرجولة ، ويصدره فى محافل الحشود ، على حين يترك أبناءه جساساً وزائدة وعبد الله وكأنهم همل لا شأن له بهم ، فاغتاظت الأم غيظاً شديداً ، وقالت : كأنك لم تنجب غير يزيد بن أخيك ، وكأنك تزعم أن الله لم يخلق مثله ، فقال معن : مهلا مهلا ، فوالله لو وجدت لدى واحد من أبنائى معشار ما أرى من يزيد لباهيت به واحتفلت ، ولكن مواقف الشدة تدعونى إلى دقة الاختيار بعد بلاء الاختبار ، ووالله لو لم يكن يزيد ابن أخى ، وشجاعته شجاعته ، وكان غريباً فى ملإ آخر لحاولت أن أقربه من نفسى ، وسأريك الآن دليلا يسكتك فلا تعودين إلى لغوك .

ثم نادى غلامه فى منتصف الليل وقال له : اذهب إلى أبنائى جساس وزائدة وعبد الله وغيرهم فادعهم على عجل ، فطال انتظاره حتى أتوا مبطئين فى ثياب الحرير ، وفاخر النعال ، وجعلوا يتثاءبون متناومين ، ثم أسبل ستراً وجعل امرأته خلفه ، وصاح بالغلام : ادع يزيد بن أخى ، فما مضت لحظة حتى دخل عجلا ، ومعه سلاحه ، وقد ربط فرسه ، ولبس درعه ، فقال له معن : ما هذه الهيئة يا يزيد ، ولماذا السلاح والدرع ، فقال : جاءنى رسول الأمير فى هذه الساعة من الليل ، فقلت : ما دعانى إلا لأمر خطير فى هذا الوقت الحرج ، فأخذت عدتى لأنهض للأمر من فورى دون انتظار ، وإذا لم يكن ما يدعو للسلاح فما أيسر ما ينزع ! فقال له : انصرف مشكوراً ، فقد جد ما جعلنى أتمهل .

ثم التفت إلى امرأته ، وأزاح الستر قائلا : أرأيت ما صنع يزيد ؟ قالت : تبين عذرك ، فصرف معن أولاده ، وقال : عسى أن يأخذوا درساً فيفيقوا من ترفهم الكاذب ، وكم قدمتهم فتأخروا ، ليس الأمر يا أم جساس أمر ترفيه وتنعم وملذة ، ولكنه أمر جلاد وأعباء وهموم وتضحية ! ولن يكون لذلك غير شجاع موهوب ! أتلومينى فى يزيد وهو سيفى أمام الأعداء !

قالت ليلى : صدق معن فى قوله : ليس الأمر أمر ترفيه وملذة ، لأن المجد لا ينال بالراحة واللذة ، فقد عهدت الوليد أخى رحمه الله ، دائم التنقل نهاراً والسهر ليلا ، وكأنه موكل بإصلاح الكون أجمعه ، وما أظن معناً ويزيد الشيبانيين إلا من طراز الوليد !

قال أحد الجلوس ، وقد تبرم بمديح آل شيبان : إن أولاد معن جساساً وزائدة وعبد الله من شيبان ولم يصنعوا شيئاً ، حتى أخرهم أبوهم واصطفى ابن أخيه ، فتحدثوا عن الأشخاص لا عن الأنساب .

قال اليزيدى : هو ما تقول ، ولكن البطولة تكثر فى قوم دون قوم ، وما نعنى أنها تعم القبيلة جميعها ، فقد يكون فى القبيلة الخاملة بطل لا نظير له ينشأ كما تنشأ الزهرة منفردة فى أعلى الجبل ، وقد يكون فى القبيلة النابهة أناس خاملون يسقطون ولا يرتفعون .

قالت ليلى : لنترك حديث القبائل لأسأل : هل كان يزيد بن مزيد كريماً

مثل ما شاع عن معن ، لقد عرفناه شجاعاً باسلا ، فهل اشتهر فى ملئه بالسخاء والأريحية !؟

قال اليزيدى : كان يزيد يشبه معناً فى كل شىء ، وقد حاذاه فى كرمه ومروءته ، فاندفع السائلون إلى بابه من كل صوب ، فكان يفرح بتفريج كربهم حين يرى السرور بادياً على قسماتهم ، ولم يكن يجود فى حال اليسر وحده ، بل كان يصمم على أن تظهر مروءته فى معسرته ، وفد عليه أبو منصور النمرى وهو فى أحرج ساعات ضيقه ، فأنشده :

لو لم يكن لبنى شيبان من حسب ... سوى يزيد لفاقوا الناس فى الحسب

فاكتأب يزيد وكأنه يعانى غصة ، ثم قال للنمرى : ما أصبح لدى ما يفى بحقك ، ولكن سأعطيك كل ما فى خزانتى ، ونادى غلامه كى يحضر كل ما يملك ، فكان مائة دينار ، فقدمها يزيد فى استحياء وقال : لك بقية حين نستطيع .

وقد وشى بعض الحاقدين بيزيد إلى الرشيد ، فقال له : إن ابن مزيد يعطى أبا بكر النطاح ، ويسرف فى عطائه ، مع أنه مدح ربيعة مفضلا إياها على مضر ، ومضر أرومة أمير المؤمنين ، فغضب الرشيد على يزيد وكتب يقول له : إن عيونى عليك فى خلواتك ومشاهدك ، وقد جاءك جلف من أجلاف ربيعة عدا طوره فأتنى به ! فتأثر يزيد ، وعز عليه أن يسىء لشاعر يحتبى بفنائه ، فبعث إليه قائلا : يا بكر ، استتر عن الناس وخذ منى اليوم ما يرضيك ويكفيك حتى تزول الغمة ، وسأكتب للرشيد معلناً أننى أبحث عنك فى كل مكان ، فاتق الله فى نفسك وفى .

قال بعض الحاضرين : أولم يأمن يزيد بن مزيد أن يبلغ هارون ما صنع ، وهو محاط بعيون أمير المؤمنين فى الحضر والمغيب .

فقال اليزيدى : إن أريحية يزيد تدفعه إلى أن يسىء إلى نفسه ، كيلا يسىء إلى اللائذين به ، وهو نمط من الرجال يندر أن تراه .

ولم يقنع الرشيد بما كتب يزيد ، فأرسل يستدعيه ، ولكن يزيد الذى حمى هارون من القتل من قبل ، حين غزا الصائفة ببلاد الروم وهو أمير فى عهد والده المهدى ، إذ هجم عليه من حاول أن يفلق رأسه بالسيف ، لولا أن بادره يزيد

بطعنة من الخلف أسقطت السيف من يده ، ونجا هارون ، إن يزيد الذى فعل ذلك قد قدم هاشاً باشاً على الرشيد ، فتذكر الخليفة لساعته ما كان من نجاته على يده ، وقال له : كنت غاضباً يا يزيد ، ولكن رؤيتك الباسمة ذكرتنى أمسك البعيد إذ دافعت عنى يوم الصائفة ، فاجلس راضياً مرضياً عنه .

فقال يزيد من فوره : الحمد لله الذى سهل لنا سبيل الكرامة بوجه لقائك يا أمير المؤمنين ، كما كشف عنا صبابة الكرب بفضلك ، فجزاك الله فى حال سخطك رضا المنيبين ، وفى حال رضاك جزاء المنعمين ، فأنت تعفو عن المسىء متفضلا ، وتتطول على المحسن ممتناً .

فسر الرشيد ، وسأله : من القائل يا يزيد ؟

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يأتى على عجل

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فصاح الرشيد : سوءة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ، ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فحفظه ورواه ، إنه مسلم بن الوليد ، فلا تبخسه حقه يا يزيد .

وكان بالباب مسلم الخاسر الشاعر المادح ، يطلب الإذن ، فأذن له الرشيد ، ويزيد لا يزال جالساً فى موضعه القريب من أمير المؤمنين ، فتقدم مسلم ووالى إنشاد مدحته حتى وصل إلى قوله :

إن المنايا فى السيوف كوامن حتى يهيجها فتى هياج
ومدجج يغشى المضيق بسيفه حتى يكون بسيفه الإفراج

فقال الرشيد : ذلك يزيد بن مزيد يا مسلم !

وسكت اليزيدى مفكراً .

فصاح به أحد الجالسين : كفى ما قلت يا أبا محمد ، فنحن لم نجتمع للثناء على قاتل الوليد .

فقالت ليلى : لقد عرفنا أن أشجع الفرسان قتل أشجع الفرسان ، والموت حتم مفروض ، فلا تثريب على قاتل أو مقتول من طراز الوليد ويزيد .

وشعر القوم أنهم قاموا لدى ليلى بواجب المواساة ، فأخذوا ينصرفون متتابعين .

محنة البرامكة

جلس الوزير المهلبى فى أمسية سمره التى اعتاد أن يعقدها مع أصدقائه القضاة ابن قريعة وابن معروف والتنوخى ، وكلهم فقيه أديب راوية تقدمت به السن وحنكته التجارب ، ولكن الوزير كان على غير عادته مطرقاً يستمع الحديث ولا يشارك ، وتدور الطيبات من الفواكه والنقل ، ولا يتناول شيئاً ، وكان القاضى التنوخى أقرب المتسامرين إلى نفسه ، فلمح ما يخامره من شجون ، فاتجه إليه ليقول له فى دعابة :

يا أبا محمد ، أنت وزير الدولة ، فلابد أن تكابد صعابها ، وأن تكون مشكلاتها شيئاً طبيعياً ، لا يؤرق ليلك ، ولا يعكر سمرك ، لأن صاحب الأمر الكبير لا يسير فى طريق مفروش بالريحان ، وإن توهم الناس ذلك ، ولكنه كبير لأنه ينازل الصعاب ويلاقى الشدائد ثم لا يكترث بها .

قال الوزير : ليس الأمر أمر الدولة — أعز الله القاضى وبارك فى مودته — ولكنه أمر سيدنا معز الدولة البويهى ، إذ تغير على .

قال ابن معروف : وكم تغير ، وتلبد الجو بالغيم ، ثم أشرقت الشمس ساطعة وضاءة وانجاب الضباب !

قال الوزير : ولكن أذنه تستمع وتستمع حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع . والله لراحة النفس من عناء الوزارة أجدى وأسلم !

فضرب ابن قريعة كفاً بكف ، وقال : أوبعد أن أحكمت الإدارة ، وثبتت الدعائم ، وسرى الأمن فى الربوع ، يتغير عليك ! إن هؤلاء الكبار يصغرون حين ينكرون جهود وزرائهم المخلصين ، وصفحات التاريخ تسجل كل رائعة مخجلة ، فإلى متى ؟ كم وزير أرسى الدعائم ، وأقر الأمور على أحسن وجه ، ثم لاقى الجحود ، وما عهد جعفر بن يحيى البرمكى ببعيد .

قال ابن معروف : لا تكن مثيراً للبلابل يابن قريعة ، فالشأن غير الشأن ، والفرق بعيد .

وهنا قال الوزير مهتماً : وماذا صنع جعفر حتى يلاقى الجحود على أقسى صوره ، وأفظع مرائيه ؟

قال القاضى التنوخى : لقد جئنا يا قوم لنسمر بالرواية الشعرية ، والنادرة الأدبية ، لا نتحدث عن البرامكة !

فقال الوزير : ولماذا لا يمتد السمر إلى أحداث التاريخ لنأخذ منها العبرة الصادقة ، ونكبة البرامكة هى إحدى العبر البالغات ! هل لنا أن نبحث أسبابها على ضوء ما تعلمون من تاريخ القوم ، ابحثوا هذه الأسباب لأنتقل بنفسى عما هى فيه ! ماذا ترى أنت يا ابن معروف ؟ قل ما عندك .

قال ابن معروف : أعجب لمثل الإمام الطبرى وهو مؤرخ نابه ، أن يذكر ما ذاع عن العباسة فى كتابه ، وحديث العباسة ظاهر البطلان ! أفيرضى من هو فى عقل الرشيد ، أن يعقد على أخته ، ويسمح بأن تجالس جعفر البرمكى فى أمسيات صفائه ، ثم يحرمها عليه ، فيتلاقيا خفية عدة أعوام ، وتنجب منه ثلاثة أبناء ، وهو لا يدرى ، ثم يعلم بعد سنوات ، فيثور ثائره ويهيج هائجه ، ويدبر الانتقام !

قال الوزير : أوكانت تشهد مجالس الرشيد مع جعفر ، وهى حبلى ذات حمل ، ثم لا يلحظ الرشيد شيئاً ! أفكانت تغيب أيام الوضع والنفاس وترجع بعد الغيبة شاحبة منهكة ثم لا يلحظ الرشيد شيئاً ؟ أو يتكرر الحمل ثلاث مرات ، والرشيد فى غفلة ! قولوا غير هذه !

فأجاب ابن قريعة : إن من أطمأنوا إلى هذه القصة ، قد اختلفوا فى اسم الزوجة ، فمن قائل إنها ميمونة ، ومن قائل إنها العباسة ، أفتكون أخت أمير المؤمنين ، وصاحبة مجلسه وأنسه ، التى لا يطيق ابتعادها ليلة ، مجهولة لا تعرف ، حتى تختلف الروايات فى اسمها ، هذا ما لا يصدق .

قال القاضى التنوخى : ثم إذا كان الأمر أمر جعفر وحده ، فلماذا نكب

الرشيد الفضل ويحيى ، وكل من له صلة بالبرامكة ! لقد كان من المنتظر إن صحت هذه الرواية أن يدبر أمراً سرياً لاغتيال جعفر وحده ، ثم يمضى الأمر مع البرامكة على ما كان ! ولكنه استأصل شأفة القوم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من سجن ، وصودرت الأموال ، ونهبت الدور ، وتعددت الوشايات ، فتعرض للنقمة كل من كان يتصل بهؤلاء من بعيد أو قريب .

قال ابن قريعة : حتى يحيى بن خالد ، وهو الذى دافع الهادى من أجل الرشيد ، وتعرض لنقمته حتى كاد يموت ، لقد حاول الهادى أن يعوق بيعة الرشيد ويقدم ولده عليه ، ورأى من حاشيته من أيدوا موقفه ، ولكن يحيى قد أبى واستطاع بحيلته أن يثنى الهادى عن عزمه ، وبذلك تم الأمر للرشيد ! ثم ولى هارون الخلافة ، فلم يقم بأعبائها فى سنواتها الأولى غير يحيى ، ثم عاونه جعفر والفضل وبقية أولاده وأصدقائه ومواليه ، أيمتد العقاب إلى يحيى إذا كانت المسألة خاصة بجعفر !

قال الوزير : مسألة العباسة إفك مفترى لا يثبت لنقاش ! ولكن كيف ذكرها الطبرى فيما ذكر من الروايات ؟

فأجاب القاضى التنوخى : نحن نعرف أن المؤرخ من أمثال الطبرى ، يذكر كل ما انتقل إليه قراءة أو سماعاً ، فهو يسرد الروايات المختلفة ، وفيها الحق وفيها الباطل ، وكأنه يقول للناس : هذا ما انتهى إلى من الروايات ذكرتها لكم وعليكم أن تختاروا ما ترونه صحيحاً ، وترفضوا ما ترونه غير صحيح !

فقال الوزير : وهل كل القراء نقاد محققون ؟

قال القاضى التنوخى : إن غير الأكفاء من القراء هم لا يعبأ بهم المؤرخ ، فقراءتهم تسلية وملء للفراغ ، أما النقدة الأكفاء فهم الذين يعرفون الباطل من الصحيح ، وإذا قرءوا حادثة مفتراة كحادثة العباسة ، ضربوا عنها صفحاً ، وعدوها من الأساطير .

فقال الوزير : أنتم محققون إذن ، وأنتم قضاة عدول ، وقد حكمتم على قصة العباسة بالبطلان ، فلنبحث عن سبب آخر .

قال ابن قريعة : قد يكون إقبال الناس على البرامكة دون الرشيد ، سبباً قوياً فى استئصالهم قبل أن يستأصلوه .

فرد الوزير المهلبى : ابسط فكرتك يا ابن قريعة دون إيجاز .

قال ابن قريعة : قد بالغ البرامكة فى السخاء ، حتى ملكوا قلوب الناس ، وكان كل ذى حاجة يتوجه إلى جعفر أو الفضل أو يحيى والدهما دون أن يفكر فى لقاء الرشيد ، حتى فى أخص خصائص الرشيد ، وما حديث عبد الملك ابن صالح بمجهول .

قال ابن معروف : أنا أجهل حديث عبد الملك بن صالح ، فما هو ؟

قال ابن قريعة : كان عبد الملك بن صالح العباسى ينفس على الرشيد خلافته ويراه أحق بها منه ، لأن قرابتهما لأبى العباس السفاح مؤسس الدولة الأول بمنزلة واحدة ، وقد شاع تآمره ، وشهد عليه ولده وكاتبه ، فأوقفه الرشيد موقف الاتهام ، وضيق عليه حتى تباعد الناس عنه ، ولم يجد باباً للنجاة غير جعفر البرمكى فأتاه متوسلا متذللا .

فقال له جعفر : الزم بيتك ، فقد عفا أمير المؤمنين عنك بمشورتى .

فقال عبد الملك : لا يكفى أن يعفو عنى أمير المؤمنين ، وألزم بيتى كالسجين فتضيع مكانتى لدى الناس ، ولكننى أحتاج إلى رضا أمير المؤمنين العملى وذلك ، بقضاء ثلاثة أمور .

قال جعفر : فما الأمر الأول ؟

فقال عبد الملك : إن على ديناً قدره ألف ألف درهم وأريد قضاءه .

فقال جعفر : يحمل إليك الدين هذه الساعة ، فما الأمر الثانى ؟

فقال عبد الملك : أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره ، فهو فى الصميم من بنى العباس .

فقال جعفر : قد وليت ابنك مصر ، فما الأمر الثالث ؟

قال عبد الملك : ولا تغضب علىّ !

قال جعفر : وكيف أغضب وأنا أسألك وأنفذ .

قال عبد الملك : أرى أن يتزوج ولدى بعد ولايته مصر بابنة الخليفة ، فإنها ابنة عمه وهو كفء لها .

قال جعفر : قد أذنت فى هذا الزواج وسيتم .

فلما كان من الغد قابل جعفر أمير المؤمنين وكتب التقليد بولاية مصر ، وأحضر القضاة والشهود لعقد القران ، كما رأى جعفر ، فالذى يبلغ هذا المبلغ بحيث يزوج ابنة الخليفة ، ويعلن انتهاء الأمر قبل أن يرجع إلى والدها ، ثم يسرع الرشيد بالموافقة ، لا جرم أنه يملك أمر الرشيد ، ثم لا يملكه الرشيد ، وهذا ما استبد بنفس أمير المؤمنين حتى أرق جفنه ، ودعاه إلى استئصال من يديرون الأمور ، حتى فى أخص خصائصه ، وهو مذعن مطيع !

قال الوزير المهلبى : لى تعليق على هذه الواقعة ، فقد يسمح جعفر بقضاء دين عبد الملك بن صالح ، وحمله إلى منزله سريعاً ، فهذا مما يصدق دون اعتراض فالوزير كريم والمال موفور ، وقد يستطيع أن يضمن له ولاية ابنه على مصر ، فقد كان هو الذى يولى ويعزل دون اعتراض ، وهذه أيضاً مما تصدق وتقع فى حيز الإمكان ، أما أن يوافق على زواج ابنة الخليفة ، ويتم الأمر فى الصباح دون تردد ، فهذه مما تكون فوق الاحتمال ، وأى رجل — فضلا عن أمير المؤمنين — لا يرضى أن يبرم جعفر أمراً فى شأن ابنته دون قبولها قبل الإبرام ، ودون الرجوع إلى الوالد قبل الموافقة المبدئية ؟

وهنا قال القاضى التنوخى موجهاً الحديث إلى الوزير المهلبى : يا سيدى ، إن الأمر فى مسألة هذا الزواج من وجهة نظرى معقول مقبول ، لأن عبد الملك ابن صالح عباسى من صميم الصميم فى بيت الخلافة ، وقد كان يتآمر على أمير المؤمنين ويهيئ الأعوان للثورة عليه ، ولابد أن يكون له أنصار شجعوه من أمراء البيت العباسى الذين لايحملون المودة للرشيد بغياً وحسداً ، ووراء هؤلاء أعوان من القواد والجنود والعامة ! فإذا استطاع جعفر أن يعقد مصاهرة بينه وبين الرشيد ، فإنه فى هذه الحالة سيضمه إلى صفه دون تمرد ، وسيقمع من يشجعونه على العصيان ، وهذا فى رأيى ما تحدث به جعفر إلى الرشيد حين خلا به ، فقد جعل المسألة سياسية قبل كل شىء ، ورأى

أمير المؤمنين أن إطفاء الحريق عن طريق المصاهرة مما يحسن ، لاسيما والزوج ذو رحم ماسة بالزوجة ، ولن يرضى الرشيد لابنته إلا بأمير من أمراء بيته ، جرياً على التقليد المتوارث وها هو ذا قد تحقق ، فما فى هذه المسألة من البعد .

فضحك الوزير المهلبى ، وقال للتنوخى : تأتى بالغائبة دائماً أيها القاضى ! ولكن إذا كان مسعى جعفر مما يرفع شأن الرشيد ، ففيم العقوق والكفران ؟

قال ابن قريعة : لو كانت المسألة مسألة الرشيد وحده لسار الأمر على وجهه الطبيعى ، ولكن أعداء البرامكة داخل بيت الخلافة وخارجها قد أخذوا يهولون له أمر البرامكة ، وقد حج الرشيد مع جعفر ذات عام ، فرأى موكب الوزير ملاذ الراجين . وملجأ القصاد ، وسمع الدعوات للوزير مع التلبية والتكبير فى الطواف ، ونظر إلى موكبه ، ومعه ابناه الأمين والمأمون ، فلم يجد غير الرسميين من الحراس والحجاب ، ثم جلس جعفر للعطاء فأنفق من المال أضعاف ما أعده الرشيد وولداه للإنفاق ، وجاء الواشى للرشيد ، يعلمه أن الناس يقولون إن هارون معذور ، إذ ليس فى يده مافى يد جعفر ، ومنهم من تورط فقال : هارون شحيح ممسك ، وجعفر جواد كريم .

وتتابع الفضل بن الربيع ، ويزيد الشيبانى ، وزبيدة زوجة أمير المؤمنين ، تتابع هؤلاء فى إثارة الرشيد واستهاجته ، وقد زينوا لبعض الشعراء أن يقول شعراً يعلى قدر البرامكة ، ويخفض قدر بنى العباس ، والواشى الحقود مثل الفضل بن الربيع وأنصاره لايهدأ لهم بال ، ولا شك أن الرشيد حريص على ملكه ، وقد جاءته النذر على ألسنة حاشيته تتوالى منذرة مهددة ، حتى جاءت مسألة يحيى بن عبد الله بن الحسن ، فكانت القشة التى قصمت ظهر البعير .

قال ابن معروف : وما مسألة يحيى بن عبد الله بن الحسن ، فأنا لا أعلمها؟

فقال الوزير متضاحكاً : وماذا تعلم أيها القاضى ، وأنت تجهل مسألة عبد الملك بن صالح وتحتاج لمن يوضحها إليك ، ثم أنت تجهل مسألة يحيى ابن عبد الله بن الحسن ! أخشى أن تجهل أن الرشيد قد نكب البرامكة ! فتضاحك القوم متغامزين حتى قال ابن معروف : إذا كنت أنا الذى وضحت

أمر العباسة أخت الرشيد ، وفندت ما قيل عنها بالدليل ، فكيف أجهل نكبة البرامكة ! وقد سمعتم منى ما أقنع وكفى ؟

قال الوزير : أنت أيها القاضى تتجاهل ، وحاشا لله أن تجهل ، وسيتولى ابن قريعة تفصيل أمر يحيى بن عبد الله ما دام قد جعله القشة التى قصمت ظهر البعير .

قال ابن قريعة : كان البرامكة يميلون إلى حقن الدماء بعامة ، ودماء أهل البيت من العلوية بخاصة ، وحين ثار يحيى بن عبد الله بن يحيى ببلاد الديلم ، واجتمع حوله العدد الكثير ، فزع الرشيد فزعاً شديداً ، لأن ثورة العلوى ليست كثورة الخارجى ، فالعلوى قريب من نفوس الناس لصلته برسول الله ، ولأنه فى نظر الأكثرية صاحب حق اغتصبه العباسيون ، ففكر الرشيد فيمن يقود الجيش لمحاربته ، ثم اهتدى إلى الفضل بن يحيى ، وكان الفضل من المروءة والنبل بحيث لم يستسغ أن يجرى دماء المسلمين قبل أن يبذل كل حيلة فى منع القتال ، وترجيح السلام ، فأخذ يكاتب يحيى بالأمان ، وبأنه سيلقى من الدولة كل احترام ورعاية إذا كف عن القتال ، وأنه يضمن الرشيد فى الوفاء ، وله المال الذى يرضيه ، والمنزل الذى يبتغيه .

وما زالت الرسل تجىء وتذهب فى المفاوضات ، حتى رضى يحيى ، وسلم نفسه للفضل ، ورجع به للرشيد ، وقد سر الرشيد بما كان من الصلح ، وعد ذلك مكرمة للفضل لاتجحد ، ووفى بالأمان وبما طلب يحيى من المنزل والمال ، ولكن أعداء البرامكة رأوا فى حقن الدماء من الفريقين ما اصطادوا به فى الماء العكر ، فأوعزوا للرشيد أن يقبض على يحيى ، وأن يسجنه بمنزل تحوطه الرقباء والشرطة حتى لا يستطيع الإفلات .

وعلم الفضل بما حاوله الرشيد ، فساءه أن ينقض أمير المؤمنين عهده ، وجعل يذكره بالوفاء ، فاغتنم الفضل بن الربيع هذه الفرصة ، ليقول للرشيد : إن الفضل متواطئ مع يحيى ضد الخلافة ، ورأى الرشيد أن يكون صحيح الموقف أمام الفضل ، فقال : لا ضير على يحيى بن عبد الله ، حيث سأوكل به أخاك جعفر ، ليكون محبسه لديه ، فهو صاحب أمره ولن يضار .

وفى إحدى الليالى زار جعفر يحيى فى محبسه ، فقال له : اتق الله يا جعفر فى أمرى ، ولا تتعرض لأن يكون خصمك غداً رسول الله يوم العرض حتى تؤذى أهل بيته فوالله ما أحدثت حدثاً ولا جئت بمنكر ، فرق قلب جعفر ، وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، قال يحيى : وأنى أذهب ، وأنا لا آمن أن أعتقل بعد قريب فيرَدّ بى إلى أمير المؤمنين ، فوجه جعفر من سار معه إلى حيث يريد ، ليحميه من غوائل الطريق ، وكان للفضل بن الربيع عين على جعفر ، فجاءه النبأ ، وسرعان ما انتقل به إلى الرشيد ، ففوجئ به ، وانتظر حتى جاء جعفر للغداء معه ، فقال له : ما فعل يحيى بن عبد الله ، قال جعفر : هو بحاله عندى يا أمير المؤمنين ، فقال الرشيد : بحياتى هو لديك ؟ فأحجم جعفر لأنه كان يعلم أن وراء السؤال ما وراءه ، ثم قال : لاوحياتك يا سيدى ، لقد أطلقته حين تأكدت ضعفه وأنه لا شىء عنده ، ولا مكروه لديه ، فقال الرشيد ماكراً : لم تعد مافى نفسى ، فلما خرج أتبعه بصره ، حتى كاد يوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ، إن لم أقتلك ، ومن هنا بدأ يتنمر للقوم ، حتى ليحيى والد جعفر الذى جالد الهادى فى سبيل خلافته ، ثم دبر له الأمر بعد أن تولى إمارة المؤمنين ! هذا ما كان من أمر يحيى بن عبد الله مع جعفر ..

قال التنوخى : أعجب كل العجب لمسلك جعفر حين أطلق يحيى على غير رغبة مولاه ، وجعفر صاحب ذكاء وفطنة فكيف غاب عنه هول ما صنع ؟

فرد الوزير المهابى يقول : كان جانب المروءة لدى جعفر أقوى من جانب السياسة ، وقد ظن أن الرشيد بما يحمله له من الود سيطمئن إلى وجهة نظره حين يعلنها إليه ، وماله لا يظن ذلك ، والرشيد لا يتغذى إلا معه إذا كان ببغداد ، كما كانا يتبادلان لباس الحلة الواحدة ، بحيث ترى اليوم على الرشيد ، وترى فى الغد على جعفر ، فإذا تأثل الحب إلى هذه الدرجة ، فجعفر معذور حين يعلم أن الرشيد لن يشك فى نيته حين يطلع على حقيقة ما كان ! على أن جعفراً قد أدرك عاقبة أمره حين رأى من أعمال الرشيد بعد إطلاق يحيى بن عبد الله ما يدل على الانقباض والتربص ، بل إن والده يحيى أدرك ذلك بما لاشك فيه ، وحاول أن يرتق الصدع فما استطاع ، لقد تغير الرشيد على يحيى ، ولم يقع فيما وقع فيه جعفر

من المؤاخذة ، لا لشىء سوى ما اعتزمه من الخلاص من يحيى وأولاده جميعاً ، فيسكت زبيدة ، ومن حولها من الأتباع .

قال التنوخى : ويلى من الرشيد ! لقد قرأت بعضاً من مواقفه الأخيرة مع يحيى الذى كان يدعوه بأبيه ، ويقول له أمام الناس : يا أبى ، دون تحرج ، قرأت بعض ما رحمت به يحيى ، إذ لاقى الهوان على كبر السن ، وضعف الشيخوخة ، لاقاه أمام الناس ، فعرف مغزاه ، وأدرك مرماه .

قال الوزير : لقد شوقنى القاضى فليفصح .

قال القاضى التنوخى : روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل ، قال : إنى لقاعد فى مجلس الرشيد ، إذ طلع يحيى بن خالد ، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ، فلما دخل ، وصار بالقرب من الرشيد وسلم عليه ، رد رداً ضعيفاً ، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ، ثم أقبل الرشيد على جبريل ، فقال : يا جبريل ، أيدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بغير إذنك ، ؟ فقلت : لا ، ولا يطمع فى مثل ذلك ، قال الرشيد : فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ؟ فقام يحيى ، فقال : يا أمير المؤمنين قدمنى الله قبلك ، والله ما ابتدأت ذلك الساعة ، وما هو إلا شىء كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى ، حتى كنت أدخل عليه وهو فى فراشه ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، وإذ علمت فإنى من الآن سأكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة ، إن أمرنى سيدى بذلك ! فاستحيا الرشيد ، وأطرق إلى الأرض خجلا ، ثم قال : والله ما أردت ما تكره ، ولكن الناس يقولون .

وهناك قصة أخرى مشابهة : فقد كان يحيى بن خالد إذا قدم على الرشيد نهض الغلمان له واقفين ، فقال الرشيد لمسرور الخادم ! مر الغلمان إذا دخل يحيى الدار ألا يقوموا له ، فدخل الرجل الكبير ، فلم يقم له أحد واربد لونه ، وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من الماء فلا يسقونه إلا بعد أن يكرر الطلب مراراً .

هذه بعض مواقف الرشيد ممن كان يدعوه أباه ! فكيف بسواه ، إن النذر تجمعت فتلبد الأفق ، واكفهر الجو ، وتمت المأساة !

وهنا صاح ابن معروف : بربكم لا تعرضوا إلى شيء من تفصيل النهاية الأليمة ، فأنا أشعر بالضيق ، حين أرى القتل والغدر والسجن والجوع والعرى نزل بقوم كانوا فى الأوج فصاروا إلى الحضيض .

قال الوزير : وإذا شئنا أن نتحدث ، فإن الوقت لا يسمح ، ولكنى استفدت كثيراً من حديث البرامكة ، وأعظم ما أفدته أنه شغلنى بعض الوقت عما أنا فيه ! بل جعلنى أعتقد أن ما أنا فيه شيء هين بالقياس إلى ما عرفت من الأنباء !

ونهض الوزير ، فنهض القضاة من خلفه ، وفى كل صدر شجون ، وفى كل عقل عظة واعتبار .

اقدام عمرو

كان جماعة إخوان الصفا ببغداد ، يجتمعون كل ليلة لمناقشة المسائل الفلسفية ، وكان منهم : أبو سليمان البستى ، وزيد بن رفاعة ، وأبو الحسن العوفى ، وأبو أحمد المهرجانى ، وأبو على بن هارون ، وكلهم قد قرأ كتب الحكمة والمنطق ، وحاول أن يكون له رأى فى معضلات الفلسفة ومشكلات الطبيعة ، ثم سافر أبو أحمد وأبو على إلى الحج ، فآثر من بقى ألا يخوضوا فى مسائل الفلسفة حتى يرجعا ، فقد يكون لديهما ما ينير الطريق ، وإذا كانت الرسائل التى يدونونها تعبر عن آرائهم جميعاً ، فلابد أن يكتمل العقد .

قال أبو الحسن العوفى لأخويه : وهل سنجتمع هذه الليالى دون حديث .

فقال أبو سليمان : نتكلم فى غير موضوع الفلسفة، نتكلم فى الأدب والتاريخ !

قال زيد : أنرتفع أم ننخفض .

فصاح أبو سليمان : عجباً يا زيد ، ماذا تصنع إذا ضقت بأمر الفلسفة فى بعض غوامضها الحالكات ، أما تلجأ إلى ديوان شعر يروح عنك !

فقال أبو الحسن : كنت الظهيرة أقرأ ديوان أبى تمام وقد وقفت عند قوله فى مدح أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

إذ علمت أنهم يروون عن الفيلسوف يعقوب بن إسحق الكندى ، وكان من جملة حاشية الأمير ، أنه صاح فى أبى تمام : الأمير فوق هؤلاء ، أيجوز أن تشبهه بأجلاف العرب ؟ قرأت ذلك فاستنكرته من أستاذنا الفيلسوف ، لأن أقل واحد من هؤلاء أفضل من الأمير ! ومن والد الأمير .

قال أبو سليمان : إخال أن مثل يعقوب الكندى فى سعة قدره ، وعلو كعبه ، لا يتورط فى هذا الملق الرخيص ، وإنما أضيف إليه مالم يقل، وقد يكون المعترض سواه ، فرأى المتزيدون أن يرتفعوا بالاعتراض إلى الكندى .

قال زيد: إذا كان لابد من حديث الأدب والتاريخ، فلنقف عند هذا البيت فى حديث الليلة .

فقال أبو الحسن : أوتكفى ليلة للحديث عن أربعة من الكبار ؟ ولكل منهم تاريخ حافل يجب أن يمحص على وجه دقيق .

فقال أبو سليمان : لنجعل لكل واحد ليلة ، ولنبدأ بما بدأ به أبو تمام !

قال زيد : نبدأ بعمرو : إنهم يقولون : إن المراد به عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وأنا أراه عمرو بن العاص .

قال أبو سليمان : لا أظن أبا تمام قد عنى ابن العاص ، لأن الممدوح عباسى ، والعباسيون والعلويون معاً يضيقون بكل من ناصر الأمويين ، وكان عمرو ابن العاص حليف معاوية الأول ، ولكن لماذا لا يكون عمرو بن معد يكرب ، وهو فارس مشهور .

قال زيد : هو أضعف الأربعة الذين ذكرهم أبو تمام ، فلا يقاس بحاتم أو الأحنف أو إياس .

قال أبو الحسن : وهل يلزم أن يكون الأربعة فى مستوى واحد ، ليكونوا كأصابع اليد ، تختلف وتؤدى عملها !

قال زيد : لعمرو مثالب كثيرة ، وله فضائل كثيرة ، بحيث توازى الحسنات السيئات ، أما الثلاثة الآخرون فلا تكاد تعد عليهم نقيصة .

وما تستوى الرجلان رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

قال أبو الحسن : لنذكر محاسن عمرو أولا ، فهو صاحب الغارات الذائعة فى الجاهلية والإسلام ، وقد أسلم على يد رسول الله .

قال زيد : ثم ارتد .

قال أبو سليمان : ثم أسلم وأبلى بلاء حسناً فى حروب فارس ، ومات على الإسلام .

قال زيد : تطيران بالكلام طيراناً ، كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، نريد تفصيلا شافياً ، فلسنا رواة طرائف ، ولكننا حكماء .

قال أبو الحسن : أعرف أن عمرو بن معد يكرب ، كان فارس اليمن وبطلها المعلم ، وقد قدموه على زيد الخيل !

قال زيد بن رفاعة : قدموه فى بعض مواقف القتال فحسب ، أما فى المروءة والأريحية فزيد الخيل سيده ، وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقد سمعتم أنى أقول فى بعض مواقف القتال ، وإخال أن حزم زيد الخيل كان يمنعه من التهور ، وله رحمة تدفعه إلى التوقف ، أما عمرو فلا يبالى إلا بأن يذكر بأنه قتل ، وأنه صرع ، وأنه نازل !

قال أبو الحسن : نحن الآن فى ذكر محاسن عمرو ، فلا تعجل يا أخى ، لقد كان عمرو بن معديكرب فارس اليمن ، وبطلها الصنديد ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من غزوة تبوك ، ومعه فروة المرادى ، فاختار رسول الله فروة أميراً على زبيد ومراد ومذحج ، فاغتاظ عمرو ، وارتد عن الإسلام مع من ارتد من أهل اليمن ، فوجه رسول الله من حارب المرتدين ، فهزم عمرو مع أصحابه ، وفر تاركاً ذوى رحمه ومنهم أخته (ريحانة) ، وفى هذه المعركة سقطت منه (الصمصامة) ! ويروى أنه جعلها فداء لأخته (ريحانة) ، إذ كان عمرو بن العاص قائد المسلمين ، وآلت إليه أخت عمرو ، فاحتال حتى افتداها بسيفه .

قال زيد : وما الصمصامة التى فاض حديثها ، أليست سيفاً كالسيوف ؟

قال أبو سليمان : نعم ، ولكنها سيف عمرو ، أذكر أن عمر بن الخطاب قال لعمرو بن معديكرب : تذكر الصمصامة وتلهج بها ، وقد رأيتها فلم تزد شيئاً عن غيرها .

فقال عمرو : ولكنك لم تر اليد التى تضرب بها يا أمير المؤمنين ، وكان فى عمرو جرأة ، فاحتد النقاش ، فأغلظ له عمر ، فقال عمرو على البديهة :

أتوعدنى كأنك ذو رعين بأنعم عيشة أو ذو نواس

فتراجع عمر وصالحه !

قال زيد : إن الذى يفر من الميدان ، ويترك أخته ، ليس البطل المعلم ؟

فرد أبو سليمان : تعترض دائماً فى أمر عمرو ، كأنك لا تعلم أن الفرار فى موضعه حزم ، وأن الإقدام فى غير موضعه بلاء .

قال زيد : وما عندك من محاسنه ؟

فأجاب أبو سليمان : عندى ما عند المؤرخين جميعاً ، فقد ذكروا أن عمراً يوم القادسية وجد المسلمين قد أحجموا بخيولهم أمام الفيلة ، وفيهم من لم يشهدها من قبل ، وتقدمت الفيلة تحطم من أمامها ، وما أمامها ، وهنا تقدم عمرو بن معديكرب فضرب الفيل بسيفه ضربة شقت خرطومه ، فطار سريعاً من أمامه ، وولى الفيل الطعين ، فولت خلفه الفيلة !

قال أبو الحسن : لقد قيل هذا عن المثنى بن حارثة من قبله ! إذ ضرب الفيل ضربة هائلة ، فذعر بفارسه ، وقال الفرزدق يفتخر بالمثنى :

ومنا المثنى ضارب الفيل سيفه ببابل إذ فى فارس حكم بابل

فأجاب أبو سليمان : إذا كان عمرو مثل المثنى ، فهو فخر له ، فالمثنى بطل مغوار ، وقد سبق المثنى ، واحتذاه عمرو ، فما ينقص الاحتذاء شيئاً من بطولة صاحب الصمصامة !

قال سليمان ! الحق ما قلت ، وله موقف فى فارس أبلى فيه بلاء حسناً ، ففى يوم أرماث كبر سعد بن أبى وقاص التكبيرة الأولى للقتال ، فكبر خلفه المسلمون وانطلق عمرو بن معديكرب يحث الناس أن يقتلدوا به ، ويمضوا خلفه ، ولكن فارساً ضخماً من أبطال العجم ، هجم على المسلمين ، وجعل يضرب ذات الشمال وذات اليمين ، حتى أوقع الذعر فى النفوس ، وهابه القوم ، فتباعدوا عنه ، ورأى ابن معديكرب هيبة القوم ، وشجاعة الفارس العجمى ، فاتجه إليه ، وأوقع سيفه من يده بضربة حاسمة ، ثم دفع منطقته إليه ، فضمه بها إليه ، واعتنقه ، حتى صار بين يديه ، فجعل يتخلص منه دون جدوى ، وكان عمرو كبير الحجم إلى درجة تلفت النظر حتى قال ابن الخطاب مستعظماً منظره حين رآه لأول مرة : إن خالق الناس وخالق ابن معديكرب إله واحد ! ! أقول لم يطق العجمى على قوته خلاصاً من ساعدى عمرو ، فكسر أضلاعه ، ورمى به إلى الأرض ، وصاح بالمسلمين : هيا فافعلوا بأعدائكم هكذا ! وتحمس القوم ، وتم النصر .

وفى هذه المعركة سقط رستم جريحاً يعانى سكرات الموت ، بضربة من عمرو إذ كان فى الميدان يتقدمه أسوار من أكابر الأساورة يحرسه ويقيه ، وللأسوار براعة فى ضرب النشاب ، فكان يبعث بسهمه فيصيب ، ولا يجرؤ أحد أن يتقدم إليه ، لأن السهم يميت لساعته ، حتى ظن المسلمون أن سهامه مسمومة ، فهى تجرح بحدها ، وتقتل بسمها حين تصيب ، وتفرق الناس عن رستم ، إذ حوله الأسوار كحصن منيع ، وهنا تقدم عمرو ، فقال له المسلمون : رفقك يا أبا ثور فلم يحجم ، وأحس به الأسوار فرماه بسهم مال منه عمرو فوقع فى بطن فرسه ، فسرعان ما ترجل عمرو ، وعاجل الأسوار بسيفه قبل أن يتهيأ للرمية الثانية ، ثم حمله بين ساعديه ، وألقاه على الأرض ، وسلبه ما كان يحمل من ذهب وديباج ! وقد افتخر عمرو بما صنع فقال :

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا

ولعلنا نعرف أن عمر بن الخطاب أمد سعد بن أبى وقاص بثلاثة أبطال ، أحدهم عمرو بن معديكرب ، وقال له : كل بطل بألف ! ولن تخيب نظرة عمر !

قال أبو الحسن : وإذا كان لابن معديكرب هذه المآثر فما الذى يؤخذ عليه حتى يكون دون حاتم والأحنف وإياس ! ممن ذكرهم أبو تمام !

قال زيد بن رفاعة : يؤخذ عليه كثرة الكذب ، إذ أن الشجاع الصنديد ذو مروءة تمنعه الكذب ، مثل على بن أبى طالب .

فصاح أبو سليمان : تخطئ حين توازن أحداً بعلى كرم الله وجهه ، لأن فضائله الخلقية تسرى فى دمه ، فهى مكارم تتجسد ، وبمكارمه انهزم فى دنيا اللؤم والهوان !

قال زيد : ولكن عمرو بن معديكرب كان يكذب كثيراً ، ووجه بكذباته فما ارتدع ؟

فقال أبو الحسن : وجدت مجالك فتحدث عن بعض هذه الأكاذيب !

فأجاب زيد : روى أبو عمرو بن العلاء قال : وقف عمرو بن معديكرب يوماً بالمربد يتحدث عن شجاعته فقال : غزوت فى الجاهلية بنى مالك ، فأقبلوا متحمسين خلف خالد بن الصعقب ، فحملت عليه بالصمصامة فأخذت رأسه ،

ورفعتها عالقة بسيفى ! فقال أحد السامعين : مهلا يا عمرو ، ها هو ذا خالد ابن الصعقب يجلس أمامك ! وقال خالد : مهلا يا عمرو فقد فررت يومها منى ، فلم يستحى عمرو وقال : أنا أتحدث لأرهب الناس بمثل هذه الأخبار ، فتسير لى هيبة بين العرب أفزع بها من يهم بالنزال ، فقال خالد : إذن أنت شجاع فى الحرب والكذب معاً . قال عمرو : وما على .

ثم قال زيد : وتحضرنى عنه نادرتان أخريان ، فقد تحدث عن نفسه فقال : خرجت مرة أريد الغارة ، فبينا أنا أسير إذا بفرس مشدود ، ورمح مركوز ، وإذا رجل جالس وهو كأعظم ما يكون من الرجال خلقاً ، وهو محتب بسيفه ، فقلت له : خذ حذرك فإنى قاتلك ! وقال : ومن أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معديكرب الزبيدى ، فشهق شهقة فمات ! فهذا أجبن من رأيت !

قال أبو الحسن : وهذه كالكذبة الأولى ، فهات الثالثة .

قال زيد : قال عمرو : خرجت يوماً حتى انتهيت إلى حى ، فإذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز ، وإذا صاحبه فى وهدة ، يقضى حاجته ، فقلت : خذ حذرك فإنى قاتلك ، قال : من أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معديكرب الزبيدى ، قال : يا أبا ثور ، ما أنصفتنى ، أنت على ظهر فرسك ، وأنا فى بئر ، فأعطنى عهداً أنك لا تقتلنى حتى أركب فرسى ، وآخذ حذرى ، فأعطيته عهداً على ذلك ، فخرج من الوضع الذى كاد فيه حتى احتبى بسيفه وجلس ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسى ولا مقاتلك ، فإن نكثت عهدك فأنت خائن فتركته احتراماً للعهد ، فهذا أحيل من رأيت !

قال أبو سليمان : يخيل إلى أن فى الناس من يحلمون وهم متيقظون ، فيتصورون أفعالا لم تحدث ، فإذا امتلأت بها خواطرهم تحدثوا عنها كأنها حصلت بالفعل ، وعمرو فى رأيى من هذا الطراز .

فرد زيد بن رفاعة : إذن أنت تبيح الكذب للناس بدعوى أنهم يحلمون ثم يعتبرون الحلم واقعاً ؟

قال أبو سليمان : أأقول لك ما قال الرجل المحتال لعمرو : ما أنصفتنى ، لأنى

لا أبيح الكذب ، وحاشا أن أكون ! ولكنى أعلل كذب أمثال عمرو ، وتعليل الشىء غير إباحته .

قال زيد : لقد هجت كبيشة أخت عمرو أخاها ، حين قبل الفدية فى مقتل أخيه وأخيها عبد الله ، فقالت من أبيات :

ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم

فجابهه أبو سليمان قائلا :

هذه حادثة مشتهرة ، ولعل عمراً كان فى نفر قليل من قومه ، وكان أعداؤه من بنى مالك بن مازن ، أوفر عدداً ، وأكثر سلاحاً ، فآثر السلامة ، لأن مثله فى ذيوع ذكره لا يقبل الضيم غير مضطر ! هذا ما أراه .

فهم زيد أن يعقب ، فقال أبو سليمان : لقد اكتفينا بما ذكرنا الليلة عن عمرو ابن معديكرب ، وبقى أن نتحدث فى ليلات ثلاث آتيات عن حاتم وأحنف وإياس ، لكل علم ليلة ! وبذلك ننسى الفلسفة إلى حين .

قال أبو الحسن : وفيمن نتحدث الليلة المقبلة .

فرد أبو سليمان : نتحدث عن حاتم وفقاً لترتيب أبى تمام ، فبيته الشائع هو الذى حدد مجرى الحديث ! وعلى بركة الله .

ثم نهض القوم منصرفين .

سماحة حاتم

جاءت الليلة الثانية فاجتمع إخوان الصفاء ليتسامروا عن حاتم ، فقال أبو سليمان البستى : إنى أحس بأريحية تملأ نفسى هذه الليلة ، فلعل حاتماً بنوادره الرائعة أوحى بهذه الأريحية إلىّ ! لأن أحاديثه ترتفع بالإنسان إلى أعلى من مستواه وليست أحاديث كرمه فحسب ، بل إن شعره أيضاً يسمو بنفس قارئه ، لأنه هتاف بالفضائل .

قال زيد بن رفاعة : عهدت أبا سليمان يشيح عن الشعر والشعراء إلى فلسفة الحكماء ، فماذا جرى اليوم ؟

فقال أبو سليمان : ليس كل الشعر مما أشيح عنه ، والشعر كلام يحمل المعانى الهابطة ، كما يحمل المعانى العالية ، فما ارتفع بقارئه من هذا الضرب من الكلام فهو مرغوب مطلوب ! قد أكره شعر المجون وشعر النفاق الكاذب ، وشعر الغزل الفاحش ، وشعر الهجاء المسف ، أما شعر الفضائل الرفيعة ، والمثل النبيلة ، فكيف يشيح عنه مفكر ذو رسالة ؟ إذا سمعنا قول حاتم الطائى مثلا :

إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع ... رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك ، وإن كان العقاب فعاقب

فماذا نقول فيه ؟ نقول : إنه داع للتعاون الإنسانى ، فى أجمل صوره ، وهل يستطيع بدوى يعيش فى الصحراء أن يأتى بأجمل من هذا المشهد فى حب الناس وتقديم المساعدة لمن يحتاج .

فشخص أبو الحسن العوفى ببصره كمن يريد أن يتحدث ، فقال له زيد ابن رفاعة : كأن لديك ما تقول ؟

فقال أبو الحسن : لقد ترك أبو سليمان البيت الثالث وهو أولى من سابقيه حيث يقول حاتم :

وما أنا بالساعى بفضل زمامها ... لتشرب ماء الحوض قبل الركائب

فهو فى هذا البيت يؤثر على نفسه سواه ، إذ يترك المجال لإخوانه كى يستقوا وتشرب ركائبهم قبل أن يشرب وتروى ناقته ، وقد ينفد الماء قبل أن يرد ، وهو بذلك يؤثر العطش متحملا مجاهداً ، أما البيتان الأولان فنص فى المشاركة المتكافئة ، فهو يركب كما يركب رفيقه ، ولا خوف عليه ألا ينال نصيبه ! ومن هنا رجح لدى البيت الثالث !

قال أبو سليمان : إنك لنقاب ، ولكننا حين نحكم على شعر حاتم ، لا نحكم على نص دون نص ، وقد طالعنا كل ما وقع لدينا من شعره ، فعرفنا اتجاهه الأسمى ، ولا يضيرنا أن نأتى بنص ونترك نصاً يماثله ! فالمراد الاستشهاد ، على أن طرافة اتجاه أبى الحسن لا تخفى ، فهو متأمل فاحص .

قال زيد : الشعر شعور ، والشعور النبيل يرفع صاحبه ، ولا يهمنا أن يكون الخاطر الذى يتحدث عنه الشاعر مألوفاً يفد على الذهن دون تعمق ، فحاتم إذ يقول :

رب بيضاء فرعها يتثنى ... قد دعتنى لوصلها فأبيت
لم يكن بى تحرج غير أنى ... كنت خدناً لبعلها فاستحيت

لا يجىء بمعنى طريف ، ولكنه يجىء بخاطر شريف ، هذا الخاطر مما يعز تنفيذه دون مجاهدة ، وأنا أرى أن مثل حاتم لم يجاهد نفسه كثيراً ، لأنه طبع على المروءة طبعاً لا تصنع فيه ، فهو يرى الشرف أبقى من اللذة ، بل يرى الشرف لذة دونها كل ملذات الحياة ، وهذا ما يحببنى فى مثل هذين البيتين .

قال أبو سليمان : أسنتحدث عن الشاعر ، أم سنتحدث عن الكريم المفضال !؟

فرد أبو الحسن : إن حاتماً شاعر كبير ، ولكن شهرته بالكرم قد أنست الناس غرر أبياته ، وقد بدأت أنا الاستشهاد بشعره ، لأحفظ له مكانه الرفيع بين الشعراء وها هو ذا زيد يستشهد بأنموذج آخر ، على أن الناس يروون له الكثير ، ولكنهم يقفون عند السطح فيما يروون ، ويكتفون بالمعنى الظاهر حين يشرحون ! وليتهم يتعمقون !

سكت القوم قليلا ، وكأن كل واحد قد سرح بفكره فى اتجاه خاص ، حتى إذا مضت برهة من الزمن ، قال أبو سليمان :

لننتقل إلى أخبار حاتم بعد أن استشهدنا بشعره ، وأنا أسأل : أما دخلت المبالغة كثيراً مما روى عنه ! وكيف نميز بين الدخيل والأصيل .

فصاح زيد بن رفاعة يقول : عجباً أبا سليمان ، أمثلك يقول : كيف نميز بين الدخيل والأصيل ، وأنت الذى يقرأ دقائق الفلاسفة ذات العمق الموغل ، فيعرف صحيحها من الزائف ، وهل الأخبار التى تروى عن حاتم غير تاريخ يتداول ! وأين ينزل التاريخ من منازل الفكر إذا قيس بما تزاول من المنطق والحكمة يا أخى ؟

قال أبو سليمان : هناك أخبار يظهر عوارها الواضح دون أدنى توقف لبعدها عن المألوف المشاهد ، وتلك لا تحتاج إلى بحث ، ولكن أخباراً أخرى تدخل فى حيز المعقول وقد تكون مما لم يحدث ، فما موقفنا منها ، ولا نملك أدلة الإثبات الجازم ، كما لا نملك أدلة النفى الصريح ، أتعرفون قصة أبى الخيبرى عن حاتم ، إنها ظاهرة البطلان بداهة ، ولكن غيرها مما لا نملك له دفعاً ، فماذا نقول فى شأنه ؟

قال زيد بن رفاعة : ولكنى لم أعرف قصة أبى الخيبرى هذه ، فما فحواها ؟

قال أبو سليمان : يزعمون أن أبا الخيبرى مر بقبر حاتم مع رفاقه ، فضرب خيمته لديه ، وقال : أقر أضيافك يا حاتم فنحن بجوارك ، ثم نام ، ولكنه هب مذعوراً يقول : رأيت فى النوم أن حاتماً نهض من قبره ، وذبح ناقتى ، ثم اتجه إلى مبرك الناقة فوجدها ذبيحة دمها يسيل ، فقال أصحابه : إذن قام حاتم بواجبه وقراك وقرانا معاً ، فأخذوا يهيئون اللحم ، وظلوا معرسين قرابة يوم ، وحين هموا بالرحيل وجدوا صائحاً يهتف : ألا انتظروا ، فإذا عدى بن حاتم ومعه راحلتان يركب واحدة ، ويقود الأخرى ، ويقول : إن أباه جاءه فى نومه وأمره أن يحمل ناقة إلى من يجلسون لدى قبره لتكون عوضاً عن تلك التى ذبحت ، ففرح أبو الخيبرى وأخذ راحلة مكان راحلة .

قال زيد : إذا كانت هذه الواقعة ظاهرة التلفيق ، فلها من ناحية أخرى مغزاها الصحيح ، وهو أن حاتماً قد اشتهر بالكرم ، ولم يرد طارقاً فى حياته ،

ومن ثم تخيل من اخترع القصة أن كرم حاتم قد امتد إلى ما بعد وفاته ، والخيال يجسد الحقيقة ، ولا يذهب بمضمونها !

قال أبو الحسن : هذا صحيح ، وإذا كان المثل قد ضرب بحاتم فى مضمار الكرم ، فإن شيوع المثل السائر لن يكون عن تزيد وافتعال ، وبخاصة إذا ورد لحاتم ذكر طيب فى حديث النبوة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر من أن يخدع بحديث موهوم ، ولكنه عرف مكانة حاتم فأقرها ، فقد علمنا أن رسول الله قد وجه إلى طيئ بعثاً من جنده بقيادة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فصبح القوم ، واستاق خيلهم وسباياهم ، فلما عرضت الأسرى على رسول الله نهضت (سفانة) بنت حاتم فقالت :

(يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإن أبى كان سيد قومه ، يفك العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ، ويحمى الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكل ، وما جاءه أحد فى حاجة فرده خائباً ، أنا بنت حاتم الطائى) .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا جارية : هذه صفات المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، ثم التفت صلى الله عليه وسلم إلى صحابته فقال : (ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال) ، وامتن عليها بقومها فأطلقهم تكريماً لها !

لقد أطلق الرسول أسارى طيئ من أجل حاتم !

قال زيد بن رفاعة : لقد أحببت حاتماً لهذه الصفات ، وما أريد أن ينقطع الحديث عنه ، فهل من مزيد ؟

قال أبو سليمان : أول ما قرأت من سيرة حاتم أن امرأته (ماوية) تحدثت عنه ، فقالت : أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض ، واغبر أفق السماء ، وضنت المراضع على أولادها ، وأيقنا بالهلاك ، وإنا لفى ليلة باردة ، إذ تضاغى صبيتنا جوعاً : عبد الله وعدى وسفانة ، فقام حاتم إلى الصبيين ، وقمت إلى الصبية ، نتعلل بالحديث ، وأدركت حرج حاتم ، فتناومت ، فلما مضى جزء من الليل ،

سمعت طارقاً يطرق ، فنهض حاتم يقول : من هذا ، فقال الطارق : أنا جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب ، فما وجدت معولا إلا عليك، يا أبا عدى ، فقال حاتم : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم ، فأقبلت المرأة تحمل اثنين ، ويمشى بجانبها أربعة كأنها نعامة حولها أولادها ، فقام حاتم إلى فرسه ، فذبحه ، ثم كشط عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة وقال لها : شأنك ، فقمت وقمنا نشوى اللحم ، وأكلنا جميعاً دون حاتم، لأنه جعل يسير فى بيوت الحى ويصيح: هبوا أيهـا القوم فلدينا ما يشبع ، ثم جلس فى ناحية منعزلة ينظر إلى الآكلين ، فلا والله ما ذاق من فرسه مضغة !

قال أبو الحسن : هـذا عجيب ! لقـد جاع أولاد حـاتم ، وجاعت أمهم فما صنع لهم شيئاً ، حتى إذا استنجدت به جارته ، عصفت به النخوة ، فذبح فرسه الوحيد ، وأكل جميع من حوله سواه ، أفكان أولاد الجارة أعز عليه من أولاده هو ؟

فأجاب أبو سليمان : ذهبت بعيداً يا أبا الحسن ؟ فحاتم والد حنون ، ولكنه قدر فى نفسه أن امرأته وأولاده سيصبرون حتى الصباح ، ولن يشكوا فى حبه ومقدرته ! أما المرأة الغريبة ، وقد جاءت تتذلل وتضرع أمام سيد جواد ، فلابد أنها ستدفعه إلى العمل السريع ، وأى عمل يتاح فى ليلة شاتية سوداء ! لم يجد أمامه غير الفرس فذبحها ! وأطعم الناس ! وجلس بعيداً ينظر !

قال زيد : وهل نصدق أنه — وهو الجائع — امتنع أن يصيبه من طعامه وقد أكل منه جميع جيرانه .

قال أبو سليمان : نسيت شيئاً ، نسيت لذة الكرم عند الكريم ، إن هذه اللذة ذات العذوبة الشهية تنسى صاحبها قسوة الجوع ، وتملأ نفسه شبعاً ورياً وقناعة ! إنه كان يحس إذا مضغ ضيفه الجائع لقمة من طعامـه ، أنه هو الذى يأكل ، وللكرم أريحية ترنح الطود ، فكيف بشاعر كحاتم ! لقد بلغ من سخائه أن ضاقت به امرأته — وهى ذات كرم مفرط هى الأخرى — فطلقته ، إذ رأته لا يبقى على شىء ينفع أولاده ساعة الشدة ، وكأنها رأت أن يرعوى بعد فراقها ، فيحفظ

لأطفاله ما يصون وجوههم ، وهم سادة أبناء سيد ، ثم قارنته بسواه ، فآثرت الرجوع إليه .

قال أبو الحسن : أريد إيضاح ما قلت ، فقد لا يغنى الإجمال .

فابتسم أبو سليمان ، وقال : سأتكلم وأتكلم، وتسكت أنت يا أبا الحسن لتسمع:

قال أبو الحسن : وما عليك إذا أفدت وأمتعت .

فانطلق أبو سليمان يقول : لقـد كانت ماوية زوج حاتم من أجـل النساء وأكرمهن ولكنها ضاقت بإسراف حاتم إذ جاوز المعقول لديها ، ونظرت إلى ابن عمه مالك فوجدته ذا ثراء موفور ، وقد أوهمها أنه جواد مقتصد ، يجود بشىء ، ويدخر شيئاً ، فاطمأنت إليه ، وقد خدعها حتى مالت إليه فى ساعة غضب مع حاتم ، حين أحضر جماعة من الضيفان ليأكلوا جميع ما فى بيته، وأولاده ينتظرون،

قال الراوى : وكان بعض النساء يطلقن الرجال فى الجاهلية ، إذا اشترطن عليهم ذلك فقبلوه قبل الزواج ، وكان طلاقهن أن يحولن أبواب بيوتهن ، فإذا كان الباب بالمشرق جعلته إلى المغرب ، فمتى وجد الزوج ما صنع بالباب انصرف وجاء حاتم فرأى ما صنعت ماوية ، فقال : هو شرطها ولا عليها ، واتجه إلى مكان آخر مع أولاده ٥

وكشفت الأيام عن حقيقة مالك، فلم يكن كريماً ينفق شيئاً لأضيافه ، ويقتصد شيئاً ! كما حدث عن نفسه ، وفى ليلة شاتية جاء قوم فنزلوا على باب خباء ماوية فقالت لجارتها : اذهبى إلى مالك ، ليعجل أضيافه بما يبتغون ، فذهبت الجـارية بالرسالة ، فغضب مالك وقال لها : اذهبى إلى سيدتك ، وقولى لهـا : هذا الذى طلقت حاتماً من أجـله ، وما لدى أحـد على من حق ، فرجعت الجارية لتنقل ما سمعت ، فصاحت : ويلك ، اذهبى إذن لمنزل حاتم ، فقولى له : إن أضيافك جاءوا وهم لا يعرفون أنك تركت منزلك ، فأرسل إليهم بمـا يسعف ، فانطلقت الجارية كما أمرت ، فرأت حاتماً سهران غير نائم ، فقالت : سيدتى تقرأ عليك السلام ، وتقول : إن أضيافك قد نزلوا عليك فانهض بما يأكلون ، فقال : نعم وأبى ! وقام إلى ناقتين فسحبهما حتى أتى الخباء، فذبحهما ، ونادى الناس فأكلوا ؛

قالت ماوية : أما كفت ناقة ياحاتم ؟ هذا الذى طلقتك فيه ، ستترك أولادك وأولادى وليس لهم شىء ! ثم بكت ، فأوحت لحاتم بقصيدة رائعة يقول فيها :

أماوى إن يصبح صداى بقفرة ... من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلت به صفر

وهو منطق قد يعارض من قوم ، وقد يجد القبول من آخرين .

قال زيد بن رفاعة : ولكن عنّ لى سؤال بصدد حاتم : أفأجد لديكما رداً ؟

قال أبو سليمان : قل ، فقد نجد .

فقال زيد : حاتم ! لم يزد على أن ذبح النياق ، فسار له هذا الذكر ، وفى الناس اليوم من يجودون بأضعاف ما جاد به حاتم ، ولا نسمع عنهم شيئاً ، فلماذا ؟

قال أبو سليمان : نسيت الفارق بين وضع ووضع ! حاتم يجود بكل ما لديه وإن قل فى ميزاننا الآن ، فقد كان فى بيئته المجدبة أعظم جواد يمنح ، أما من يجودون بأضعاف أضعاف ما جاد به حاتم ، ثم لا يمضى لهم ذكر ، فإنهم مهما أنفقوا لا يجودون بمعشار ما لديهم ، ويدخرون الجامد والسائل ، وليس العطاء من بعض الكثير سماحة ، ولكن السماحة أن تجود بما لديك على قلته ! وهكذا فعل حاتم ، فمن مثله الآن ؟

ونهض مبتسماً ، فنهض صاحباه ، وهم يترقبون الليلة الثالثة .

حلم أحنف

ثم جاءت الليلة الثالثة ، فبدأ زيد بن رفاعة الحديث بقوله :

كلامنا الليلة عن الأحنف بن قيس ، وهو من أرفع الناس وأعلاهم كعباً فى رأيى ، لأنه ساد قومه صغيراً ، سادهم وهو دميم ضئيل قمىء ، إذ يحكى عبد الملك ابن عمير عنه فيقول : ما رأينا صفة تذم فى خلقة رجل إلا رأيناها فى الأحنف ، كان أصلع الرأس ، متراكم الأسنان ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنتين ، ماحق العينين خفيف العارضين ، أحنف الرجلين ، فكانت العين تقتحمه وتزدريه ، ولكنه مع ذلك كله إذا تكلم أصاب ، وإذا خطب أعجب ، ومع هذا البلاء النازل ، فقد ساد قومه ! ومن الذى رشحه لهذه السيادة ، وهو أصغر من فى وفد بنى تميم : إنه عمر بن الخطاب !

فرد أبو سليمان البستى ، فقال : فراسة عمر لا تخطئ ، ونظرته لا تخيب ، فقى أى مناسبة حظى الأحنف بتقدير الفاروق .

فتابع زيد قوله : تقدم وفد تميم للقاء عمر بالمدينة ، فجعل كل رجل يتكلم عن حاجته الخاصة ، ويسأل لنفسه ، حتى لم يبق أحد غير الأحنف ، وجاء دوره فلم يتكلم ، فقال عمر : ولم لا تتكلم أيها الشاب ؟ فنهض الأحنف يقول بسمت الشيخ وهدوء المحنك المتمرس : يا أمير المؤمنين ، إن العرب قد نزلوا من حولنا بمساكن طيبة ذات ثمار وأنهار ، وأكنة وظلال ، ونزلنا نحن فى سبخة نشاشة ذات ملح وضيق ، وإنما يأتينا الماء العذب من مثل حلق النعامة ، فإذا حفرنا الماء كان موضعه بعيداً ، ولا يدرك دون إجهاد !

فتطلع عمر ، وكأنه عجب لهذا الذى شذ عن قومه ، فسأل للناس عامة ولم يسأل لنفسه خاصة ! تطلع عمر للأحنف الصغير وقال : ثم ماذا ؟

قال : نريد أن يعم خيرك الفقراء ، فتخفف عن ضعيفنا ، وتنصف قوينا ، وتتعاهد ثغورنا ، وتجهز بعثنا !

قال عمر : ثم ماذا ؟ قال الأحنف : هذا كل ما أريد يا أمير المؤمنين ، فقد انتهت المطالب ، ووقف الكلام .

فصاح الفاروق : أنت رئيس وفدك ، وسيد قومك ، قم عن موضعك الذى أنت فيه ، وهلم إلى جانبى ، فجلس الأحنف جوار أمير المؤمنين ، وجعله يسأله عن نسبه فانتسب له ، فتطلع الخليفة للقوم ، وقال : هذا سيد بنى تميم ، هذا سيد بنى تميم ، فتمت له السيادة ، وما زال رئيساً حتى مات !

قال أبو الحسن العوفى : ألم يستأ شيوخ القوم حين يجدون عمر يفضل عليهم جميعاً شاباً صغيراً ، ويخصه بالثناء .

فقال أبو سليمان : القوم عقلاء ، وقد عرفوا أن عمر بن الخطاب يعطيهم درساً يجب أن يتعلموه ، فالسيد المقدم ، هو الذى ينظر فى أمور قومه ، ولا يجعل جهده لنفسه وبيته ، وقد قام الأحنف ، فتكلم عن البصرة وموقعها الشحيح فى الماء والزاد والأرض ، وطلب الغوث لأهل البصرة جميعاً ، وحين سئل عن مطلب شخصى ؟ وكأن عمر كان يستدرجه ليعرف مطامحه ، لم يسأل عن شىء لنفسه ! رأى شيوخ القوم هذا ولمسوه ، فعرفوا أنهم جميعاً قد أخطئوا والأحنف هو الذى أصاب !

قال أبو الحسن : يخيل إلى أن الأحنف كان منذ صغره يفكر فى مجتمعه كثيراً كما كان يزن من حوله من الناس وزناً دقيقاً ، يرى العمل الجيد فيؤثره ويحاول أن يحذوه ، ويرى العمل السيئ فيتجنبه وينكره ، وبذلك علم نفسه بنفسه ، حتى بلغ ما بلغ !

فقال زيد بن رفاعة : هذا صحيح ، وقد أشار إلى ما يدل على ذلك فى بعض أحاديثه ، حيث سأله سائل عن سلوكه المطمئن ، وسمته الهادئ ، فقال : ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقرى ، فقيل له : وكيف تم ذلك يا أبا بحر ؟ فقال الأحنف : لقد فوجئ قيس بمن يسحب ولده مقتولا أمامه ، ثم يخبره أن القاتل

ابن أخيه ! فنهض الناس وساقوا إليه القاتل مكتوفاً مكبلا ليقتص منه ، فقال فى هدوء : كفى كفى ! ثم اتجه إلى الفتى وقال فى أسف : يا بنى ، أنقصت عددك ، وأوهيت ركنك ، وفتت فى عضدك ، وأشمت عدوك ، وأسأت إلىّ ، وإلى قومك جميعاً ، وتساقطت الدموع من عينه ، ثم التفت إلى من حوله فقال : خلوا سبيله ، واحملوا إلى أم المقتول دية ولدها ، فهى الآن حزينة صارخة ، وانصرف الجمع عنه دون أن يحل حبوته !

قال أبو سليمان : مشهد لا يقدر عليه غير سيد مهيب ، بعيد النظر ، واسع الإدراك ! إن المصاب فى الابن كارثة مروعة ، ولو كان القاتل هو الابن والمقتول هو ابن الأخ لقلنا : إن شفقة الأب قد أدركت قيساً فعفا عن نجله بدافع غريزى ! ولكن الموقف على عكس ما نقول ، فكيف تمت لقيس هذه السيطرة التامة على نوازعه الفطرية ، وهى أقوى صراخاً ، وأعظم لفحاً من النيران ؟ كيف ، كيف؟

ثم قال أبو سليمان : وهذا ما فكر فيه الأحنف كثيراً كثيراً حتى ملأ نفسه ، ويخيل إلىّ أنه بإلهامه الفطرى تابع قيساً فى جميع مواقفه ، فرأى من أموره فى أوقات الشدة ونوازل الخطوب ما أكسبه الحلم والصبر ، ولعله رأى من إيثاره وتسامحه ما جعله ينسى نفسه ، بل ما جعله يعتقد أن السيد هو الذى ينسى نفسه حين يسحّ الخير ، ويتذكر من يدينون له بالطاعة ، فيبسط شكواهم ، ويفصح عن خواجلهم ، وهذا ما فعله حين طلب الفاروق منه أن يتكلم ، بل هذا ما جعله سيد القوم فى عين أمير المؤمنين ! وليس الإيثار خلقاً سهل التنفيذ ، بل لا يعتاده الإنسان دون نزاع هائل بين غرائز الأنانية ، ودوافع المروءة ، وقد ثارت هذه النوازع دون شك لدى قيس بن عاصم ، والأحنف بن قيس ، وأمثالهما من ذوى السلوك الأمثل ، ولكنهم انتصروا عليهما بقوة الإرادة وضبط النفس ، ويا لهما من مطلب ! لقد كان الأحنف ذات يوم يتصدر قومه فى مجلس عام ، فنهض شخص غريب عن تميم ، وقال : يا أحنف ؛ لا أدرى لم بلغت السيادة على هؤلاء ومشهدك الخلق لا يسر ! فقال الأحنف فى ابتسام : يا بنى ، لقد بلغت السيادة بتركى ما أنت فيه ، إذ كنت لا أدخل فيما لا يعنينى ! وانصرف عن السائل ليتابع حديثه ! أليس فى حلم الأحنف عن الرجل المتهجم ما يدل على أنه كافح كثيراً حتى صار التحلم لديه حلماً ، ومتى حلم فلن يستفزه سفيه ، أو يثيره جهول ؟

وكان أبو الحسن العوفى يطرق برأسه إلى الأرض ، وكأنه فى شغل عن حديث صاحبيه ، فقال له أبو سليمان : مالك أبا الحسن ؟

فقال أبو الحسن : مالى ؟ أنا معكما ، ولست معكما ، أنا معكما فيما تذكران من أمر الأحنف ، ولكنى لست معكما فيما اشتهر عن حلمه الذى ضرب به المثل ، بل انتقلت إلى أمر خاص بالأحنف غير حديث الحلم ! لقد رأيت أن الكتب المتداولة تسهب فى الحديث عن الأحنف الحليم، وتنسى أعظم آثاره فى التاريخ الإسلامى ، أليس الأحنف فاتح خراسان ، وهازم يزدجرد ملك الفرس ، لقد قام الأحنف فى خراسان بما قام به المثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص والنعمان ابن مقرن ، حيث انتصروا فى مواقع حاسمة ، وتم النصر للأحنف يوم يزدجرد حتى قضى على بقية آماله ، فما عاد يفكر فى غير الفرار ! هذا الإنجاز البطولى للأحنف القائد الشجاع لايجوز أن يتضاءل جوار ما اشتهر عنه من الحلم ، أينفس عليه المؤرخون أن يذكروه بطلا !!

قال زيد : كلا ، فلو نفس عليه المؤرخون بطولته ، ما اتصلت إلينا ، ولما تحدثت عنها الآن ! إنهم ذكروا بلاء الأحنف كما ذكروا بلاء المثنى وخالد والنعمان وسعد ؟ ولكن الاشتهار حظ ، كحظ المال ، فقد تدون عشرات الصحف عن قائد باسل ولا يذكره أحد ، وقد تسجل بضعة سطور عن قائد أقل شأناً منه ، فيطير ذكره كل مطار .

قال أبو سليمان : دعنا يازيد من تحليلاتك هذه ، إذ أريد أن أسمع من أبى الحسن بعض ما كان من أمر الأحنف فى خراسان .

قال أبو الحسن العوفى : لما تم النصر للمسلمين فى موقعة جلولاء فر يزدجود هائماً على وجهه يحاول أن يلتقط أنفاسه ، وعز عليه أن يضيع ملكه هكذا ؟ ففكر فى مكاتبة ملوك الترك والصفد والصين ، ليكونوا معه أمام المسلمين ، منذراً بأنهم سيواصلون الزحف حتى يحتلوا بلادهم ، ومن خيرهم أن يعاجلوهم معه ، فيكون الجمع صفاً مرصوصاً أمام المسلمين ، ولن يهزموا حينئذ ، كما كاتب يزدجرد فلول المنهزمين من أمثال الفيرزان والهرمزان ومن بقى من الأعاجم ، يعدهم بالنصر بعد أن تنضم إليهم جيوش الترك والصفد وخراسان ، وعلم الأحنف

بتجمع الفرس بعد شتات ، فعرف بذكائه أن معركة كبرى ستحين ، فتقدم إلى (مرو الروذ) حيث يقيم يزدجرد ، ففر هارباً إلى بلخ منتظراً من سيعاونونه حين يأتون ، ولكن الأحنف فاجأه ، فدارت الدائرة عليه وهرب ، ففتحت خراسان ، وكتب الأحنف لابن الخطاب بما تم من نصر ، فسر عمر كثيراً وقال لمن حوله بالمدينة : إنه الأحنف سيد بنى تميم ، ثم كتب إلى الأحنف راجياً أن يقتصر على ماتم ، وألا يجاوز النهر إلى ما وراءه كيلا يتشتت المسلمون !

ولكن جيوش الترك والصفد وفرغانة قد قدمت لنصرة يزدجرد يقودها خاقان الأكبر ، فاضطر الأحنف إلى أن يعبر النهر مخالفاً أمر عمر ، إذ يرى الحاضر ما لايرى الغائب ، وأقام بجيشه ينتظر المعركة الفاصلة ، وقد شاء له حزمه أن يخرج متنكراً بالليل ليتنسم أخبار العدو ، فمر برجلين يقول أحدهما للآخر : لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل لكان حامياً لنا أن نؤتى من خلفنا ، فسر الأحنف بما سمع ، وعجل فقاد القوم إلى مقدمة الجبل ليكون حصناً للمسلمين لا للفرس ، وتلاقت جموع خاقان وجموع يزدجرد فى حشد رهيب سد رحبة الأرض ، فتخوف المسلمون ، ولكن الأحنف صاح بالقوم : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ، فذهب ما استشعروه من الخوف ، ثم دعا الترك للبراز ، فتقدم الأحنف وصرع ثلاثة من أبطالهم على التوالى ، فتحير الترك وظنوا للمسلمين جيشاً كبيراً فيما أمام النهر ، وكلهم أبطال يستهينون بالموت ، فصاح صائحهم : وعلام نقتل أنفسنا فى بلاد غير بلادنا ، وأدركهم التخاذل ، وفوجئ خاقان بالتياث أمره ، فعجل بالانسحاب ، على حين قال جنود الفرس ليزدجرد : إنك أتيت بخاقان لبلادنا وهو خائن لادين له ، وإذا انتصر فسيكون شراً علينا من العرب ، فاتركه وشأنه ، واكتب للمسلمين طالباً الصلح ، فهم أهل وفاء وذمة ، وخير لنا أن نعاهدهم على وفائهم ، كما ليس من الخير أن نعاهد خاقان فيغدر بنا ، فلم يقبل يزدجرد أولا ، حتى تحارب الجيشان ، ففر يزدجرد إلى فرغانة منهزماً ، وأقبل أهل فارس على الأحنف فعاهدوه وصالحوه ! وكان يوماً مشهوداً كيوم القادسية ! قال العوفى : بالله ياقوم : أيجوز أن ننسى الأحنف الشجاع لنذكر الأحنف الحليم !

قال أبو سليمان : ما عهدتك مؤرخاً يا صاحبى ، وها نحن ذا اليوم نضيف إلى حسابك مالم نكن نعلم !

فرد أبو الحسن : إن تاريخ الفتوح الإسلامية على طرف الثمام ممن يريد مذاكرته وأنا أفىء إلى التاريخ إذا أردت أن أستروح من معضلات الحكمة والإلهام والمنطق ، وغوامض الكون ، وألغاز ما وراء الطبيعة من أسرار ، فأكون كمن انتقل من الصعود فى جبل وعر إلى جنة ذات أشجار وثمار ونسيم !

قال زيد بن رفاعة : ولماذا لم تظهر شجاعة الأحنف هذه يوم صفين ، وقد كان فى مقدمة جيش الإمام على بن أبى طالب أمير المؤمنين .

فبادر أبو سليمان يقول : أنت تقيس شيئاً على شىء ، والقياس بين المتشابهين لا بين المختلفين ، لقد كان المسلمون فى معارك الفتوح الإسلامية يحاربون أعداء الإسلام ، ويرحبون بالاستشهاد طمعاً فى مثوبة الله ، ولكن المسلمين منذ يوم الجمل ويوم صفين يقاتلون أنفسهم ، فبأسهم بينهم شديد ، والإمام علىّ كان حزيناً كل الحزن يوم صفين ، مع أنه كان المنتصر قبل التحكيم ، لأنه يعرف أن القاتل والمقتول كليهما مسلمان ، وهو إنسان مثالى قوى الإيمان ، ألجأته الظروف إلى ما لايحب ! وما أظن إلا أن الأحنف كان يحس بإحساسه ويشعر بشعوره ، فشتان بين موقف وموقف !

قال زيد : حفظك الله يا أبا سليمان ، فقد أوضحت الأمر على وجهه الصحيح ولكنى أعلم أن علياً كرم الله وجهه قد خالف مشورة الأحنف يوم صفين ، فكيف تم هذا ؟

قال أبو سليمان : لم يكن أمر الإمام علىّ فى يده ، فقد اختار عبد الله بن عباس ، فأبى عليه رهطه ، ثم اختار الأشتر فزادوا إباء ونفوراً ، وأبى الأشعث وشيعته إلا أبا موس الأشعرى ، فلما رأى الأحنف بن قيس أن أبا موسى الأشعرى لا يقوم لعمرو بن العاص ، ولا يوزن به دهاء وحيلة تقدم إلى أمير المؤمنين وقال فى إخلاص :

« يا أمير المؤمنين ، إنك قد رميت بحجر الأرض عمرو بن العاص ، وإنى

عجمت أبا موسى وحلبت أشطره ، فوجدته قليل الشفرة ، قريب القعر ، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير فى أكفهم ، ثم يبتعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيت أن تجعلنى حكماً ، فاجعلنى ثانياً أو ثالثاً ، فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حللتها ، ولا يحل عقدة إلا عقدت له أحكم منها وأوثق » .

قال الأحنف هذا ناصحاً ، وأبى الناس إلا أبا موسى ، إذ رفضوا ابن عباس والأشتر والأحنف ! فماذا يصنع الإمام علىّ وقومه قد خالفوه ! وفرضوا عليه من لا يود ، وقد اختار فلم يسمع إلى قوله سامع ، إن الإمام لمعذور ، وإن الأحنف قد أخلص النصيحة ، وحسبه هذا ، ثم انقضى الأمر ، واستشهد علىّ ، فحزنت الدنيا عليه ، وبويع معاوية ، فرأى الأحنف أن ينضم إلى الجماعة مسالماً ، ووفد إلى معاوية على رأس وفد تميم ، وكانت جراح معاوية لا تزال تنغر من الأحنف ، فما لبث أن رآه حتى قال له : والله يا أحنف ماذكرت يوم صفين إلا وجدت حزازة فى قلبى لا تنقطع إلى يوم القيامة ، وكأنه يهدد سيد تميم بما يقول ، ولكن الأحنف الشجاع سد عليه منافذ القول ، إذ واجه التهديد بأشد منه ، فقال : يا معاوية ، إن القلوب التى أبغضناك بها ، لم تزل فى صدورنا ، وإن السيوف التى قاتلناك بها لم تزل فى أغمادها لدينا ، وإن تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً ، وإن تمش إليها فإننا نهرول ، ثم قام وخرج دون أن يستأذن الخليفة ، وكانت أخت معاوية تستمع من وراء الستار ، فقالت لأخيها : من هذا الذى يتهدد ويتوعد ، ثم يخرج غاضباً دون أن يستأذن ! فقال لها معاوية : اسكتى ياهذه ، هذا الأحنف سيد بنى تميم ، إذا غضب غضب له مائة ألف من قومه لا يدرون فيم غضب ؟ فأنا لا أعاديه !

وواصل أبو سليمان يقول : ثم كان اهتمام معاوية ببيعة يزيد ، وقد رغب الناس ، وأسكتهم بعطائه ، وجمع رؤساء القبائل ، وفيهم من نافق وداهن ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو لم تول يزيد أمر المسلمين لأضعتهم ، فاتق الله فيهم فقال معاوية للأحنف : وأنت يا أبا بحر ماذا تقول ؟ فقال الأحنف : اسمع يا معاوية إنى أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت ! وتوقع الحقيقة الداهية أن يكون لهذا الإيجاز الملجم تفصيل يكشف عن مخبئات لايريدها معاوية ، فأسرع يقول للأحنف جزاك الله خيراً .

وخرج الأحنف مغيظاً ، فقابل هذا المنافق الذى قال إن أمور المسلمين ستضيع إن لم يكن أمير المؤمنين بعد معاوية يزيد ، فنظر إليه نظرة كادت تسقطه خزيان على الأرض .. ثم تبع الأحنف ليقول فى استخذاء : يا أبا بحر ، اعف عنى فأنا أعلم أن شر الناس فى الدنيا جماعة معاوية ويزيد ، ولكنهم ملكوا الرقاب بالسيوف ، ووضعوا على الأموال أبواباً ذات أقفال فلا نصل إليها إلا بما يشتهون فنقول ما يرتضون ! فتملك الأحنف حلمه وأعرض عنه دون أن يجابهه برد !

قال زيد بن رفاعة : إن سكوت الأحنف رد أى رد ، فهو احتقار لسفيه كذوب ، وازدراء لمنافق لجوج ! وأرانا قد استمعنا بسمر هذه الليلة استمتاعاً مفيداً ، فياترى لمن يكون السبق .

قال أبو سليمان ضاحكاً : للأحنف بن قيس لا لسواه !

ذكاء اياس

ثم حانت الليلة الرابعة .

فقال أبو سليمان البستى : هل تظنون كل ما قيل عن ذكاء إياس حقاً لا مرية فيه ، مع أن طرائفه نسبت إلى سواه ؟

فرد عليه زيد بن رفاعة يقول : كل المشتهرين من النوابغ ، نسب إليهم مالم يقولوا ، ولم يمنع ذلك المدخول أن يصح ما أثر عنهم من مظاهر النبوغ ، فنوادر أشعب ، وروايات الأصمعى ، وأشعار قيس المجنون ، وطرائف جحا ، قد زيد فيها كثيراً ، ولكن الأصل أن هؤلاء قد اشتهروا بما قالوه فعلا ، وجاءت الزيادة لتثبت لا لتنفى ، لأن الذى نسب إليهم ما أضافه ، علم أن ما نسبه من جنس ما قالوه ، فإذا نسبت زيادات إلى إياس تدل على ذكائه فقد جاءت هذه الزيادة لتثبت الذكاء لا لتنفيه ، لقد اشتهر إياس بفراسته النادرة التى شاع أمرها ، حتى علم بها عمر بن عبد العزيز فى دمشق ، فآثر أن يوليه القضاء ليفصل بين الناس بما لديه من نبوغ ! ولتولية إياس قضاء البصرة قصة تروى .

قال أبو الحسن العوفى : ويلى ، لم أعرف هذه القصة بعد .

فقال زيد بن رفاعة : إن عمر بن عبد العزيز قد جاءه اختلال القضاء بالبصرة ، فطفق يفكر فيمن يقيم الأحكام على وجهها الصحيح ، ثم كتب إلى نائبه بالعراق عدى بن أرطاة يقول له : ياعدى ، لقد شغلنى أمر القضاء بالبصرة ، وما ذاع من اختلال أمره ، فإذا أصبحت فادع إليك إياس بن معاوية المزنى ، والقاسم بن ربيعة الحارثى . لتختار منهما من يلى الأمر ، فنهض عدى بما أشار به عمر ، وجمع الرجلين . فجعل كل منهما يتنحى معتذراً ، ويرى أن صاحبه أولى به منه حتى ضاق عدى وقال : لن تخرجا من هنا حتى تتفقا على أحدكما ، فأدرك إياساً ذكاؤه . وقال : أيها الأمير ، دعنى ودع صاحبى ، واسأل عنا معاً فقيهى العراق : الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، فإذا اختار أحدنا فلن يتأخر !

فأدرك القاسم ما يعنيه إياس ، وقال : أيها الأمير ، إن الحسن البصرى وابن سيرين يعرفاننى بالعيان ولا يعرفان إياساً إلا بالسماع ، وأنا وهما أصدقاء ، وقدتأكد إياس من أنهما سيختاراننى لمعرفتهما بى عن مخالطة ، فبربك لاتسألهما عنى ، ووالله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أعلم منى وأفقه ، فإن كنت كاذباً فى الذى حلفت فما يجوز لكاذب أن يتولى القضاء ، وإن كنت صادقاً فقد وجب أن يتولى القضاء ، إذ يفضلنى ولا أفضله .

وهنا انبرى إياس يقول : أيها الأمير ، إنك جئت برجل ودعوته للقضاء ، ومن جعل قاضياً فقد ذبح نفسه بغير سكين ، فأبعد نفسه بيمين ، سيستغفر الله عنها حين يخرج ، وأقع فى الحرج وحدى .

فقال عدى بن أرطاة : لقد ظهر الحق يا إياس من قولك ، لأن الذى يفهم هذا الفهم لذكى وقاد الذكاء ، ولا معدل عنك ، فانهض إلى عملك بأمر أمير المؤمنين !

قال أبو سليمان البسنى : لقد كان ذكاء إياس متعارفاً بدمشق قبل أن يلى عمر بن عبد العزيز إمارة المؤمنين ، فقد زار دمشق وهو غلام يافع فى إمارة عبد الملك بن مروان ، وشاعت عنه نادرة تعجب الناس لها ، إذ استطاع أن يسكت قاضى دمشق فى نقاش ذائع !

قال أبو الحسن العوفى : سأسأل عن هذه القصة كما سألت عن الأولى .

فقال البستى : لقد ورد إياس دمشق وهو غلام صغير ، فاختلف مع بعض الناس فى حق من الحقوق يلزمه ، وطال اللجاج بينهما ، فتحاكما إلى القاضى ، فأخذ إياس يرفع صوته فى ثقة ، فقال له القاضى : تأدب ياغلام ، ولا ترفع صوتك ، فإن خصمك رجل كبير !

فأسرع إياس يقول : إذا كان خصمى كبيراً ، فإن الحق أكبر منه وأجل .

فصاح القاضى غاضباً : اسكت ولا تتكلم .

فقال إياس : ومن ينطق بحق إذا سكت أيها القاضى ؟

فرد القاضى منفعلا : ما أراك تقول حقاً منذ دخلت ، فلا تنبس ببنت شفة !

فقال إياس : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ! أهذه الجملة حق أم باطل ، هأنذا أنطق بالحق !

فهدأ القاضى ، ونظر إلى إياس مبتسماً ، وقال : حق وربى ! وانقطع ليترك إياساً يفضى بحجته كما يريد .

قال زيد بن رفاعة : إذا اقتنع القاضى بمنطق إياس ، فإنى لم أقتنع ، لأن إياساً خلط شيئاً بشىء ، إن الرجل حين قال له : لم تنطق بحق منذ دخلت ، يريد النطق فى القضية المعروضة لا غيرها ، أما قول إياس : لا إله إلا الله ، فهو حق جاء فى غير موضعه ، فلا استشهاد به ، وهى مغالطة يجيدها الأذكياء ، وتفجأ الناس لحظات ، ولكن عند التأمل تذهب الفجاءة ، ويظهر البطلان .

قال البستى : هو ما تقول ، ولسنا الآن نستدل على صواب إياس أو خطئه ، ولكننا نقول : إن قوة جدله قد اشتهرت فى دمشق وهو غلام ، كما اتفق أنه جادل عبد الملك بن مروان فأسكته !

قال زيد : وكيف كان كذلك !

فأجاب البستى : لقد زار عبد الملك البصرة ، ودخل المسجد الجامع فرأى نفراً من القراء ذوى اللحى البيضاء يتقدمهم فتى يافع هو إياس ، فجعل يقرأ وهم ينصتون ، فقال عبد الملك : أفّ لأصحاب اللحى ، أما فيهم شيخ يقرئ القوم ، حتى يتقدمهم هذا الغلام ، ثم اتجه إلى إياس فسأله : كم سنك يا فتى ؟

فقال إياس : سنى كسن أسامة بن زيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيه عمر بن الخطاب وأبو بكر ، وغيرهما من رءوس الصحابة .

فقال عبد الملك : استمر يا فتى ، وتقدم القوم ، فأنت ذكى ملهم !

وهنا قال زيد بن رفاعة : إن نشأة إياس فى بيت والد محدث جليل هو معاوية ابن قرة المزنى ، قد نمت مداركه ، وأيقظت مواهبه ، وقد تتلمذ بالبصرة على الحسن البصرى وابن سيرين ، فلا يستبعد بعد ذلك أن يناقش بالحجة ، ويفحم خصمه بالدليل ، وقد ظهرت بواكير من مواهبه فى طفولته ، إذ ناقش أباه فى تفضيل أخيه عليه ، إذ أن إياساً نشأ ضئيل الجسم ، دميم الطلعة ، على حين كان

أخوه مبسوط القامة ، وسيم المنظر ، فكان معاوية يعهد للأخ بأعمال كثيرة ، تدل على تقديره إياه ، ولحظ إياس ذلك فقال لوالده : يا أبت ، إن مثل أخى ومثلى ، كما تشهد فرخ الحمام ، وفروج الدجاجة ، فأخى نشأ كالفروج كاسياً كامل الريش آكلا بنفسه ، ولكنه بعد حين يتراءى نقصه ، فيذبح ، أما أنا فكفرخ الحمام ينشأ عاجزاً لا يقدر على الحركة ، مسلوب الريش ، ثم يقوى بعد ذلك ، فإذا طار اهتم به صاحبه ، وجعله يحمل الرسائل إلى المكان البعيد ، ويظل مكرماً حتى يموت ، فيبكى عليه صاحبه .

قال والده وقد تأثر بما قال الصبى : ستكون فى مستقبلك أحسن منك الآن ، ولا عبرة بضآلة الجسم ، ولا بدمامة الوجه ، وأنا ما أكلف أخاك وأتركك إلا إشفاقاً عليك ، وأنت ضئيل نحيل .

فقال إياس : أعلم هذا ، وإنها لملاحظة فحسب .

وواصل زيد بن رفاعة حديثه قائلا : إن شعور إياس بضآلة قيمته جوار أخيه كان بركة عليه ، فقد دفعه للجد فى التحصيل ، وأورثه يقظة وانتباهاً يعوض بهما ما فاته من القوة والوسامة ، وما زال يجد ويبحث حتى تفتحت مداركه كما يتفتح البرعم عن زهرة ناضرة ذات عبق فواح ومرأى جميل .

وهنا قال أبو سليمان البستى : إن بديهة إياس موهوبة لا مكسوبة ، وهى فضل الله الذى يمنحه من يؤثره من عباده ، تلك البديهة ترتكز على فطنة داعية ، وصاحب الفطنة يدرك خبايا البشر ويلم بنقائص النفس البشرية ، عارفاً أنها تدبر الشر فى خفاء ، وتحاول أن تتبرأ منه فى مجال القضاء ، وهنا يستطيع القاضى اللبق من أمثال إياس أن يكشف هذه الغوامض المستترة من الغدر والكذب والجحود لدى ضعاف النفوس بأيسر احتيال ، وأضرب المثل بهذه القصة :

استودع رجل صاحبه مالا يحتفظ به حتى يؤوب من سفره ، ثم تمت الرحلة وعاد صاحب المال يطالب صاحبه بما استودع ، فأنكر وجحد حتى أيأسه ، فأتى القاضى إياساً ليشكو إليه ما حل به ، وكان إياس على صلة بالصاحب الخائن فاحتال بدهائه لينقذ وديعة الرجل ، حين اهتدى إلى مكيدة تعيد المال ، فأقبل يسأل صاحب الشكوى : هل علم صاحبك أنك أتيتنى ؟ فقال : لا . قال إياس :

أونازعته أمام أحد ؟ فقال : لا . قال إياس : وإذن فانصرف ، واكتم أمرك عن الناس جميعاً ، وجئنى بعد يومين !

فمضى الرجل متفائلا ، أما إياس فقد أرسل للصاحب الخائن ، وقابله ببشر وملاطفة ، وقال له : لدى مال كثير ، أريد أن أخفيه عن العيون ، فهل لديك مكان حصين ؟ قال الرجل : نعم ؟ فقال إياس : هذا سر بيننا فلا تطلع أحداً عليه ، وحصن منزلك وتعال إلى بعد يومين ، ومعك من يحملان المال دون أن تخبرهما !!

ثم جاء صاحب الوديعة ، فقال له إياس : انطلق إلى صاحبك ، فاطلب مالك فإن أعطاك ، فذاك ، وإن جحدك ، فقل له : سأذهب إلى القاضى إياس الآن لأشكوك !

فذهب الرجل إلى صاحبه قائلا : هات المال ، فقد ضاق صبرى ، وإلا انطلقت إلى القاضى فأخبرته بأمرى معك ، ليحكم بيننا ، فدفع إليه ما طلب دون تأخير ، ونهض الرجل إلى القاضى فأخبره بما كان ، فابتسم إياس منشرحاً وقال : هو ما توقعت .

ثم جاء المستودع عنده ومعه من يحملان مال القاضى ، كما اتفق معه ، فقابله إياس بغضب ، وصاح فى وجهه : أأعطيت المال الذى أردت أن تسلبه من صاحبك ، طامعاً فيما هو أكثر ، لقد افتضحت يا عدو الله ، فلا أرى وجهك بعد الآن ، وسأسقط شهادتك ، إذ لست من الأمناء !

هذه واحدة .

قال أبو الحسن العوفى : وهل هناك ثانية ؟

فقال أبو سليمان : وثالثة ورابعة ، إلى ما لا يعد ، ولكنى أجتزئ بقصة مماثلة ، ثم اعتدل فى جلسته وتطلع لصاحبيه قائلا :

تقاضى رجلان عند إياس ، فادعى أحدهما أنه أودع صاحبه مالا ، فجحده فقال إياس مخاطباً من أنكر المال : ماذا ترى ؟

فقال : إن كانت لصاحبى بينة فليأت بها ، وإلا ، فليس له على غير اليمين .

ففكر إياس قليلا ، ثم توجه إلى المودع ، فسأله : أتعرف المكان الذى أودعت فيه مالك لدى صاحبك ؟ قال : نعم ، قال : هلم فاذهب إليه ، ثم قال للآخر : اجلس إلى أن يجىء فقد يعثر على ماله هناك ، وينتهى الأمر دون شقاق!

ثم تحول إياس إلى نظر القضايا المتوالية ، وهو ينظر إلى الرجل ليتفرس فى ملامحه ، حتى إذا مضى بعض الوقت ، قال له فى بشاشة : أتقدر أن صاحبك قد بلغ الموضع الآن !؟

فقال الرجل دون تفكير : لم يصل بعد ، فالمكان بعيد .

فصاح إياس : يا خائن ، تجحد المال ، وتعرف المكان الذى أخذته فيه ، ستحبس فى السجن حتى ترد المال .

وجاء الرجل بعد أمد ، فقال له : انتظر ، فقد قامت البينة على هذا الخائن ، وسينطلق مع الشرطى ليحضر المال سريعاً ، وإلا فالحبس الدائم ، وخرج الغادر خزيان ليحضر ما أنكر فى مذلة وهوان .

قال زيد بن رفاعة موجهاً الحديث إلى أبى الحسن العوفى : لقد أتيناك اليوم عن إياس بما لم تكن تعلم ، ولا أدرى كيف غاب عنك حديث إياس ، وأنت دارس منقب بحاث !

فابتسم أبو الحسن وقال ملاطفاً : لقد أفدت من أخبار إياس ما لا أعلم ، وبقى أن أحدثكم عنه بما أعلم مما لم يقل الليلة .

قال البستى : أنت تجيد الحديث ، وسنجيد الاستماع ، فهيا !

فعجل العوفى يقول : أحفظ لإياس فى غير مجلس القضاء طرفتين تدل على منطقه السديد ، وبرهانه المفحم .

كان أحد دهاقين الفرس يتعجب من تحريم المسكر ، ويطلب من يناظره فى أمره ، فجىء به إلى إياس قبل أن يلى القضاء ، فقال له : ما تقول فى المسكر الذى ذاع بين الناس ؟

قال إياس : هو حرام بالإجماع .

فقال الدهقان : وما وجه حرمته ، وهو لا يزيد عن كونه تمراً وماء غليا على النار ، والتمر والماء من المباحات ؟

فقال إياس : لو أخذت ملء يدى من الماء وقذفتك به ، أفيوجعك الماء ؟

قال الدهقان : كلا ؟

فقال إياس : لو أخذت كفاً من تراب فضربتك به ، أكان مما يوجعك ؟

فقال الدهقان : لا .

قال إياس : ولو أخذت كفاً من تبن وضربتك به ، أكان مما يوجعك ؟

قال الدهقان : لا ؟

قال إياس : فلو أخذت التراب وخلطته بالتبن ، ومزجتهما بالماء ، ثم تركت ما امتزج فى الشمس حتى صلب ويبس ثم ضربتك به ، أكان مما يوجعك ؟ قال الدهقان : يوجع ، وقد يقتل .

فقال إياس : وهكذا شأن الخمر ، حين يجتمع التمر والماء ويختمران ، فيسكران .

أما الطرفة الثانية : فقد كانت مع الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه ، إذ خرج المسلمون ينظرون إلى هلال رمضان ، فتأملوا السماء كثيراً فلم يجدوا شيئاً ! غير أن أنس بن مالك جزم بأنه يرى الهلال ، وهو يومئذ شيخ كبير قد قارب المائة .

فجاء إياس وتفرس فى وجه أنس بن مالك محدقاً ، فإذا شعرة كبيرة فى حاجبه ، تدلت حتى غدت قبالة إنسان عينه .

فقال له فى أدب : أتأذن لى أن أمسح وجهك الكبير ؟ قال أنس : لا مانع ، فمد إياس يده إلى الشعرة فمسحها ثم سواها مع أخواتها فى حاجب أنس ، وقال له : انظر يا سيدى ، أترى الهلال الآن ؟

فحدق أنس رضى الله عنه قليلا ، ثم قال : والله لا أرى شيئاً ، قال إياس : كنت ترى الشعرة مدلاة من حاجبك فتوهمك أنها الهلال ، فحين زالت وضح اليقين !

على أن إياساً رحمه الله كان منصفاً ، فقد تحدث عن نفسه ، فقال : ما غلبنى أحد فى مجلس القضاء سوى رجل واحد ، إذ شهد أمامى فى قضية بستان يتنازع عليه خصمان ، فقال : هو لفلان ، فأردت أن أمتحن شهادته ، فقلت له : كم عدد شجر البستان ؟ فأطرق الشاهد قليلا ثم سألنى : منذ كم يحكم مولانا القاضى فى هذا المجلس ؟ قلت : منذ عدة سنوات ، قال: وكم خشبة فى سقف هذا المجلس؟ فبهت ، لأنى لم أكن أحصيت خشب السقف ، وقلت : الحق معك ، وأجزت شهادته !

قال زيد بن رفاعة : تعرف كل هذا يا أبا الحسن عن إياس ، وتدعى أنك لا تعرف شيئاً عنه ! ليتنا مثلك يا رجل .

وتضاحك الجميع ، وخفوا منصرفين !

قاضى المأمون

كان ركب الحجيج يستقل إلى المدينة ، مستبشراً بزيارة خاتم النبوة ، وسيد المصلحين الهادين ، حتى إذا جاء الربذة سمع صارخة تقول : أعينونا على دفن قاضى القضاة يحيى بن أكثم ، ولم يكن يحيى مجهول المكانة فى العالم الإسلامى ، فقد طار اسمه مشرقاً مغرباً منذ ولى زمام الأمور فى عهد المأمون وزيراً وقاضياً للقضاة ، فأخذت الناس دهشة ملكت عليهم نفوسهم ، ونزل الراكبون حائرين يتساءلون ، وما ليحيى بن أكثم والربذة ! وكيف يحلها وليس معه غير جارية وابن ؟ وأين بقية جاهه وماله ، وقد قيل إن المأمون عزله لكثرة ما جمع من العقار والذهب ؟ أين ذلك كله ؟

قال قائل : هيا نساعد على المكرمة ، ثم نتساءل .

وتهيأ القوم ، فبحثوا عما يلزم ، و عدوا المرقد الأخير ، وقال بعضهم : نحن على استعداد أن نحمله إلى بغداد ليدفن مع ذويه ، ولكن محمداً ولد يحيى ، قال : لقد كان راجعاً إلى بغداد بعد أن لازم مكة دهراً ، إذ دعاه أمير المؤمنين المتوكل فلم يشأ أن يتلكأ ، كيلا يظن به عدم الرضا والمروق ، ولما أحس بوطأة المرض أوصى بأن يدفن حيث جاءه الأجل ، وقد أتاه اليقين فى (الربذة) ليموت غريباً ! ثم تقاطرت الدموع من عينه .

ولكن بعض السامعين صاح به : لماذا تبكى يا محمد ، إن أباك جار لأبى ذر الغفارى صاحب رسول الله ، فقد نفاه عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الربذة فمات غريباً ، ولم تكن معه غير جارية صغيرة ، صاحت بالناس : هيا فادفنوا أبا ذر ، فدفن هنا ، أليس أبوك يرضى جوار أبى ذر ؟

قال محمد : لقد هونت ما بى ! رحم الله أبا ذر ، ورحم الله أبى .

وكأن شاغل الموت قد أذهل الناس عن مسيرهم ، فصمموا أن يمكثوا بالربذة حتى تغيب الشمس ؛ فالحر شديد ، والوقت متسع ، ولم يكن لهم حديث إلا سيرة

يحيى بن أكثم قاضى القضاة ببغداد ، إذ طلبوا من محمد ولده أن يقص عليهم ما كان من شأنه ، فغلبته الدموع ولم يقل شيئاً ، فانبرى كهلان وقوران يخففان عن النجل المفجوع مصابه ، ويقولان له : نحن أدرى بمواقف أبيك منك ، وسيسمع القوم ما يرضيك !

قال الجميع : إذن فتحدثا ، لأن الذكرى عزاء ، وفى حياة يحيى عبرة للمعتبرين .

قال أحدهما ، واسمه نصر بن عمرو : إن بعض المغرضين من المعتزلة قد شوهوا سيرة قاضى القضاة عن عمد ، فقد كان السنى الأوحد فى بلاط المأمون يكافح مثل ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبى دؤاد ، ومن عرف رغبة المأمون فى نصرة الاعتزال ، فآثر رضاه ، وتحمس لكل ما يحب ، وإن جلب الفرقة وعاد بالنكال .

لقد قال القوم بخلق القرآن ، وماتت أرواح ، وضربت جلود ، وسجن شيوخ وشباب ، وتعرض الفقهاء من أهل السنة لامتحان رهيب ، وما خبر الإمام أحمد بن حنبل ببعيد ! وكان من المنتظر أن يدارى يحيى بن أكثم بعض آرائه كيلا تعصف به العاصفة فى محنة قضت على الحرية ، ونشرت أفظع ضروب الاضطهاد ، ولكنه أصر على رأى الجماعة من فريق ابن حنبل ، وكافح مكايد المتملقين من الوصوليين ، وما أكثرهم حين تشب الفتن ، ويعم الاضطراب .

كافح الرجل وناضل ، حتى ضاق به المأمون ، فقرر عزله ، ونفاه عن مقره ، وأوصى خليفته المعتصم ألا يركن إليه فى عمل ، إذ نهب الأموال ؟ أى أموال يا قوم ؟ ثم أشاع المرجفون عنه فجأة أفظع ما يرمى به عالم فقيه قاض ! ونحن نتساءل : أين كانت هذه التهم المنكرة ! قبل محنة خلق القرآن ، وكيف وكل إليه المأمون أمور الناس ديناً ودنيا وهو يعلم عنه ما تزلزل له الجبال ؟ لعن الله المفترين .

ثم سكت نصر بن عمرو ، وقال لصاحبه أنس بن جرير : لقد غلبنى الضيق فأكمل أنت ؟

قال أنس ، وقد توجهت إليه الأنظار : والله لو لم يكن ليحيى بن أكثم رحمه الله غير يوم المتعة لكفاه ذلك اليوم مثوبة عند الله ، لقد رأى المأمون وهو فى طريقه إلى الشام أن يجيز نكاح المتعة ، وهى مما حرم فى الهدى النبوى الشريف ، وخاف الفقهاء أن يعارضوا المأمون ، إذ كان ينفرد برأيه فى أكثر مما يعن له ، لقد ألم بعلوم متنوعة ، وقرأ بعض صحائف المنطق والفلسفة ودارس أصحابها ففلج عليهم .

وهنا قال نصر بن عمرو : يا أنس ، أتأذن لى فى تعليق يسير . فقال : تفضل فأخذ نصر يقول : لقد شاع لدى الناس أن المأمون يجالس المتخصصين من العلماء وتأتى المسائل الدقيقة فينتصر عليهم بما حذق من العلم ، وقد قال أخى أنس ابن جرير إنه قرأ الفلسفة ودارس أصحابها وانتصر عليهم فى مجال المناقشة والتحليل ونحن نعرف أن كثيراً من رجال الفلسفة والمنطق يتقربون إلى الرجل بالموافقة والثناء ، فإذا قال بعض ما يعلمون أظهروا الإعجاب الزائد ليستولوا على قلبه ، ويسمع ذلك نفر من الحاشية فيعلنون أن المأمون هو الأوحد فى كل فن ، فى الفقه والشريعة والتاريخ والحديث وعلوم اللسان ، ثم فى الفلسفة والمنطق ، وأنا لا أنكر أن المأمون قد سبق الخلفاء — والخلفاء وحدهم — فى الاضطلاع ببعض مسائل العلم فى فروعه المختلفة ، إذ كان يأخذ من كل فن بطرف ، ويجادل النحاة والفقهاء ومدعى الفلسفة بما يعلم من هذه العلوم ، يجادلهم فلا يرى سوى الإذعان والإعجاب ! أتظن المأمون يبلغ مبلغ أبى إسحاق النظام ، أو أبى الهذيل العلاف ، أو ثمامة بن الأشرس فى الفلسفة وعلم الكلام ، إنه لا يعرف معشار ما عند أحد من هؤلاء ، ولكنه يجتمع بهم ويناقش ، فيجاملون ويثنون ! ومن هنا شاع عن الخليفة أنه أحد هؤلاء البارزين فى شتى مناحى البحث العقلى ! وقد رأيت ذات مرة أبا إسحاق النظام يجادل أبا الهذيل فى المسجد الجامع ببغداد فى مسألة واحدة ثلاث ساعات ، دون أن يتراجع أحدهما ويسلم لصاحبه ، ولكل دليله الملزم ، وبرهانه المفحم ؟ أولو كان مثل النظام ذا حرية مع المأمون ، أفكان الخليفة يستمر فى نقاشه دقائق معدودات ، هذا يا أنس بن جرير تعليق الموجز على قولك إنه دارس أصحاب الفلسفة والمنطق وفلج عليهم !

فابتسم أنس وقال : إنك تتفق معى فى أنه ألم ببعض المسائل فى كثير من فروع العلم ، ومن هذه الفروع نبذ من مسائل الفقه ، وقد اتجه إلى إباحة نكاح المتعة ، ونادى فى الناس بذلك ، فجزع أهل العلم ، وجاس يحيى بن أكثم مع صاحبيه ؛ محمد بن منصور ، وأبى العيناء ، يتحدثون فى هذا الخطب الجلل ، فقال يحيى بن أكثم لهما : بكرا إليه ، فإن رأيتما للقول مجالا فتكلما وإلا فانتظرا حتى أدخل ، قالا : فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول فى غيظ : متعة كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبى بكر وأنا أنهى عنها ؟ من أنت يا جعل (يريد عمر بن الخطاب) حتى تنهى عما أحله رسول الله وأبو بكر ، فأومأ أبو العيناء إلى صاحبه : أن انتظر ولا تتكلم ، هذا رجل يقول فى عمر يا جعل ، فماذا يقول فى أحدنا إذا كلمه ؟

ثم جاء يحيى بن أكثم متغير الوجه ، فقال له المأمون : مالك هكذا على غير عادتك ؟ قال يحيى : غم وهم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام ، قال المأمون متعجباً : وماذا حدث ؟ قال : النداء بتحليل الزنا ، قال المأمون فى غضب : الزنا ، قال : نعم ، المتعة زنا صريح ، قال المأمون : وما دليلك ؟ قال : قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ۞ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ۞ والذين هم عن اللغو معرضون ۞ والذين هم للزكاة فاعلون ۞ والذين هم لفروجهم حافظون ۞ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ۞ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون »(١) .

يا أمير المؤمنين ، أزوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا ، قال يحيى : أهى الزوجة التى ترث وتورث ، وتلحق الولد ؟ قال : لا ، قال يحيى : إذن فمن تجاوز هاتين كان من العادين ، وهذا الزهرى روى عن عبد الله والحسن ابنى محمد ابن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : أمرنى رسول الله أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها ، بعد أن كان أمر بها ، قال محمد ابن منصور : فالتفت إلينا المأمون ، فسأل : أمحفوظ هذا فى حديث الزهرى ؟

(١) سورة المؤمنون ، الآيات ١ - ٧

قلنا : نعم يا أمير المؤمنين ، ورواه جماعة ، منهم مالك بن أنس رضى الله عنه ، فقال المأمون : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة من الآن !!

هذا موقف ليحيى لا ينساه الله !

سمع محمد بن يحيى هذا الحديث فانزاح عن وجهه ما غمره من الحزن وقال : الحمد لله الذى جعل سيرة أبى محفوظة معلومة ، فقد كان يؤلمه فى مرضه الأخير أن ينساه الناس ، بل أن يتباعد عنه الناس إذا عرفوه ، لأنه فى رأيهم مغضوب عليه، ومنفى من بغداد ، وما تحمل هذا السفر الأخير إلا ليرجع لعارفيه فى بغداد فيقول لهم : لست منفياً ، وها قد عادت الأيام ، ولكن الموت سقط عليه بالربذة ولما عند الله أوفى .

فرد نصر بن عمرو يقول : لا تخف يا محمد ، إن سيرة أبيك لا تنسى ، فإذا كان الخلفاء والوزراء يحدون من يدون تاريخهم بالحق والباطل ، فإن العلماء يحدون من يقص كل كبيرة وصغيرة عنهم من تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم ! لقد دونت سير سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير ومالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل وسفيان الثورى وعبد الله بن المبارك وابن شهاب الزهرى وسفيان بن عيينة وأمثالهم بأكثر مما كتب عن خلفاء بنى مروان وبنى العباس ، وها أنذا وأنس بن جرير نعلم من سيرة أبيك أكثر مما تعلم .

فتبسم أنس ووجه الكلام لمحمد بن يحيى حين قال : لقد ذكر نصر اسمى عبد الله بن المبارك ، وسفيان بن عيينة فذكرنى بحادثين لهما مع أبيك ، رحمهم الله جميعاً .

أما حادث ابن المبارك ، فقد شاء جدك أن يروى أبوك عنه الحديث ، وهو غلام لم يبلغ سن الحلم ، فلما تمت الرواية عن عبد الله ، صنع جدك حفلا كبيراً ملأه بالطعام والشراب والفاكهة ، ودعا له كبار الفقهاء والمحدثين ليشهدوا حفل الختام لرواية أبيك عن ابن المبارك ، وكأن جدك أراد أن يشهر فى الناس رواية ابنه للحديث على أحد الثقات الأثبات ، ليذيع فى الناس ، انتسابه للحديث ، وتلمذته لابن المبارك ، وهى شرف قل أن يتاح لغير المختارين الفهماء .

هذه واحدة ، أما الأخرى ، فقد كانت مع سفيان بن عيينة ، إذ كان على فضله يضيق بأكثر الأسئلة حين توجه إليه حتى تنعبه ، فقال لتلاميذه ذات يوم ويحيى بن أكثم معهم : أليس من الشقاء لمثلى أن أجالس صخرة بن سعيد الذى جالس أبا سعيد الخدرى ، وأجالس عمرو بن دينار الذى جالس عبد الله بن عمر ، وأجالس الزهرى الذى جالس أنس بن مالك ، ومضى يستطرد فى عد جماعة من المحدثين جالسوا صحابة رسول الله ، فلما أتم حديثه عن هؤلاء قال : ثم تقضى الأيام على أن أجالسكم أنتم ؟

فقال يحيى بن أكثم ، وكان أصغر من بالمجلس : أتنصفنى يا أبا محمد ؟ قال سفيان : إن شاء الله تعالى ، فتكلم بما تريد ، فقال يحيى : والله لشقاء أصحاب رسول الله بك أشد من شقائك بنا ! فأطرق سفيان ، ثم نظر إلى تلاميذه نظرة طويلة أتبعها برواية قول الشاعر :

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما العاقل من ألجم فاه بلجام
خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام

ثم قال أنس بن جرير : لا تخف يا محمد ، فالتاريخ محفوظ مدروس .

ودنت الشمس للمغيب ، فتهيأت القافلة للرحيل ، وأصر القوم أن يستضيفوا معهم محمد بن يحيى وجاريته حتى يبلغا بغداد بعد زيارة المدينة ، وما كان أشوق محمداً إلى زيارة رسول الله ، ثم الرجوع إلى موطنه دون مشقة فهيأ الله له ما أراد .

سار الركب إلى طيبته ، وقد آثر أنس بن جرير ونصر بن عمرو أن يكون محمد ابن يحيى معهما حيث يسيران ، أما الجارية فتأخذ موضعها مع زوجتيهما ، وقد أظهر الرجلان من كرم النفس وسماحة الخلق ما جعل ابن يحيى يعد ذلك كرامة لأبيه ، فيحمد الله أن زالت وحشته بمن لقى من الكرام .

قال أنس لابن يحيى : أتعرف أى منزلة كانت لأبيك لدى المأمون ، قبل أن يسعى لدى الخليفة قرناء السوء ، لقد تحدث ثمامة بن أشرس ، ومثله لا يذكر

الحديث جزافاً ، بل يدقق وينتخل ، بل ربما أخفى أكثر مما أظهر ، قال ثمامة : كان يحيى بن أكثم يماشى المأمون يوماً فى بستان موسى ، والشمس عن يسار يحيى ، والمأمون فى الظل ، وقد وضع يده فوق عاتق يحيى مكرماً إياه ، فلما عادا من حيث أقبلا ، قال المأمون ليحيى : كانت الشمس عليك لأنك كنت عن يسارى وقد نالت منك ، فكن الآن حيث كنت ، وأتحول أنا إلى مكانك ، فقال أبوك فى بديهة حاضرة : والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أقيك هول المطلع يوم القيامة بنفسى لفعلت ، فقال المأمون : لا والله ، ما بد من أن تأخذ الشمس منى ما أخذت منك ! فتحول يحيى إلى الظل ، وسار المأمون فى الشمس ، وثمامة مندهش يتعجب !

قال محمد : لا أمان مع الأيام ، فالمأمون الذى منع أبى حر الشمس ، وتحمله دونه ، هو الذى نفاه ، وصادر ما لديه من مال وعقار لم يكونا من الكثرة بحيث يحسب أبى معهما من الأغنياء ، والمأمون هو الذى حذر المعتصم من أبى فى وصية قرئت على الناس ، وتداولتها الألسن دون نسيان !

وهنا ، قال أنس : لا عجب فى كل ما قلت ، فأنا — مثلا — كانت معى زوجة عشت معها خمسة وعشرين عاماً ، وكنت أعاملها كخادم لا كزوج ، رحمة بها وإحساناً ، ثم كانت الخاتمة أن مردت على وطلبت الطلاق ، فأجبت رغبتها غير غاضب ، لأنى أعلم أن القلوب كالرمل فى الصحراء تنتقل من مكان إلى مكان حين تهب الريح ، وقد هبت ريح المأمون فعصفت بالمحبة والوداد .

قال الراوى : وواصل الركب مسيره ، والحديث عن يحيى لم ينقطع ، ولم أستمر معهم فى المسير لأروى ما قيل .

قاضى القضاة

جلس إبراهيم بن العباس الصولى شارد اللب ، كاسف البال ، حين بلغه أن المتوكل على الله قد عزل أحمد بن أبى دؤاد عن قضاء المظالم ، وهى أرفع رتبة فى مجالس القضاء ، وما كان حزنه المفاجئ إلا لما تذكره من أن القاضى الكبير كان صاحب همم عالية يضرب بها المثل فى الناس ، وأنه — إبراهيم بن العباس — قد هجاه هجاء فاحشاً دون أن يسلف ما يستأهل به الهجاء ، إذ كان الصولى الشاعر مندفعاً إلى ثلب الرجل تحت تأثير صديقه محمد بن عبد الملك الزيات وزير الدولة الكبير ، حيث كانت بين قاضى القضاة ووزير الدولة عداوة خطيرة ، جعلت الناس يتحزبون بشأنهما ، ففريق يناصر الوزير ، وفريق يناصر القاضى ، وكان الشعر من أسلحة هذه العداوة ، فشاء إبراهيم الصولى أن يرضى الوزير بهجاء عدوه !

ثم ماذا كسب الصولى من الوزير ، إنه قلب له ظهر المجن ، فضيق عليه فى عمله ، وحاول أن يسجنه لأمور لا تستحق العقاب ! مع أن ابن أبى دؤاد قد تلقى هجاء الصولى بنفس مترفعة ، فما حاول أن يشعره أنه علم بما افتراه ، بل كان يذكره بالخير فى مجلسه ، ويثنى على أدبه شعراً ونثراً ، وكانت هذه الأنباء تصل إلى الصولى فتوخز قلبه وخزاً ، وتجعله يستشعر مضيض الأسى على ما فرط من ذنبه ! ثم ها هو ذا المتوكل على الله ينقم على أحمد بن أبى دؤاد فيعزله ، ويحرمه من جاهه المديد ، وهو ظل البائسين يدفع عنهم سموم العيش ، وموئل المضطهدين ينافح دونهم أمام ولى الأمر ، وكم كشف من غم ، وبدد من ظلمات !

ظل إبراهيم الصولى يدور فى مثل هذه الخواطر مكتئباً حزيناً ، وهو بعد شاعر رقيق الإحساس ، تمر به الخلجة اليسيرة فيستبطنها فاحصاً مؤولا ، وهو الآن لا يهدأ فى مستقره بعد أن سمع عن ابن أبى دؤاد ما سمع ، ليته يستطيع أن يشغل فكره عنه فيرتاح ! إنه ليحاول ذلك مندفعاً إلى مسائل أخرى كانت تشغل باله ،

فما تمضى لحظة أو لحظات حتى يعود إلى حديث نفسه مع ابن أبى دؤاد ، وهو حديث يذكره سالف جرمه ، فأين المفر ؟

لقد ترك مكانه متجهاً إلى منزل صديقه النديم أبى العيناء ، وأبو العيناء أديب عالم ، طبع على النادرة الفكهة ، والدعابة الضاحكة ، وله خلال نوادره نقدات صائبة ، ولذعات محرقة يتحاشاها جلساؤه ، لأنها تظهر فى مظهر التورية ذات المعانى المتعددة بحيث لا يستطيع أحد أن يحاسبه على نقد أو هجاء ، لأن باب التأويل ممتد فسيح ! وأبو العيناء من أصدقاء أحمد بن أبى دؤاد ، يبادله الإخلاص والود ، ويفد على مجالسه دون انقطاع ، وطبيعى أن يكون عزل القاضى مؤثراً فى نفسه أسوأ التأثير ، فلا بد إذن من لقائه ، ليتحدث الصديقان عن شجونهما بما يخفف برح الألم ، وقد يسلم إلى بعض العزاء .

فوجئ أبو العيناء بزيارة صاحبه على غير موعد ، فاصطنع من بشاشة اللقاء وأنس المحضر ما لم يغب تصنعه عن الصولى ، ثم انقطع الكلام فجأة ، فبادر الزائر يقول : أعلم أنى شرفت بزيارتك على غير موعد ، لأن شجوناً تعتلج فى نفسى منذ سمعت عن القاضى — أعزه الله — ما وقع موقع الضجر من نفسى ، فرأيت أن أفد إليك لنتبادل الحديث .

قال أبو العيناء : عجيب أن أسمع هذا القول من الصولى ، لأنه هجا القاضى أيام نفوذه ، وعالنه بالقطيعة دون موجب ، ولئن كان محمد بن عبد الملك الزيات خصم القاضى ، وكل به الأذناب من محترفى الشعر ، فما خطبك أنت ، ولك عقلك المتزن ، وفكرك الحر !؟

فزفر الصولى زفرة حارة وقال : وهل طرق على البلاء إلا من ابن عبد الملك إنه كان قبل أن يلى الوزارة من أعز أصدقائى ، لا يقول شعراً إلا عرضه على ، ولا يكتب كتاباً إلا كنت أول قارئ له ، وكنت أصنع معه ما يصنع معى ، وقد نقضى اليوم الأطول فى مسامرة أدبية تدل على اتحاد الأهواء ، وتوافق الميول ، فلما ولى الوزارة توهمت أن الدنيا قد أقبلت على ، وعددت نفسى الوزير لما أحسه من عميق الود بينى وبينه ، ولكنه بدأ يتحرش بى فجأة ، ثم أخذ يطعن فى عملى الإدارى ، ويرسل من يناقشنى الحساب العسير ، وقد أبلغ الخليفة عنى ما كان

مصدر الخطر المحقق ، ولكننى استرضيته بعدة أبيات كانت محل تقدير المتوكل ، فصفح وعفا ، وما زال ابن الزيات يرهقنى بالمساءلة ، وقد أرسلت فى استعطافه مقطوعات شعرية جعل يرويها مستخفاً مستهزئاً ، حتى اسودت الدنيا فى وجهى ، وما ارتحت إلا بمصرعه على يد المتوكل ، ويعلم الله ما بى من شماتة ، ولكن وفاته قد وضعت حداً لآلامى ، وأنقذتنى مما كان يحوك ويدبر دون أن أسلف له أدنى ذنب !

فابتسم أبو العيناء وقال : لقد أسلفت له أكبر ذنب دون أن تدرى ، فأنت شريكه فى النبوغ الأدبى ، وقد خاف على نفسه أن يمتد حبلك بالمتوكل عن طريقه فيعرف مكانك وفضلك ، فتكون منافسه الأول لديه ، ولابد إذن من أن يحفوك ، ويبدع عنك الغرائب ، ويتهمك بالإهمال والقصور ، حتى لا تصبح شيئاً لدى الخلافة ! وبذلك يستريح !

قال الصولى : وأعظم ما كنت أبذله فى استرضائه بلاء على نفسى ، أن دفعنى دفعاً إلى عداوة ابن أبى دؤاد ! وابن أبى دؤاد يشمل الغرباء بفضله السابغ كما يشمل الأقرباء ، ويرعى حرمة العدو كأنه صديق وفى ، فأين الأرض من السماء ؟

فعض أبو العيناء على شفته وقال : تحدثنى عن أبى دؤاد كأنى أجهل أمره ، إن كتب الدنيا لا تتسع لتسجيل مروءات أحمد ، فكم أنقذ من أرواح ، وكم أعان على معروف ! لقد كان يقدر كل فاضل ، ويرعى حرمة النبوغ لدى النابغين ، فهو على النقيض من ابن عبد الملك الذى كان يتمنى أن يكون وحده فى الميدان ! والله إن موقفه يوم أبى دلف العجلى من الأفشين مما يكتب فى صحيفته يوم الحساب ! وقد أدركته بديهته السريعة فأنقذه من الموت وهو منه قاب قوس أو أدنى !

قال إبراهيم مهتماً : بربك حدثنى عما كان ! فقد نقل إلى الخبر مجملا وأنا أرتقب التفصيل .

قال أبو العيناء : أبو دلف العجلى ليس بمنكور الموضع من المروءة والشجاعة والكرم ، وكان الأفشين أكبر قواد المعتصم يحسده لمكانته بين الناس ، لأن الأفشين على شجاعته الفائقة ، وانتصاراته البارعة فى حروب الخلافة ، لم يكن ليطيق أن

يذكر أحد بجواره فى مضمار القيادة ، والأفشين تركى وأبو دلف عربى ، وفى وهمه أن المعتصم مهما أنشأ حرسه الخاص من الأتراك ، لا ينسى أن قادة العرب عرب مثله ، وأنهم إذا لم يكونوا من العلويين أو بنى العباس فلا خطر منهم على الخلافة ، فإذا عرفت مروءة أبى دلف واشتهرت على هذا النحو الواسع فى آفاق العراق فإن شمسه لابد أن تحجب سواه ، هذا السر الحقيقى فى اضطهاد الأفشين لأبى دلف ، حين لفق عليه جريمة قبل لم تحدث ، واستدعى شهوداً يشهدون زوراً بأن أبا دلف قاتل لابد أن يجرى عليه حكم القصاص ، وطار النبأ إلى القاضى أحمد ابن أبى دؤاد ، وقد تمت محاكمة أبى دلف ، وشهد الآثمون زوراً عليه ، وصدر الحكم ولم يبق غير التنفيذ ، ولئن ذهب ابن أبى دؤاد إلى المعتصم كى يوقف تنفيذ الحكم فربما نفذ القضاء قبل أن يقابل الخليفة ، فيقتل أبو دلف ظلماً دون جريرة .

هنا تجلت بديهة ابن أبى دؤاد عن حل سريع ، إذ اصطحب معه شاهدين من رجال الدولة ، وهجم على مجلس الأفشين ، والمتهم بين السيف والنطع ، فقال له : أنا رسول الخليفة المعتصم إليك ، يأمرك ألا تمس أبا دلف بسوء ، وها هو ذا حى أمام الشاهدين ، فلا يمكنك أن تعتل بأن القضاء قد سبق ، وأمير المؤمنين ينذرك أن رأسك برأسه إن أقدمت على جرم ما ، فالحذر الحذر ، ثم توجه سريعاً إلى المعتصم ، فقال له : معذرة يا أمير المؤمنين إذا قمت بحديث على لسانك لم تنطق به ، فقد أعجلنى الوقت عن المجىء إليك ، وخفت أن يشفى الأفشين حقده من بطل عربى ذى مروءة ووجاهة بين الناس ، وقد اتهمه ظالماً ، وأحضر شهود الزور ، وأعد الحكم بالقتل ، فقمت بأداء رسالة عنك أرجو أن يكون ثوابها عند الله مدخراً لديك .

فتبسم المعتصم فرحاً ، وقال له : ما فعلت غير الواجب يا أحمد ، فجزاك الله خيراً ، وأحضر من يدعو الأفشين لتوبيخه وتأنيبه ، ونجا سيد العرب أبو دلف بما قام به سيد الناس أحمد بن أبى دؤاد .

قال إبراهيم الصولى : لم يكن أحد يجرؤ على أن يؤدى رسالة عن الخليفة لم تصدر عنه غير أحمد بن أبى دؤاد ، إذ وثق بمكانته منه !

فرد أبو العيناء : ليست المسألة ثقة فى مكانته لدى خليفة ، إذ من يدرى فلعل

المعتصم وهو بشر من الناس يغضب أن ينسب إليه ما لم يأمر به ، فيعاجل ابن أبى دؤاد بالمكروه ، وهذا ما لم يغب عن ابن أبى دؤاد ، ولكنه اندفع وراء مروءته محتسباً صنيعه عند الله ، وقد قدم على المعتصم بين الرجاء والخوف ، وهذا ما يبرر شهامته التى لا حد لها !

قال الصولى : هذا صحيح ، ولكنى أعرف أن الله قد ألهم المعتصم حب القاضى فشجعه ذلك الحب على أن يذهب بمروءته فوق المستطاع .

سكت أبو العيناء قليلا ، فصاح به إبراهيم الصولى : لِمَ لم ترد ؟

فقال فى تؤدة : إذا كان ابن أبى دؤاد ذا حظوة لدى المعتصم يتكئ عليها فى إسعاد البائسين ، وإنقاذ الملهوفين ، فإن الواثق لم يكن فى أول عهده ينزله المنزلة التى احتلها عند المعتصم ، ولكنه ثابر على نفع الناس بوساطته ، حتى كاد يضجر منه ، وعندى فى ذلك شاهد لا يكذب !

قال الصولى : بربك أسعفنى به .

فقال أبو العيناء : حضر ابن أبى داود مستشفعاً فيمن يسمى بعبد الله اليمانى ، فأكثر من الاستعطاف مبدئاً ومعيداً ، والواثق يظهر التضجر ، ولا يستجيب ، ولو كان أحد غير ابن أبى دؤاد لراعى مقتضى الحال وأمسك ، ولكن القاضى ألح وبالغ ، فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لقد أكثرت فى غير طائل ، فقال أحمد : إنه صديقى ، فرد الواثق : وما قدر هذا اليمانى حتى يكون صديقك ، فقال أحمد : يا أمير المؤمنين ، إنه شهرنى عند الناس بالاستشفاع لديك ، فإن لم أقم بواجب الشفاعة فقد ضاع قدرى ، لدى من يعلم أنك تعطف على رجائى ! وما أظنك ترضى بهوانى لديك ! فتبسم الواثق بعد عبوس !

كما أذكر أن أحمد بن أبى دؤاد دخل على الواثق مع نفر من الناس ، فعرف أنه جاء يسأل لهم ما يحتاجون ، فصاح به : لقد أخليت بيوت المال بكثرة ما تطلب يا أحمد، فقال : يا أمير المؤمنين ، نتائج ما أطلب متصلة بك ، وذخائرها موصولة لك ، وأنت المعطى ، والناس يمدحون ، والله يثيب ! فتبسم الواثق ، وقال : تقول مثل هذا الكلام ، وأمنعك ما تريد ، لا والله ، وأمر ، فشفع واستجيب !

ثم استدرك أبو العيناء يقول لصاحبه : لقد انتقلت بنا إلى الواثق قبل أن نذكر غرراً مما نعلم من أمره مع المعتصم ، لقد ذكرنا قصة أبى دلف يوم تعمد الأفشين قتله . ولا تقلّ عنهما قصة أحمد مع البطل الشيبانى خالد بن يزيد .

فقال الصولى : يالله !! خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فارس العرب ، وسيد بنى شيبان ، كان فى حاجة إلى عون ابن أبى دؤاد .

فقال أبو العيناء : عجباً ! كأنك لا تعلم ! ألا فلتسمع !

غضب المعتصم على خالد بن يزيد الشيبانى ، وطلب حضوره من ولايته لمناقشته الحساب فى أموال تصرف فيها خالد بدافع الكرم الموروث عن أبيه ، وكان المعتصم قد استمع لوشايات كثيرة ، ضاعفت من الأثر السيىء فى نفسه نحو البطل الشيبانى ، وأحس أحمد بن أبى دؤاد بما ينتظر من الخطر الداهم ، فتقدم إلى المعتصم شافعاً ملحفاً ، فلم يجبه أمير المؤمنين مصراً على تنفيذ عقوبة صارمة تلحق ابن يزيد ، فقام أحمد من مجلسه بين يدى الخليفة ، وجلس فى آخر مكان حيث لايليق بقاضى القضاة أن يجلس ، فتوجه إليه المعتصم قائلا : يا أبا عبد الله ، جلست فى غير مجلسك المعتاد ، فقال فى أسف : ما ينبغى يا أمير المؤمنين أن أتقدم عن مكانى هذا ، لأنه مكان من لا يستطيع الشفاعة لدى أمير المؤمنين ، قال المعتصم : وكيف؟ فقال أحمد: سيزعم الناس بعد أن خابت شفاعتى أنى أتقدم بين يديك دون استحقاق وأنى لست ممن يستطيع أن يرجو فيجاب ، قال المعتصم : بل فارجع إلى مجلسك ، فقال أحمد : شافعاً أو غير مشفع ، قال : بل تشفع إن شاء الله ، فارتفع القاضى إلى مجلسه الأول ، ثم قال للمعتصم : إن الناس لا يعلمون رضا أمير المؤمنين عن خالد بن يزيد حتى يخلع عليه ، فأمر المعتصم فخلع عليه كسوة تقديرية ، فقال أحمد : ولخالد وأصحابه رواتب ستة أشهر لابد أن يقبضوها ، فإذا أمر بها أمير المؤمنين فى هذا الوقت قامت مقام الصلة ، قال المعتصم : قد أمرت بجميع الرواتب الآن ، فخرج خالد من مجلس المعتصم ، وعليه الخلعة ، وبيده المال ، وكان الناس ينتظرون خروجه إلى السجن مخفوراً ، فتعجبوا مما رأوا ، وصاح أحد أتباعه : الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب ، فقال له : اسكت ، فسيد العرب والله أحمد بن أبى دؤاد ، ولا سيد لهم سواه .

قال إبراهيم : صه يا أبا العيناء ، سيد العرب أمير المؤمنين ، لايسمعك أحد !

فرد أبو العيناء : مولانا أمير المؤمنين سيد العرب والعجم معاً ، ولن يغضب حين يعلم أن أحد أتباعه سيد قومه ، إذ هو سيد السيد .

فصاح إبراهيم مصنفاً : ليت لى بديهتك يا أبا العيناء التى تخرج بها من أعسر المآزق !

فقال صاحبه : أهذا مأزق يا أخى ، إن الناس جميعاً يعلمون أن ابن أبى دؤاد المحامى الأول عن العرب فى مجلس الخليفة ، وما اغتاظ أعداء العرب إلا من سطوته الحازمة ، ومروءته النادرة ! بل ما مدحه شاعر إلا وذكر فخر العرب بأحمد ! ألم تسمع قول أبى تمام :

أخذت بأعضاء العريب وقد خوت ... عيون كليلات وذلت جماجم
فأضحوا لو اسطاعوا لفرط محبة ... لقد علقت خوفاً عليك التمائم
ولو علم الشيخان أدّ ويعرب ... لسرت إذن تلك العظام الرمائم
تلاقى بك الحيسان فى كل محفل ... جليل ، وعاشت فى ذراك العمائم

قال الصولى : لقد جئت إلى زيارتك ، وكلى حب وتقدير لقاضى القضاة ، وقد تطوح بنا الحديث فى مآثره ، التى لايمكن أن تقف عند مجلس واحد ، ولكنى أتذكر قول بشار : ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ، أتذكره لأنى أعرف أننا بشر ، ولا كمال لإنسان !

فأجاب أبو العيناء : ماذا تعنى يا أخى ؟

فرد الصولى : أعنى أن الكمال لله وحده ، إذ لو كان ابن أبى دؤاد ممن ترضى جميع سجاياه ، ماقام مقام العسير فى مشكلة خلق القرآن ..

عض أبو العيناء على شفته متألماً وقال : هو ما تقول يا أخى ، لقد اندفع الرجل إلى تأييد المأمون ، فكانت الكارثة .

قال الصولى : أخشى أن يكون قد اندفع إلى توجيه المأمون نحو الكارثة .

قال أبو العيناء : ولماذا تخشى ، الحق حق ، لقد شغف ابن أبى دؤاد بقضايا الاعتزال ، وعد نفسه نصيراً لكل قول يسوقه المعتزلة ، وله أن يعتنق ما يشاء .

فرد الصولى : له أن يعتنق ما يشاء متى اتضح له الدليل ، ولكن ليس له أن يفرض على غيره مالم يقم عليه دليل فى منطقه ، لأن لأهل السنة منطقاً غير منطق الاعتزال .

لم يبد أبو العيناء اعتراضاً ، ولكن سحابة الألم قد غشيت وجهه ، فقال له الصولى : هل آلمتك فى شىء ؟

فقال أبو العيناء : لا والله ، فأنا أعلم ما تقول قبل أن تقول ، ولكنى أعلم أن أحمد قد ندم على ما قام به من تعذيب قوم كرام ، تمسكوا بما يرونه الحق ، وإذا كان المعتزلة يعطون لأنفسهم الحرية فى أن يقولوا ما يشاءون ، فإن من الواجب أن تكون هذه الحرية أيضاً لخصومهم كى يقولوا ما يشاءون ، أما أن تكون الحرية لفريق دون فريق ، فهى التسلط والاضطهاد ! رحم الله أحمد بن حنبل ورحم عشرات مثله قاسوا أبرح الآلام ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل ما يعتقدون ! على أنى أحب أن نتجاوز هذا الموضوع الآن ، فهو مما يحسب على القاضى ، كما يحسب على سواه !

قال الصولى : لدى اقتراح أن نزور القاضى فى محنته ، ونحاول التخفيف عنه غداً إذا حان الأصيل !

فقال أبو العيناء : ولماذا ترجئ إلى الغد ، قم معى يا صاحبى الآن ، وسنجده جلداً على النوائب ، صلباً صلابة الجبال الراسيات !

قحط وغلاء !

— ١ —

شح النيل فلم يصل إلى مستواه المنتظر ، وجفت الزروع حين أعوزها الرى ونفقت آلاف الأرواح من البهائم ، وانتشر بينها وباء كاد يقضى عليها جميعها ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً مخيفاً ، إذ جعل الناس يبحثون عن القمح والشعير والذرة فلا يكادون يعثرون على ما يمسك الرمق ، وقد انطلق الأمراء من المماليك يقتحمون الدور ، وينهبون ما قد يوجد بها من فتات الطعام ، وبقايا الحيوان ، بحجة أنهم يقدمون ما يجمعون إلى طوائف الشعب التى أنهكها الجوع ، والحق أنهم يدخرون لأنفسهم ، ليبيعوا ما نهب بأضعاف أضعاف مقداره ، ورأى السلطان الغورى أن يجمع العلماء ورجال الحسبة ليتشاور فيما نزل من خطب كارث !

وقد نهض لتلبية دعوة السلطان أعيان الفقهاء وكبار التجار ، وتقابل فى الطريق إلى القصر السلطانى المؤرخان النابهان الشيخان عبد الباسط الحنفى ، وحسن الطولونى ، فابتسم كل منهما فى وجه صاحبه ، ابتسامة تنبئ عن مرارة لاذعة ، ثم سارا معاً يتهامسان بما لم يستطيعا أن يجهرا به .

فقال عبد الباسط : عجباً ؛ يجمعنا السلطان للتشاور فيما نزل من القحط فى البلاد ، وهو الذى جمع الحبوب ، واحتكر الأخشاب والفواكه ، وحرم بيعها فى الأسواق ، ليندرج ثمنها إلى حسابه الخاص ، من الذى يجرؤ أن يجابهه بذلك !

فقال حسن الطولونى : وليت الأمر قد اقتصر على السلطان ، فإن أعوانه من أمراء المماليك يغصبون لأنفسهم أضعاف ما يقدمونه للسلطان ، وهم يجمعون غرائر القمح والشعير ، ثم يملئون بها السفن لتذهب إلى الخارج بالثمن الباهظ ، ونحن نتضور جوعاً دون أن نملك الكلام !

قال عبد الباسط : وماذا سنفعل فى هذا الاجتماع ؟

فرد الطولونى يقول : أنت أدرى ، سيقف السلطان غاضباً ، ويشتم التجار الذين يساعدون على الغلاء ، ويعلن أنه لن يرحم أحداً يخزن شيئاً ، والتجار ساكتون لا يتكلمون ، والمحتسب يندد بهم !!

قال عبد الباسط : المحتسب كان الله فى عوننا بإزائه ، لقد فرحنا حين اختار الغورى قاضياً من العلماء ليكون المحتسب العادل ، بعد أن كانت وظائف الحسبة وقفاً على أمراء المماليك ولكن الغورى قد عجم أعواد القضاء ، فرأى الزينى بركات أصلح من يقوم على تنفيذ رغباته ، فاختاره لا يمنع الغلاء ويحاسب التجار ، بل ليبلغه عن شراذم المماليك الذين ينهبون القوت باسمه ، ويبيعونه لجيوشهم حين يصدرونه إلى الخارج ، وإذ ذاك يعدها الغورى فرصة مواتية للإيقاع بمن يظنهم يتطلعون إلى منصبه ، وقد صادر عدة أمراء ، ودفع بهم إلى السجن ، وأعلن محاكمتهم فى مجالس القضاء العلنية لأنهم ينهبون القوت ، إذ علم أنهم يتآمرون عليه مع أمراء الشام ! فرأى أن يبيدهم فى محاكمة ظاهرة العدالة أمام الناس ، ثم يرمى بهم فى السجون كى يأكلوا السم واحداً بعد واحد ! ويكون الموت بقضاء الله وقدره !

قال الطولونى : وهل يعرف المحتسب الفقيه — رجل الشرع والقضاء — هذه الأهوال ؟

فابتسم عبد الباسط الحنفى وقال : أنت تعرف لماذا اختاره الغورى ؟ كما تعلم أنه يسمر معه أكثر ليلات الأسبوع ، ثم يخصه بمجلس منفرد ! فهل ينفرد الغورى ببركات ليسمع منه أصول العقيدة وفروع الفقه ! إن السلطان لو اشتاق إلى مجلس علمى لأحضر كبار الشيوخ فى مشهد عام ، ليقال إنه محب للعلم والعلماء ! وقد تباعد عنه شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، واعتل بالمرض وكبر السن فى تباعده ، وكنت أزور شيخ الإسلام فسألته عن احتجابه عن الناس ! فقال : يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى !

فقال الطولونى : كما ضاقت صدورنا جميعاً ، وعلينا أن نسكت الآن لساننا فلا ينطقا ، فقد كثر همسنا ، والرقباء لا يحصون .

ثم دنا القصر ، وامتلأت ساحته بالوفود ، فهرع كل مدعو إلى مجلسه ، وحضر السلطان فى أبهته الحافلة ، العمامة المزركشة بالذهب ، والجبة الواسعة المطرزة بأنفس المعادن واللحية المصبوغة المضمخة بالمسك ، والسيف فى يده استكمالا للرهبة ، فنهض الجميع وقوفاً وملامح الغورى تنطق بالغضب ، حتى إذا تصدر المجلس ، ومن حوله حراسه تلمع سيوفهم بأرهب البريق ، أدار عينيه الواسعتين فيمن يراهم ، ثم سأل : هل تخلف أحد ممن دعوناه ؟

فقال الحاجب الأول : لقد اعتذر شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، لمرضه ؟

فابتسم الغورى وقال : ومتى سيرتاح الشيخ من مرضه الطويل ؟ نسأل الله له الراحة لنرتاح نحن أيضاً ؟

ثم توجه إلى التجار يقول : الحبوب مكدسة ، والصوامع ممتلئة تحت السردايب ونحن نجوع ! ولا نجد ما نأكل ، وكل يوم يموت المائة والمئتان ، والعلماء الكرام تصلهم هدايا التجار فيسكتون !

ثم علا صوته حين قال : لقد كان المحتسب من أمراء المماليك ، فجعلتم تصفونه بالنهب والسلب والمصادرة ، وفيكم من تجرأ فقال إنه يعمل لحساب الغورى ، ولم أشأ أن أعاقب هذا الوغد ، مع أنى أعرفه ، وهو بينكم الآن ، ولكنى آثرت العفو الرحيم ، ثم رأيت أن أكل الحسبة إلى قاض من قضاة الشرع هو شيخكم الزينى بركات ، فسار بينكم بما يرضى الله ورسوله ، وبذل الجهد فى مراقبة الأسعار ، ومنع الاحتكار ، ثم جاءتنى الأنباء أنكم تقولون إنه يدلس بأمر السلطان ، فياشيوخ العصر ، وياتجار الجشع والنهب ، ماذا أصنع معكم ، لايرضيكم المحتسب الأمير ، ولا المحتسب الفقيه ! أأبحث عن ملك فى السماء !

فتقدم الزينى بركات إلى السلطان رافعاً إصبعه ، كى يأذن له فى الحديث ، وعرف الغورى ما يريد ، فصاح : ماذا تقول ياشيخ بركات وأنت متهم من الناس كما اتهم قبلك أمراء المماليك ! وهم أبرياء !

فقال الزينى بركات : إن العلماء وفقهم الله يقدرون التبعة الملقاة على عواتقهم فى هذه الأزمة الخانقة ، وسيجتمعون بالتجار فى مسجد سلطاننا الغورى عصر الغد ،

وسنبرم الأمر حين أبلغهم رغبتك الكريمة فى أن يكون العالم ناصحاً مخلصاً ، وأن يكون التاجر رحيماً أميناً ، فإذا تكلم العالم ، واستمع التاجر ، وتعاون الاثنان على البر والتقوى ، فستنجلى الغمة بإذن الله !

قال السلطان : وإذا كان الأمر بأيدى العلماء والتجار ، فلماذا تأخروا عن الواجب ، حتى دعوت إلى هذا الاجتماع ؟

فقال الزينى : كنا نتشاور يامولاى ، لأنك تعلم أن منسوب النيل قد انخفض هذا العام إلى مالم نعهده من أقل المستويات ، فالأمر ليس أمر التجار وحدهم ، ولكن أمر الأرض التى شحت ومنعت خيرها عن الناس ! وقد جاءنى أن أكثر الفلاحين هجروا قراهم حين أعوزهم القوت ، وهاموا فى البلاد يتسولون ؟ وممن ؟ ممن يعتمد عليهم فى لقمة الخبز ، وملعقة الأرز يامولاى ! وأنت تعلم أن هذه الأزمة الشديدة لم تحصل من قبل على مد العصور فى مصر منذ عهد الفراعنة إلى الآن ، فنحن أمام وضع خطير !!

سكت السلطان غاضباً ، وجعل ينقل بصره فى الجموع المتراصة أمامه ، ثم قال : لقد كفانى الزينى بركات ما كنت أريد أن أسمعه لكم من قارص القول ، وشديد الوعيد ، وسأرقب اجتماع الغد فى مسجدنا بالغورية ، إذ تصلنى أنباؤه عاجلا دون إبطاء ، وكم كنت أود أن أشارككم فيما ستبحثون ، ولكن سأترك المجال فسيحاً للنقاش الحر ، وقبل أن أغادر مكانى أعلن أن الأمر خطير ، وأنى مستعد بأن أضحى بالمئات والآلاف لتبقى الملايين ! فهيا على بركة الله ! ثم نهض السلطان ملتفاً بحاشيته ، وقد سكتت الأفواه ، وخشعت الرءوس .

- ٢ -

ماكاد الشيخان عبد الباسط بن خليل ، وحسن الطولونى يهمان بالانصراف ، حتى جاءهما رسول يدعوهما إلى الانتظار فى حجرة الضيافة بالدور الأول للاجتماع مع المحتسب الزينى بركات حسب إشارته ، فنظر الرجلان مأخوذين ، ووليا وجهيهما شطر حجرة الضيافة ، وفى نفسيهما شكوك حول هذه الدعوة المفاجئة ، إذ يعلمان أن العلاقة بينهما وبين المحتسب ليست على ما يرام ، فلماذا اختارهما وحدهما للقاء ؟

قال الطولونى ، وقد جلس يدور بعينيه فى فضاء الحجرة :

— هل فكرت ياعبد الباسط فى أسباب هذه المقابلة العاجلة ؟

— لم أجد سبباً يدعو لها ، وبعد لحظات سيتضح الأمر ، حين يجىء شيخنا المحتسب ! وأنا أسمع خطوات تدنو ، فلعله هو !

ثم مالبث القاضى الزينى أن دخل ، فنهض الشيخان للقائه ، ولقد أحس بما يدور فى نفسيهما من هواجس ، فقال : دعوة حبيبة لاخوف منها !

فقال عبد الباسط : ومم نخاف أيها الشيخ ؟

فرد الزينى : كثير من إخواننا العلماء يفزعون حين أدعوهم للقاء ، وقد أردت لقاءكما الآن لنتناصح ، كل منا ينصح أخاه !

قال الطولونى : النصيحة ضرورية حين تشتبه الأمور ، فرحباً بها !

فأجاب الزينى : نمى إلىّ أنكما كنتما تتهامسان فى حديث خطير ، تردد فيه اسم السلطان !

فدهش الرجلان ، وبادر عبد الباسط يقول : نحن نحب الخير للسلطان ، ولا نقول عنه إلا كل خير .

قال المحتسب الزينى : ولم كان التهامس إذا كان الحديث مديحاً فى السلطان ! إن الذى أعرفه أن للسلطان آذاناً راصدة تسمع دبيب النمل ، وأخشى أن يصله عنكما ما يسىء ! وأنا أخوكما ، وما دعوتكما إلا للخير ، فأفصحا .

قال عبد الباسط : أنت أهل الخير ، وقاضى الشرع من قبل ، وما نكن لك إلا كل توقير ، فتأكد من ذلك أولا !

فقال الزينى : قد تأكدت ، ولذلك دعوتكما لأسمع رأيكما فى اجتماع اليوم ، وما خاطبت به السلطان !

قال الطولونى : كنت لبقاً دقيق المعنى ، فراعيت مقتضى الحال تماماً ، وأحسنت إذ فوضت الأمر للتجار والعلماء فى اجتماع الغد ، ولكنك جاوزت حقائق التاريخ حين ذكرت أن هذه الأزمة الطاحنة لم يمر مثلها بالبلاد من قبل .

فصاح الزينى : هذا ماقاله السلطان الغورى لى عدة مرات ، وقد عبس متذمراً وهو يصيح : أأنا مصدر النحس حتى تصاب البلاد فى عهدى بهذه الأزمة ، فيكون وزرها علىّ من بين الملوك على مدى التاريخ ؟

فقال عبد الباسط : ولماذا لم تصحح له الوضع ، ليطمئن بعض الشىء ، فلا يعرف أنه وحده مصدر النحس ، لقد تعاقبت أزمات الغلاء والقحط فى مصر على ممر العصور ، وسجلتها صحائف التاريخ بما لم يغب عن مثلك !

فتطلع الزينى يقول : لقد طالمت كتب الفقه والأصول والتوحيد ، ودرست علوم اللسان ، ولكنى لم أقرأ صحف التاريخ ، ولا أعلم شيئاً عما مضى من الأزمات ! فليتكما تتحدثان ببعض ما كان !

قال الطولونى : لك أن تقرأ ما سنبعثه لك من أقوال السابقين ، لتقف على الخبر اليقين !

فقلب الزينى كفاً بكف وقال : ألمثلى أن يفرغ للقراءة لحظة واحدة ، فضلا عن الساعات المتصلة ، ورقبتى مغلولة بما يناط بى من الأعباء ، أريد منكما الآن عرضاً لبعض ما كان . كى أسارع بنقله إلى السلطان فأرفه عنه حين يعلم أنه ليس مصدراً للنحس ، وإنما هى سنة الحياة ، بالله ثم بالله إلا حدثتمانى دون تأخير ...

قال عبد الباسط : إن أخبار هذه الفواجع مسطورة فى أكداس ما كتبه المؤرخون ولكن شيخنا المقريزى رحمه الله قد خص هذه النوائب بمؤلف لطيف ، سماه إغاثة الأمة بكشف الغمة ؟

قال الزينى : أسعفانى بذكر أمثلة مما قال .

فرد الطولونى معقباً : لن نذكر الأمثلة فقط ، بل لابد أن نذكر ما سجله المقريزى من أسباب هذه المحن ، لأن معرفة الأسباب تشير إلى مكمن الداء ، كما تشخص الدواء .

فقال الزينى : وقتى قصير ، لذلك أرجو بعض الأمثلة ، وبعض الأسباب ، ولعلى أدرك من هذه الأسباب ما يهدى إلى تجنب العثار ! هيا يا شيخ عبد الباسط !

— ٣ —

قال الشيخ عبد الباسط : إن السبب المباشر لأكثر حالات القحط واشتعال الغلاء هو نقصان النيل عن معدله الطبيعى ، لأن انخفاض الماء قد يبلغ مرحلة الجفاف فيتعذر على الزراع أن يقوموا بستى الأرض وريها ، وإذن فلا نبات ولا زرع .

فرد الزينى بركات يقول : هذا صحيح لاشك فيه ، ولا حيلة للدولة فى نضوب النيل ، فلم يؤاخذنا العلماء على شىء لا نستطيع دفعه ؟

فواصل عبد الباسط يقول : لم يغب عن المقريزى أن نقصان الماء خارج عن نطاق الدولة ، ولكن يضيف إلى هذا السبب حكمه بأن من المستطاع أن تتجنب الدولة الحازمة كثيراً من ويلات القحط ، بأن يكون لديها القمح المدخر كل عام لتوقع نقص الماء ، فإذا فاض النيل لم يضر المخزون شيئاً ، بل يعمل على الرفاهية وإذا لم يفض كان فى المخزون ما يعوض بعض النقص ولا أقول كله ، كما يمكن أن تستورد الدولة الكثير من الزاد من البلاد المجاورة أو البعيدة ، والسفن تأتى وتروح دون حائل ، كما فى وسع الدولة أن تواجه المحتكرين بكل شدة ، كما فعل جوهر الصقلى حين دهمه الغلاء الفاحش لأول مقدمه إلى مصر ، إذ وجه همه إلى ضبط السعر ، وسلط العذاب علناً على المستغلين من الطحانين والخبازين ، وأمر ألاتباع الغلال إلا فى أمكنة محدودة ، لتسهل المراقبة ، وتمتنع المزايدة ، وأرسل عيونه فى الأسواق يراقبون حركات الأسعار ، ويصدرون الحكم الصارم على المستغلين ، فخفت حدة الغلاء .

فقال الزينى : هذا إذا وجد القمح والشعير والأرز ، ولكن ماذا نعمل إذا لم نحصل على شىء ؟

فقال عبد الباسط : ذكر المقريزى أن الحاكم بأمر الله فوجئ فى بعض السنوات حين نقص النيل عن منسوبه ، بامتناع التجار عن البيع محتجين بأنهم لايجدون شيئاً يبيعونه ، وقد علم أن طرقاً خفية يسلكها هؤلاء ليبيعوا المخزون بالثمن الباهظ ، وقد اجتمع الجمهور حول قصره ، وضجوا يصرخون من الجوع ، فنهض الحاكم إلى السوق العام ، وجمع التجار وقال : كل من لم يحضر مالديه من المخزون فى مكانه

السرى فسأحرق داره بما فيها ، ولأضربن رقاب التجار مهما تعللوا بالإفلاس ، وأحضر السيوف والجلادين ، ففزع هؤلاء ، وأخذوا يحضرون ماخزنوه ، فامتلأ السوق بالغذاء ، ولم يترك الحاكم الأمر فوضى ، بل فتح المحلات العامة ، وأقام عليها من يبيع لكل رجل قدر حاجة طعامه اليومى فحسب ، ويأتى فى اليوم الثانى ليأخذ ما يأكل مع أسرته ، كيلا يحتكر الموسرون طعام أيام عدة فى يوم واحد ، فينفد الزاد .

سكت عبد الباسط ، وتطلع القاضى إلى الطولونى ، فقال : سمعت من الشيخ مالديه ، فماذا لديك ؟

فقال الطولونى : نحب أن نتصارح ياسيدى ، فقد ذكر المقريزى من أسباب الغلاء مالا نزال نشكو منه الآن ، إذ أرجع العلة فى القحط فى بعض أمورها إلى جشع الملتزم حيث يرفع قيمة الإيجار مغالياً ومزايداً حتى تبلغ قيمة الفدان الواحد عشرة أمثاله ، وذلك ليرضى رؤساءه ، ويجد الفلاح نفسه متحملا مالا يطيق ، وعليه مع ذلك أن يقوم بنفقات الحرث والبذر والحصاد والدرس مع ما يفاجئه من مصادرة الماشية والدار وأثاث المنزل ، ومن الذى يصبر على هذا البلاء ؟ لذلك هجر الفلاحون الأرض ، وهربوا من البلاد ، وتركت مساحات شاسعة من زمام مصر خالية مهجورة تفتقد الزارع فلا تجده ، فإذا كان نقصان النيل عاملا من عوامل القحط ، فإن هروب الزارع عامل آخر .

قال الزينى : وإذا أخذنا هؤلاء الهاربين بالشدة ، كثر الهمس ، ونسب الظلم للملتزم والمحتسب والوزير والسلطان !

فعجل الطولونى يقول : الشدة فى هذا المجال ظلم صريح ، والعدل طريق الإصلاح ، فعليكم أن تحددوا ريع الفدان تحديداً معقولا يرضى الزارع بحيث يترك له ما يأكل ، وما ينفق فى مرافق حياته ، وإذ ذاك يقبل على الزراعة راضياً مخلصاً ، أما أن ينهب الملتزم وينهب الأمير المالك وتنهب الدولة ، فذلك هو الخراب .

فضحك الزينى وقال : كدت تقول : وينهب المحتسب !

فقال عبد الباسط : لقد دعوتنا للمصارحة ، أفنضيق بها أيها القاضى ، ولا أقول أيها المحتسب !

فزفر الزينى زفرة تدل على حسرة مستترة ، وقال : أشهد الله أنى أحسد زملائى القضاة ، الذين يؤدون حق الشرع فى إحقاق الحق ، عملا بشريعة الله ، وهم موضع التقدير من الرئيس والمرءوس ، وقد ظننت حين تركت وظيفة القاضى إلى وظيفة المحتسب أنى سأكون مطلق اليدين فيما أفعل ، ولكن الأغلال قد طوقت رقبتى ويدى وقدمى فما أستطيع الفكاك ! فما السبيل إلى أن أكون مطلق القيد وأنتما تعلمان ؟ .

ابتسم الشيخان فرحين ، وصاحا معاً : كدنا نتفق !

فقال الزينى : أفصحا ، فقد اشتبه السبيل أمامى .

قال الطولونى : الزم الحق ما استطعت ، وللسلطان ثقه فيك ، وأنت ذو حيلة ، فإذا رأيت غضبه يكاد يشتعل ، فاحن رأسك للعاصفة ، وقم مضطراً بما يريد ، أما غير السلطان من الأمراء فقف أمامهم موقف الصارم المحاسب ، ولن تخشى منهم أية أذاة ، مادام الغورى راضياً عنك ، بل إنهم سينكمشون أمامك ، خيفة من سخط السلطان !

فعقب عبد الباسط يقول : وهنا نكون قد سددنا أبواباً كثيرة من أبواب الشر ، ونترك باب السلطان لمن يقدر عليه ! والله المستعان !

قال الزينى بركات : سبحان من يغير النفوس ، لقد طلبت لقاءكما ، وأنا ضائق بكما أشد الضيق ، وكنت أظن أن اتفاقنا مستحيل ، ولكن مادار من حديثكما على سمعى قد رفع عن عينى الغشاء ، وأنا فى أعماق أحمل ضمير القاضى وتقواه ، ومازى المحتسب إلا طلاء زائف أرجو أن يرحنى الله منه ، ووالله لولا أننى أعرف غدر الغورى وعظيم كيده لبادرت بالاستعفاء ، ولكنه — كعادته — سيعلن الموافقة وما أكاد أخرج من مجلسه حتى أتعرض إلى الحبس والمصادرة ، وإذا وقف الأمر عندى فهى محنة تحتمل ، ولكنه يتعدى إلى أولادى ومن يلوذون بى ! فالريح عاصفة وزورقى واهن ضعيف ! على أنه لا بأس ، فقد تتبدل الحال .

قال عبد الباسط : نحن صديقاك وزميلاك ، وقد استرحنا للفائك كثيراً ، ولعل وقتك لا يسمح بأن نطيل .

فابتسم الزينى ، وقال : لن أتركما حتى أسمع قصة السيدة التى اشترت قرصة الدقيق بألف دينار فقد سمعتها قديماً من شيخنا جلال الدين السيوطى ؟

فقال الطولونى : ومادمت تعرفها فما فائدة إعادتها !

فرد الزينى : إنى أذكر القصة الآن مجملة فحسب ، وأريد أن ألم بحوادثها مفصلة ، فقد يكون فى سردها الآن بعض ما يريح !

قال الطولونى : أما إذا أردت ، فإليك إذ قرأتها أنا فى كتاب المقريزى ، وما أظن إلا أن شيخنا السيوطى قد رواها عنه أيضاً .

امتنع القوت ذات يوم ، فما عرف له أحد طريقاً ، وكانت سيدة من أرباب البيوتات ترى أولادها يبكون جوعاً فلا تعرف كيف تتصرف ، وكان لديها عقد قيمته ألف دينار ، فأخذت تعرضه على من يقدم لها به بعض الدقيق ، وكل يعتذر ، إلى أن رحمها بعض التجار ، وأعطاها به كيساً من الدقيق ، فلم تستطع أن تسير به خيفة ممن يهجم عليها من الناس ، فلا يترك لها شيئاً ، وجعلت لها حامياً شاباً من أصحاب السطوة كى يدفع عنها إذا دوهمت وهى تسير ، ولكن الناس تكاثروا على صاحبها ، وجعلوا ينهبون الدقيق نهباً ، كل يحمل فى يده ما يستطيع ، وقد حملت هى الأخرى قبضة واحدة ، فعجنتها قرصة ، ثم اتجهت إلى قصر الخليفة المستنصر بالله ، وقالت : يا أهل القاهرة ، قرصتى هذه بألف دينار .

وتجمع الناس ، وتعالى الضجيج ، فنظر المستنصر فسمع المرأة تصيح : اشكروا مولانا المستنصر ، فقد عثرنا على القرصة بألف دينار ! فتضايق الخليفة وانزعج ، وبعث إلى الوالى ، وأقسم أنه إذا لم يبذل جهده فى إحضار المخزون وتفريقه على الناس مع خفض الأسعار فستضرب رقبته ، لأن هذه هى سياسته ، فخرج الوالى خائفاً ، وفكر فى أن يحضر جماعة من السجن حكم عليهم بالقتل ، فيلبسهم ملابس التجار والخبازين والطحانين ، ثم يعقد مجلساً يحضر فيه كل من يشتغل بأمر القوت فى القاهرة .

وحين تم ما أراد أخذ يعرض المسجون وعليه ثياب التاجر وعمامته الواسعة ، وطيلسانه الواسع ، فإذا مثل بين يديه ، قال له : ويلك ، أما كفاك أنك خنت السلطان ، واستوليت على مال الديوان ، ثم اشتريت الغلال ، واحتكرتها ليغلو السعر أضعاف الأضعاف ، اضربوا رقبته ، فينهض السياف بالأمر ، ويجيء الثانى والثالث والرابع ، حتى أيقن المجتمعون أن الدور سيأتى عليهم ، فنهض الحاضرون فزعين وصاحوا : أيها الأمير ، سنخرج كل مالدينا ، وندير الطواحين ونغمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار . قال الأمير : لا أرضى حتى يكون الرطل من الخبز بدرهم واحد . قالوا : نعم . وظهر المخزون من السراديب فملأ الأسواق .

قال القاضى ضاحكاً : عندنا مجلس فى الغد ، أفنفعل هذا ؟

فرد عبد الباسط : تهديد التجار ضرورى ، وسأخطب الجمعة إن قبلت ، فأعلن أن قتل المحتكر مباح ! تاجراً كان أو خبازاً ، أو طحاناً .

فرد الزينى : وسأقرأ منشور الغورى الذى صدر منذ أيام بقتل المحتكرين ومن قامت عليه أدنى شبهة ! ولعلنا نجد المخرج بعد ذلك ، بتوفيق رب العالمين :

وتعانق الشيوخ ، وخرجوا آملين .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
ثلاث بشارات	٥
زينب الأولى	١٣
خطيب الأنصار	٢٠
التائب المنيب	٢٧
هارب من نفسه	٣٣
نبوءة تتحقق	٤١
إلى بيت المقدس	٤٨
خاتمة الهرمزان	٥٨
زينب الثانية	٦٧
خارجيان يتوبان	٧٧
العم الصريع	٨٨
أبو جعفر يحج	٩٨
دولة الأدارسة	١٠٧
يزيد بن مزيد	١١٨
محنة البرامكة	١٢٥
إقدام عمر	١٣٥
سماحة حاتم	١٤٢
حلم أحنف	١٤٩
ذكاء إياس	١٥٨
قاضى المأمون	١٦٥
قاضى القضاة	١٧٢
قحط وغلاء	١٨٠

منتديات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

• المؤلف فى سطور •

أ . د : محمد رجب البيومى

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة .

- نال جوائز مجمع اللغة العربية المتعددة فى الشعر والمسرحية والدراسات الأدبية .
- له أكثر من ثلاثين كتاباً فى الإسلاميات والأدب والنقد والتاريخ والبلاغة .
- يصدر سلسلته التاريخية عن النهضة الإسلامية المعاصرة فى أجزاء متوالية ينشرها مجمع البحوث الإسلامية .
- له أربعة دواوين شعرية هى : صدى الأيام ، وحنين الليالى ، وحصاد الدمع ، ومن نبع القرآن .
- نشرت له مقالات وبحوث كثيرة فى الرسالة والثقافة والكتاب والهلال والأديب وغيرها من مجلات العالم العربى .
- أسهم فى الكتابة للأطفال بقصص كثيرة تعددت طبعاتها .

منشورات قلعة طرابلس
www.tripolicastle.com

رقم الإيداع : ٤٧٥٤

الترقيم الدولى : ٦-١٩٢-١٦٣-٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون ٨٢٦٢٨٠ القاهرة